فارس سوق النخاسة

عنوان الكتاب: فـــارس ســـوق النخاســـة
الموضـــــوع: روايـــــــــــــة
التـأليـــــف: مجـــــدي محـــــروس
تـــــدقيق: مجـــــدي محـــــروس
الإخــراج الفنــيّ: عمـــرو ســـالم ســـواح
تصميم الغلاف: فـــــارس إيهـــــاب
رقـــم الإيـــداع: ٢٧١٦٥ /٢٠١٩
التــرقيم الـدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٣٥-١٨٢-٨
الناشر : زحمة كتاب بالتعاون مع اسكرايب للنشر والتوزيع
Facebook Page: اسكرايب للنشر والتوزيع
Email:scribe20199@gmail.com
Tel: 00201005079256

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار
اسكرايب للنشر والتوزيع

كل الحقوق محفوظة
لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل
من الأشكال ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

رواية

فارس سوق النخاسة

تأليف

مجدي محروس

إهداء

إليهما:

- أبي.. الذي أفنَّى عُمرَه من أجلِنا، وتَوفَّاهُ اللهُ، ولم يرَ نجاحي.

- أخي الصغير .. الذي هَزَمَهُ المَرَضُ اللعينُ، وهو في ريعانِ الشَّبابِ .

إلى روحيهما معاً ..

أُهدي روايتي الجديدة .

مجدي محروس

على اسم مصر التاريخ يقدر يقول ما شاء
أنا مصر عندي أحب وأجمل الأشياء
بحبها وهي مالكه الأرض شرق وغرب
وبحبها وهي مرميه جريحة حرب
بحبها بعنف وبرقة وعلى استحياء
واكرهها وألعن أبوها بعشق زي الداء
واسيبها واطفش في درب وتبقى هي ف درب
وتلتفت تلقيني جنبها في الكرب

صلاح جاهين

١) مجرد صَعاليك ..

داخل ذلك الحُوشِ المُتَاخمِ لمقابرِ بابِ الوزير، اصطفَّ مجموعةٌ من الصبيةِ مُختلفي الأعمارِ بملابسهم الرثَّة الممزقة، وملامحِهم الشاحبِة، وعيونِهم الزائغةِ اليائسة، وفي يدِ كلٍّ منهم حصيلةُ ما جمعه طيلةَ يومِه من التسوّل بشوارعَ وميادينَ وإشاراتِ المرورِ بالقاهرة، وأمامهم كان " الأعور" بجسدِه الضخمِ جالساً فوقَ مقعدٍ قديمٍ، وأمامه منضدةٌ من الصاج علاها الصدأ، وقد راح يتطلعُ لكلٍّ منهم من خلالِ عينِه الواحدة في نظرةٍ طويلةٍ متفحصة ..

وكان لنظرتِه تلك أكبرُ الأثرِ على هؤلاء الصغارِ حيثُ كان كلٌّ منهم يفكرُ ألفَ ألفَ مرةٍ قبلَ أن يلعبَ الشيطانُ برأسِه ليفكرَ في إخفاءِ جزءٍ مما جمعَه طيلة يومِه لنفسه ..

نعم .. فما أن تقعَ عينا أحدِهم على الأعور بملامحِه القاسيةِ، وتلك النُدبَة الغائرة التي تُزيّنُ خدَّه على مقربةٍ من أنفِه، حتى يُسرعَ وبلا تفكيرٍ في إفراغِ كلِّ ما في جيوبه أمام " الأعور" على تلك المنضدةِ الصدأة ..

والحقيقةُ أنَّ " الأعور" كان يعلمُ أثرَ نظرتِه تلك عليهم؛ لذا فقد كان قليلًا ما يتحدثُ معهم حين يلتقي بهم مساءَ كلِّ ليلة؛ ليستوليَ على كلِّ ما جمعوه من مالٍ، ولا يتركُ لهم إلا قروشاً قليلة تكفي بالكاد لشراءِ بعضٍ من الحلوي الرخيصة ..

كان كلٌّ منهم يُلقي ما بيده أمامَ " الأعور"، ثم يتجه لأحد أركانِ الحوش؛ ليلقيَ بجسدِه وسطَ مَنْ سبقوه مِن رفاقِه فوقَ حصيرٍ قديمٍ ممزق، ويمدُّ يدَه ليتناولَ رغيفاً من الخبز المُلقى فوقَ الحصير الذي تعلوه الأتربةُ لتتصارعَ يداه بعدها مع أيدي رفاقِه داخلَ طبقِ الفول، الذي يجمعُ بينهم كلَّ ليلة، وبعدها يتمدّدُ كلٌّ منهم في مكانِه فوقَ الحصير حتى فجر اليومِ التالي لتبدأ رحلتُهم مرةً أخرى مع شوارعِ القاهرة التي لا ترحمُهم من أمطارٍ غزيرةٍ وبردٍ قارسٍ في الشتاء أو حرارة الشَّمسِ التي تلسعُ أقدامَهم الحافية ، وتلفحُ وجوهَهم في الصيف ..

ارتفعتْ عينُ " الأعور" في تلك اللحظة، وقبضتْ بقسوةٍ على كفِ طفلٍ صغيرٍ أبيضِ البشرة ممتلئ الجسدِ لم يتجاوزْ العاشرةَ من عمره، وهو يضعُ ما معه على المنضدةِ " .. شحَبَ وجهُ الصغير، وراحَ يتطلعُ للأعور بوجهٍ ممتقعٍ، وعينين زائغتين يائستين، جذبَه " الأعور" مِنْ ذراعِه، وأجلسَه بجواره في قسوةٍ دونَ أنْ يتفوَّه بحرفٍ، وراحَ يواصلُ عملَه في جمع الأموالِ من بقيةِ الصبية ..

الصبيةُ يرمقون الصبيَ الذي أجلسَه " الأعور" بجوارِه في إشفاقٍ وراحةٍ في آن واحد ..

إشفاقٌ لما سيعانيه هذا الصغيرُ من ويلاتٍ على يدِ هذا المعتوهِ الذي لا يعرفُ الرحمة ..

وراحةٌ لأن أجسَادهم جميعاً قد نجتْ - في هذه الليلةِ على الأقل – من المصيرِ الذي ينتظرُ هذا الصبيَ الصغير ..

في تلك الأثناء يُقبلُ أحدُ الصبيةِ، وهو يحملُ النارجيلة بين يديه، ويضعها أمامَ " الأعورِ" الذي راحَ يُنفِّثُ دخانَها، وهو يُسوِّي الأموالَ التي

جمعها من الصبية؛ ليضعَها في جيبِه وبين كلّ فينةٍ وأخرى تتفحصُ عينُه الواحدة جسدَ الصبيّ الصغيرِ الذي يرتعدُ بجوارِه من الرعبِ، وتمتدُّ أصابعُه الخشنة لتتحسسَ وجهَ الصغيرِ الذي هربتْ منه الدماءُ ..

ينهضُ " الأعور" – في آليةٍ - تاركاً النارجيلة جانباً، ويقبضُ على كفِّ الصغير الذي ما زالَ يرتعدُ، ويتوجهُ به - وهو يكادُ يجرُّه على الأرضِ جرًا - نحو عُشةٍ صغيرةٍ في آخرِ الحوش، في حين كانتْ تتابعهما عيونُ الأطفالِ المُتقعةِ البائسةِ .

******

بأقدامٍ بطيئةٍ حذرةٍ يتقدم " النص" بجسدِه الضئيلِ القصيرِ عابرًا بابَ مِقهَى دارِ الكتب، وقد ارتدى بِنْطَالا قديماً من " الجينز" المليئ بالثقوبِ، عليه " تيشرت" لا يستطيعُ أعرقُ وأكبرُ مُتتبعي الأثر أن يتعرفوا حقيقة لونِه لكثرةِ القاذوراتِ والأوساخ التي تراكمتْ عليه ..

عيناه الغائرتان تتجولان في أنحاءِ المِقهَى، وهو يشقُّ طريقَه بينَ الزبائنِ في وقتِ الظهيرة، وينتهي به المَطَافُ أمامَ البوفيه الذي يتصدرُ المِقهي، وأخذَ عاملُ البوفيه يتطلعُ إليه في نظراتٍ مُتسائلةٍ يشوبُها الضيقُ، و" النص" أمامه صامتاً لا يفصحُ عمَّا يريدُ ..

صوتُ المعلم "توفيق" الجَهوري صاحبُ المِقهى والجسدِ الضخمِ يصكُّ أذنَه من الخلفِ قائلًا لعاملِ البوفيه :

- أعطه كوباً من الشاي .

يهتفُ " النص" بحروفٍ متعثرة :

- شاي بحليب .

يتناولُ " النص" كوبَ الشاي الساخنِ، وراحَ يشقُّ طريقَه للخارج، بنفس خطواتِه الحذرةِ، ونظراتِه الحائرة التي تجوبُ أرجاءَ المكان، وتتصفحُ وجوهَ الزبائنِ التي تُفسحُ له الطريقَ، وكأنَّها تخشي لمسَه، وقد تلاصقتْ مقاعدُهم، وهم يتابعون عبرَ تلفاز المِقهى ميدانَ التحرير الذي امتلأ عن آخرِه بجموعٍ غفيرةٍ من البشر، راحتْ تحتفلُ بفوزِ أولِ رئيسٍ مدني مُنتخب في تاريخِ مصرَ، وهم يستمعون لكلمتِه التي ألقاها عليهم من فوق منصةٍ عاليةٍ بالميدان ..

في تلك اللحظة يدخلُ المِقهى شابٌ تجاوز الثلاثين بعامين أو ثلاثة كان ذا جسدٍ قويٍ طويل، ووجهٍ أبيضَ مستطيل لا يخلو من وسامةٍ بشعرِه المُجَعَّدِ الذي يميلُ لونُه للاصفرار، وعضلاتِه القوية التي تبرزُ من فتحةِ قميصِه، وعينيه البنيتين العميقتين اللتين يبدو عليهما أنَّه استيقظَ لتوهِ من النوم ..

ظلَّ واقفاً للحظاتٍ وسطَ المِقهى يتابعُ التلفازَ، وهو ينفِّثُ دخانَ سيجارتِه، ثم هتفَ قائلاً بصوتٍ عالٍ متوتر :

- فازَ مُرَشَّحُ الإخوان !

هزَّ المعلمُ "توفيق" رأسَه قائلا بصوتِه الجَهوري، وعيناه على الشاشةِ التي تنقلُ لهم في تلك اللحظة الرئيسَ وهو يفتحُ جاكتَ بذلتِه أمامَ الجموعِ الغفيرةِ بالميدانِ في إشارةٍ أنَّه لا يرتدي قميصاً واقياً :

- نعم يا " فارس" .. فازَ مُرَشَّحُ الإخوان .

ألقى " فارس" بجسدِه فوقَ أحدِ المقاعد في صمتٍ بين الوجوهِ الشَاحبِة، وسيجارتُه تحترقُ بينَ أصابعِه، فاستطردَ المعلمُ "توفيق" قائلا بصوتٍ عالٍ سمعَه الجميعُ : "ليفعلْ اللهُ ما فيه الخيرُ لبلدنا يا " فارس"، ونأملُ أن يكونَ رئيساً لكلِّ المصريين بعدَ فوزِه بالمنصب" .

وصمتَ قليلا، وعيناه على الشاشةِ، ثُمَّ استطردَ قائلا بصوتٍ يشوبُه التوترُ:

- ونأملُ – أيضاً - أن يكونَ الغدُ أفضلَ بإذنِه وحدَه سبحانه وتعالى .

في تلك اللحظةِ كان " النص" يجلسُ متخذاً وضعية القرفصاء، وقد أسندَ ظهرَه لجدارِ المِقهى على مَقرُبَةٍ من البابِ الخارجي، وقبضَ بكلتا يديه على كوبِ الشاي الساخن، وعيناه تتابعان تارةً الشارعَ الواسعَ الذي تقعُ المِقهى على ناصيته، وتارةً أخرى محطةَ الأتوبيسِ المُجَاورةِ للمِقهى، وفجأةً .. تدبُّ الحياةُ في عينيه الحائرتين، وهما تطالعان جسدًا قويًا لامرأةٍ مُكتنزةٍ ذاتَ ملابسٍ قصيرةٍ ضيقةٍ مرَّتْ مِنْ أمامه في طريقِها لمحطةِ الأتوبيس ..

عينا "النص" معلقتان بردفي المرأةِ اللتين تهتزان في قوةٍ كسَنَامي ناقةٍ تسيرُ بالعرض، وشفتاه ترتشفان الشايَ الساخنَ على عَجَلٍ ..

تابعَ " الشامي" نظراتِه للمرأةِ، وقالَ له ضاحكاً، وهويمسحُ عرقَه بفوطةٍ صفراءَ لا تفارقُ يدَه:

- على مِهلكَ يا " نص" .. إنَّها حتماً ستنتظرُ الأتوبيس .

لم يأبه " النص" بكلامِه، ونظرَ للناحية الأخرى، وكأنَّه لم يسمعه، في اللحظةِ التي يدخلُ فيها الأتوبيسُ المحطة، فتتعلق عيناه بالمرأةِ التي تشرعُ في الصعودِ إليه ..

ينهضُ من مكانِه غيرَ آبهٍ بضحكاتِ " الشامي"، وعيناه معلقتان بالأتوبيس الذي شرعَ في مُغادرةِ المحطةِ، فألقى ما تبقى من كوبِه داخلَ جوفِه قبلَ أن يضعَه فوقَ إحدى المناضدِ التابعةِ للمِقهى، ويهرولُ نحوَ الأتوبيس مُتعلقًا ببابِه الخلفي في اللحظةِ الأخيرة ..

للحظاتٍ ظلَّ " النص" مُعلقاً على بابِ الأتوبيس الذي اكتظَّ عن آخرِه بالبشر، وعيناه تتابعان جسدًا فارعاً لامرأةٍ أخرى تسيرُ الهوينى على الأرضِ، وقد شدَّتْ عباءتها السوداءَ حولَ خِصرِها فراحَ جَسَدُها يتموَّجُ أسفلَ العباءةِ في قوةٍ، وشبابٍ، وحيويةٍ تخطفُ ألبابَ الناظرين، وأسالتْ لُعَابَ " النص" الذي ابتلع ريقه، وهو يشقُّ طريقَه بصعوبةٍ بينَ الأجسادِ المتلاصقة داخلَ الأتوبيس، حتي وصلَ للمرأةِ ذات الجسدِ المُكتنز، واستكانَ جسدُه خلفَها ..

لم تمرْ لحظاتٌ حتى استدارتْ إليه المرأةُ، وهوتْ على وجهه بصفعةٍ هائلة، وهي تصرخُ في وجهه، وبعدَها تلقَّى " النص" صفعتين أو ثلاث مِنْ رُكابِ الأتوبيس، ولم يشعرْ إلا وهم يحملون جسدَه، ويرمونه أرضاً خارجَ الأتوبيس معَ الكثير مِنْ السُبابِ واللعناتِ الغاضبةِ التي راحتْ تلاحقَه ..

من فوق أرضيةِ الرصيفِ المُلتهبة، رفعَ " النص "عينيه يتابعُ - في حسرةٍ - الأتوبيسَ الذي انطلقَ مرةً أخرى مواصلا طريقَه، ولكنْ بدونِه هذه المرة، وراحَ يتحسسُ بطرفِ لسانِه شفتيه الجافتين، وهو يلعنُ في أعماقِه المرأةَ وركابَ الأتوبيسِ الذين حرموه لحظاتٍ من المتعةِ كانَ في اشتياقٍ إليها .. رفعَ جسدَه، وهو يمسحُ بكفِه عرقاً غزيرًا تصبَّبّ على وجهِه، في اللحظةِ التي توقفتْ خلفَه سيارةٌ فاخرة، راحَ قائدُها - صاحبُ اللحيةِ الكثَّةِ والجسد الضخمِ - يتطلعُ إليه وهو يهزُّ رأسَه في سعادةٍ، وعلى شفتيه ابتسامة .. ابتسامة ساخرة !

******

عرفة الضبع ..

من أشهرِ الشخصياتِ بالحي ..

يعرفُه الصغيرُ قبلَ الكبير ..

أثرٌ من آثارِ الحي، لا يقلُّ شهرةً عن مبنى دارِ الكتبِ أو ميدانِ بابِ الخلقِ العريق ..

حدوتةٌ تتناقلُ حكايتَها أجيالٌ وراءَ أجيال ..

عرفة الضبع ..

الأخُ غير الشقيقِ لوالد " فارس" ..

عرفة الضبع صاحبُ البشرةِ السمراء، والجسدِ الطويلِ الذي أحناه الدهرُ، وأنهكه في حياةٍ طويلةٍ مليئةٍ بالبلطجةِ والإجرام، والذي كان لا يتورعُ عن فعلِ أيِّ شيءٍ أيامَ شبابِه وفتوته ..

حتى كان ذلك اليومُ الذي لا يتذكره إلا القليلُ من أهل الحي حينَ قامتْ تلك المشاجرةُ الكبيرة بأحد مخازنِ الأخشابِ بالحي ..

وفي المعركةِ كان "عرفة" يصولُ ويجول، وقد قبضَ بيمناه ويسراه على سلاحين أبيضين، وراحتْ الدماءُ تتناثرُ من حوله ..

وفجأةً ..

شبَّتْ النارُ في مخزنِ الأخشاب ..

نارٌ هائلةٌ أتتْ على كلِّ ما فيه ومَنْ فيه ..

والغريب أن الوحيدَ الذي خرجَ منها كان عرفة ..

ولكنْ بعدَ أنْ فقدَ بصرَه ..

نعم .. فَقَدَ أعزَّ ما يملكُ لتكونَ له آيةً من الخالقِ عزَّ وجل في حياتِه التي قضاها طولًا وعرضاً..

ولكن .. هل مِنْ مُتعظ ؟!

وعلى الرغمِ من مرورِ السنواتِ والسنوات على ذلك العهدِ الغابر إلا أنَّ الجميعَ ما زالوا يرهبونه ويخشونه، وصورُ تاريخِه القديمِ التي رآها بعضُهم أو سمعوا بها تتراقصُ أمامَ أعينِهم كلما وقعتْ عليه ..

وإلى جانبِ تلك الرهبةِ كانوا يحملون له بداخلهم - أيضا - بعضاً من الحُبِّ أو لو شئنا الدقةَ بعضاً من الشفقة ..

وكان لفارس ابن أخيه فضلٌ كبيرٌ في ذلك الجزء اليسير من الحُبِّ الذي يحملونه له حيثُ أخذَ على عاتقِه عهدًا بأن يصلحَ ما أفسدَه عمُه " عرفه " ..

بأحدِ أركانِ المِقهى كان "عرفة " في مكانِه المُفَضَّلِ يُوزعُ لعناتِه على العددِ القليل من الحضورِ بالمِقهى في ذلك الوقتِ قبيلَ حُلولِ المساء، وعصاه الغليظة تدقُّ بلاطَ المِقهى دقاتٍ رتيبةٍ .. مدَّ يدَه وتناولَ فنجانَ القهوة، وأخذَ منها رشفةً هتفَ بعدَها بصوتِه الأجشِّ، وهو يُلقي بالفنجان فوقَ المائدةِ أمامَه في عنفٍ، فتناثرَ البُنُّ عليها، ومن حوله العيونُ والآذانُ مُتلهفةٌ مُترقبةٌ لما سيقولُه وما سيفعلُه :

- قهوتُكَ بدون وش يا صبي العالمة .

التقطتْ أذنُه بعضاً من الضحكاتِ المكتومةِ من حوله، و" زيزو" يُقبلُ عليه مسرعًا، وبيده فوطة راحَ يمسحُ بها البنَّ الذي تناثرَ على المنضدةِ وأرضيةِ المِقهى، وهو يقولُ كاتمًا ضحكتَه :

- حَقُكَ عليَّ يا معلم " عرفة " .

فجأةً هوتْ قبضةُ المعلم "عرفة"، وقبضتْ على ملابسِ " زيزو"، وقالَ بصوتِه الأجشّ :

- كلُّ مرةٍ تقولُ ذلك يا صبي العالمة .. متى أستمتعُ بقهوتي في ذلك المِقهى اللعين ؟

هتفَ " زيزو " ضاحكاً، وهو يحاولُ تخليصَ نفسِه :

- أرجو السماحَ يا معلم "عرفة" هذه المرة ، وسآتيكَ بفنجانٍ آخرَ .

هوتْ عصاه الغليظةُ على مؤخرةِ "زيزو"، ومعها ضجَّ الجميعُ بالضحكِ المكتومِ، وهو يقولُ :

- لا يا صبي العالمة .. لا أريدُ شيئاً من وجهِكَ العَكرِ .

ثم هوى على مؤخرتِه بضربةٍ أخرى، أسرعَ بعدها " زيزو" مبتعدًا عن مرمى عصاه، وسطَ ضحكاتِ الحضورِ المكتومةِ، في حين مدَّ "عرفة" يدَه داخلَ جلبابِه، وتناولَ زجاجةً صغيرة من الخمرِ الرخيصِ، ألقى مُحتواها في جوفِه جرعةً واحدةً تجرَّعَ بعدها، وهو يمسحُ فمَه بكمِه، ثم أطاحَ بالزجاجةِ الفارغةِ أرضاً، وهتفَ بعدها قائلا :

- الشيشة يا صبي العالمة .

أسرعَ إليه " زيزو" ، وناوله مبسم الشيشة، وهو يحافظ على المسافةِ التي بينهما؛ حتى لا تناله ضربةٌ أخرى، في حين راحَ "عرفة" يُنفِّثُ دخانَه في قوة، وعيناه العميقتان تطوفان بوجوهِ روادِ المِقهى في نظرةٍ طويلةٍ مُتأنيةٍ وكأنَّه يراهم، ثم أراح رأسَه إلى الخلفِ على الحائطِ، وقد حبسَ أنفاسَه وكأنَّه يُركزُ في أمرٍ ما، وفجأةً هتفَ قائلا :

- أتسمَّعُ صوتَ أقدامِ "صنهاوي" ، وهي تتحسسُ بلاطَ المِقهى .

فورَ عبارتِه ضجَّ الحضورُ بالضحكِ الذي لم يستطيعوا كتمانَه، وهم يراقبون "صنهاوي"، وهو يمشي على أطرافِ أصابعِه فورَ رؤيتِه لعرفة ..

هتفَ "صنهاوي" قائلا بوجهٍ شاحبٍ، وهو ينتزعُ حروفَه من بين شفتيه في صعوبةٍ :

- تحت أمرِكَ يا معلم "عرفة" .

خرجَ صوتُ "عرفة" الأجشّ من بين سُحبِ الدخانِ، وهو يقول :

- وماذا أريدُ منكَ يا ملعون ؟ ألم يخبروكَ أنّي سألتُ عليكَ ؟ أين حبَّاتُكَ اللعينة ؟

هزَّ "صنهاوي" رأسَه، وقد ازدادَ امتقاعُ وجهِهِ، وتناولَ شريطًا من الحبوبِ من داخلِ جوربِه، وقبلَ أن يمدَّ أصابعه؛ لينتزع إحدى حباته كان "عرفة" قد هجمَ عليه، وانتزعَ منه الشريطَ كلَّه في حينِ كانت عصاه في يدِه الأخرى تهوي على جسدِ "صنهاوي" الذي أسرعَ مُغادرًا المِقهى؛ هربًا من عصا "عرفة" وسط ضحكاتِ الحُضور ..

أما " عرفة " فقد عادَ لمقعدِه مرةً أخرى، وانتزعَ حبتين ألقاهما داخلَ جوفِه بلا ماء، وظلَّ على حالِه تلك للحظاتٍ، ثم نهضَ من مكانِه تسبقُه عصاهُ بدقاتِها الرتيبةِ على بلاطِ المِقهى، والجميعُ يفسحون له الطريقَ، وقبلَ أن يخرجَ التقطتْ أذناه صوتَ "زيزو"، وهو يقولُ في خفوتٍ، وقد حافظَ على المسافةِ التي بينه وبينَ المعلم "عرفة" :

- الحساب يا معلم "عرفة" .

رفعَ "عرفة" عصاه، وهوى بها تجاهه في الهواء، وهو يقولُ بصوتِه الأجشّ:

- أخبرْ معلمكَ يا صبي العالمة أنَّ "عرفة" لا يدفع .

وضجَّ "زيزو" بالضحك، وشاركَه الجميعُ في همسٍ، فقد كانوا يعلمون الردَّ مُسبقاً، في حين كان "عرفة" أمامَ بابِ المِقهى يتتبعُ الرائحةَ التي نقلتها إليه أنفُه فورَ خروجِه، فابتسم

"عمرو حبيب" صاحبُ عربةِ الحلويات أمامَ المِقهى، وهو يأخذه من يده قائلًا :

- أهلًا عم "عرفة " .. أعددتُ لكَ طبقَ البسبوسة بالقشطةِ الذي تحبُّه .

تناولَ منه عرفه الطبقَ، وألقى بقطعة بسبوسة في فمِه، وهتفَ بعدَها :

- كريمٌ وابنُ كريم يا شيخ "عمرو" .

استدارَ "عرفة " ليواصلَ طريقَه مبتعدًا فهتفَ به "عمرو" :

- إلى أين يا عم "عرفة" ؟

- إلى درب المهابيل .

- حسناً .. انتظرني سآتي معكَ .

أخذه "عمرو" من يدِه بعدَ أنْ هتفَ بزيزو :

- انتبه للعربةِ يا "زيزو" .. سأذهبُ لصلاةِ العِشاء .

وانطلقا معاً في شارعِ محمد علي، وطوال الطريقِ و"عمرو" لم يكفْ عن الضحكِ بسبب قفشاتِ "عرفة"، أو نكاتِه التي يَصبُّها على أصحابِ الحظِ العاثرِ الذين يقابلونه في الطريق .. تركا الشارعَ الرئيسي، وانحرفا إلى دربِ المهابيل، وفي تلك اللحظة ارتفعَ صوتُ المؤذنِ ليعلنَ موعدَ صلاةِ العِشاء في

المسجدِ المُجاورِ، فاتجه "عمرو" يميناً حيثُ المسجدِ، في حين واصلَ "عرفة " طريقَه، وانحرفَ يسارًا حيثُ البوظة ..

ذلك المكانُ الشهيرُ الذي يعجُّ بالبسطاءِ من السَكارى - ممَنْ قستْ عليهم الحياةُ فراحوا يبحثون عمَّا يُنسيهم قسوتَها بثمنٍ زهيد - والذي يقضي فيه سهرتَه كلَّ ليلةٍ حتى مطلعَ الفجرِ .. ما أنْ لمحَه روادُ المكانِ حتى أفسحوا له الطريقَ إما بإرادتِهم وإما مجبرين أمامَ عصاه التي تتعاملُ مع كلِّ مَنْ يتلكأ منهم..

وحين وصلَ لمكانِه بأحدِ الأركانِ ألقى بجسدِه فوقَ شلتةٍ تتوَّسدُ الأرضَ، ووضعَ عصاه وطبقَ البسبوسةِ بجانبِه، وسَرعانَ ما أقبلوا عليه بعلبةٍ كبيرةٍ رفعَها إلى جوفِه، وراحَ يعبُّ منها عبًّا فأغرقَ لحيتَه القصيرة وملابسَه في مشهدٍ يبعثُ على الاشمئزازِ، وبينَ كلِّ جرعةٍ وأخرى كان يلتقطُ أنفاسَه، وهو يتجشأ، في حين كانت عيناه العميقتان تطوفان بروادِ المكانِ الذين يرمقونه في رهبةٍ ونفور .

******

حولَ مسجدِ الحُسين افترشَ مجموعةٌ من المتسولين الأرضَ، وقد اضطجعوا بظهورهم على حائطِ المسجدِ بملابسهم الرثَّةِ المُمزقة، وشُعُورِهم الطويلة التي تأوي الكثيرَ والكثيرَ من الحشراتِ .. وأصبحَ من الصعبِ على الرائي أنْ يُميِّزَ بين ألوانِهم وبينَ الرصيفِ الأسودِ الذي يفترشونه ..

تململَ أحدُهم في موضعِه، وهو يرفعُ رأسَه مُتطلعاً لأحدِ المُحسنين الذي هَبَطَ من سيارتِه، وبيده حقيبةٌ كبيرةٌ راحَ يمدُّ يدَه داخلها، ويناولُ كلَّ منهم

رغيفًا محشوًا بالأرز واللحم .. تناولَ الرغيفَ بيديه القذرتين في لهفةٍ، وقد برقتْ عيناه وهو يتطلعُ لقطع اللحمِ، وراحَ يقضمُه في لهفةٍ ونَهَمٍ ..

في تلك اللحظةِ اقتربَ منه متسولٌ آخر، وألقي جسدَه أرضاً بجوارِه، وهو يلقي ما تبقى من رغيفه داخلَ جوفِه، ثم راحَ يمسحُ جوفَه بكم جلبابِه المُمزق، وقال في سعادةٍ وهو يُمرِّرُ لسانَه على شفتيه الجافتين مُتذكرًا طعمَ اللحمِ الذي أكله منذُ لحظات :

- منذُ شهورٍ لم أرَ اللحمَ يا "دبانة" حتى كدتُ أنسى طعمَه .

ابتلعَ "دبانة" ما تبقى من رغيفِه دفعةً واحدةً، وهتفَ وهو يزيحُ إحدى الحشراتِ الزاحفةِ من فوق جلبابِه، ويُلقي بها بعيدًا :

- ليتها كانت علي اللحم فقط يا " كرشة " ! إن الأيامَ والأسابيع تمرُّ علينا دونَ أن نجدَ ما نأكله .

ردَّ " كرشة " قائلا في حسرةٍ :

- صدقت يا "دبانة" .. لقد صرنا ننافسُ الكلابَ طعامَها .

تطلعَ "دبانة" إلى الرجلِ الذي وزَّع عليهم اللحمَ، وهو يركبُ سيارته مغادرًا المكانَ، وقد فرغتْ حقيبتُه قائلًا في حسرة :

- إنني كلما أتذكرُ أننا لا نجدُ طعامنا إلا في الليالي والموالدِ أشعرُ بالألمِ والحسرة .

هتفَ " كرشة " ساخرًا :

- ماذا ؟ ! الألمُ والحسرة ! غدًا لن تشعرَ إلا بالجوع .. والجوع فقط .

وقبل أن يردَّ عليه "دبانة" تتوقفتْ أمامَهم إحدى سياراتِ الشرطةِ ذات الصندوقِ الخلفي، ويهبطُ منها ضابطُ شرطة بصحبتِه عددٌ من العساكر

وأمناءِ الشرطة الذين راحوا ينتشرون في دائرةٍ واسعة؛ ليحيطوا بكافة المتسولين المنتشرين حولَ مسجدِ الحُسين ..

سادَ الهرجُ والمرجُ للحظاتٍ في البراحِ المحيطِ بالمسجد، وكلٌّ من المتسولين يحاولُ الفرارَ بنفسه - بلا فائدةٍ - في أحدِ الأزقةِ المُتاخمةِ للمسجدِ من قبضةِ رجالِ الشرطةِ الذين أطبقوا حصارَهم ..

يهتفُ " كرشة " برفيقه، ورجالُ الشرطة يدفعونهما داخلَ صندوقِ السيارةِ الخلفي قائلًا بسخرية :

- هل كنتَ تشعرُ بالألمِ والحسرةِ يا "دبانة" ؟! .. لا تنسَ السجنَ أيضاً ! ها .. ها ..

وانطلقتْ عربةُ الشرطة لتشقَّ طريقَها وسطَ الميدانِ المُزدحمِ، وقد استعادتْ المنطقةُ بعضًا من جمالِها الأثري الذي يحملُ عبقَ التاريخ .

******

بخطواتٍ وئيدةٍ متهملةٍ خَطا "سمير مصباح" بقدميه داخلَ مِقهى دارِ الكتب، وتحتَ إبطِه الجريدةُ الصباحية التي اعتادَ قراءتَها منذُ ما يقربُ من أربعين عامًا، راحَ يلتقط أنفاسَه وكأنَّه بذلَ لتوِّهِ مجهودًا خارقا، وهو يتفحصُ وجوهَ روادِ المِقهى - في ذلك الوقت من المَساء - من خلف نظارتِه القديمة ..

ما أنْ رآه " فارس" حتى نهضَ من مكانِه، واتجه نحوَه آخذًا بيدِه قائلًا :

- تفضَّل يا أستاذ "سمير" .. تعال .

ابتسمَ الرجلُ في صفاءٍ مُربتًا على كتفِ " فارس"، واتجه معه قائلا :

- واللهِ أنتَ ابن حلال يا " فارس"؛ لقد كنتُ أفكرُ فيكَ منذُ لحظات .

سحبَ " فارس" مقعدًا للأستاذ "سمير"، واتخذَ مقعدَه ليواصلَ لعبَ الطاولةِ مِنْ جديدٍ مع المعلم "توفيق" الذي هتفَ قائلا ، وهو يُرحِّبُ بالرجلِ :

- أهلا يا أستاذ "سمير" .. شاي يا "زيزو" للأستاذ .

رمى " فارس" الزهرَ، وهو يهتفُ قائلا :

- خيرًا يا أستاذ "سمير" .

ابتسمَ "سمير مصباح"، والتقط أنفاسَه قائلا لفارس، وهو يفتحُ الجريدةَ التي معه، ويقرأ خبرًا فيها :

- " أسرةٌ في الشيخ زايد تطلبُ سائقا خاصًا بمرتبٍ مجزٍ،ويُشترط حُسنُ المظهرِ.. ما رأيُكَ يا " فارس" ؟

رمى " فارس" الزهرَ قائلا، وهو يضحكُ :

- واللهِ يا أستاذ "سمير" أشعرُ أنكَ تشتري الجريدة يوميًا من أجلي لتبحثَ لي عن وظيفةٍ مناسبة .

ربَّتَ "سمير" على كتفه قائلا :

- " كمال الضبع " والدك رحمه اللهُ كانَ خيرُه على الجميع يا " فارس " .

أغلقَ المعلم "توفيق" الطاولة قائلا :

- هذا صحيح يا " فارس".. والدك لم يتأخرْ عن مساعدةِ أحدٍ في يومٍ من الأيام .

تراجعَ " فارس" بظهره إلى الوراءِ في مقعدِه قائلا :

- ولكنْ أنا كما تعرفان لا أحبُّ العملَ عندَ أحدٍ، وطوال عمري أحبُّ أن أكونَ حُرًا، وأكره تحكماتِ صاحبِ العمل .

هتفَ المعلمُ "توفيق" قائلا :

- ولكن الضروراتِ تُبيحُ المحظوراتِ يا " فارس" .

والتقط الأستاذُ "سمير" طرفَ الحوارِ قائلا :

- ثم .. ثم منذُ متى وأنتَ بلا عمل ؟

مسحةٌ من الحزنِ اعترتْ وجهَ " فارس"، ففارقتُه ضحكتُه، وراحتْ أصابعُه تتخللُ شعرَه المُجَعَّدَ، وهو يقولُ في هدوء :

- تجاوزت العامين الآن وأنا بلا عمل، وما زلتُ أجري وراءَ شركةِ التأمينِ؛ للحصولِ على قيمة تأمينِ سيارتي التي احترقتْ في أحداثِ يناير، ولكنْ من الواضح أنني لن أحصلَ على شيء و ..

قطعَ عبارتَه حينَ غرقَ المِقهى فجأةً في الظلام، وقد انقطعتْ الكهرباءُ عن الحي بأكملِه فارتفعَ صوتُ "عرفة الضبع" قائلا :

- الآنَ تساوتْ الرؤوسُ يا أولاد العالمة .

انطلقتْ ضحكاتُ الجميعِ عقبَ عبارتِه، وهتفَ المعلمُ "توفيق" قائلا، وجسدُه الضخمُ يهتزُ من الضحك :

- الشمعُ يا "زيزو" .. وانتبه جيدًا حتى لا يهرب منكَ الزبائن .

وعلتْ ضحكاتُ الزبائنِ تُصاحبها النكاتُ من هنا وهناك .

******

في أحيانٍ كثيرةٍ يسيطرُ علينا شعورٌ مؤلمٌ بأنَّ تلك الدنيا قاسيةٌ لا ترحمُ أحداً، وخاصةً هؤلاءِ الفقراءَ والمهمشين الذين لا يجدون مَنْ يَرْفُقُ بهم أو يحنو عليهم، وقد ارتضوا منها بأقلِّ القليل ..

غادرَ"دبانة" و" كرشة " قسمَ الموسكي في سرعةٍ مع أول نسماتِ الصباح، وكأنَّ كلَّ شياطين جهنمَ تُطاردهما، والتفتَ " كرشة " إلي العسكري الذي يقفُ على بوابةِ القِسمِ الخارجية في حذرٍ، وهتفَ في رفيقه بصوتٍ هامسٍ ملوحاً بذراعِه في حنقٍ :

- لا أدري لماذا يعاملوننا بهذه الطريقة ؟ إننا فقط نتسولُ ولا نجبرُ أحدًا على أن يعطينا شيئا، هل يريدون لنا أن نموتَ من الجوع ؟ !

تحسَّس "دبانة" قفاه، وقال متأوّها، وهو يواصلُ عدوَه في شارع محمد علي :

- الغريبُ أننا تركنا النشلَ واحترفنا التسولَ لقلة مخاطره .. والآنَ لا يمرُّ أسبوعُ علينا إلا ونقضي منه يومين أو ثلاثة في الحجز .

رمقه " كرشة " في صمتٍ حانقٍ ، ولم يردْ فاستطردَ "دبانة" قائلا :

- وليتنا نجدُ راحتنا بالحجز؛ إننا نخدمُ هناك مَنْ هو أكثر منا قوةً، وإذا رفضنا بطشَ بنا، وأقامَ علينا حفلته .

أجبرَ " كرشة " لسانَه على النطقِ فخرجَ صوتُه مُشبَّعًا بالألمِ والمرارة، وهو يقولُ :

- الغريبُ أنَّ كلَّ ذلك يحدثُ تحتَ سمعِ وبصرِ القائمين على القسم، وكأنَّ لهم مصلحةً مِنْ وراء ذلك .

هتفَ "دبانة" قائلا بنفسِ المرارة :

- إذا لا راحة لنا داخلَ الحجزِ أو خارجِه و ..

قطع " دبانة " عبارتَه، وقد تعلقتْ عيناه في تلك اللحظة بأحدِ باعةِ الفاكهةِ بسوق الخضارِ في العتبة، وهو يُفرغُ أقفاصَ البرتقال فوقَ عربتِه الكارو؛ تمهيدًا لبدءِ يومِه وبيع فاكهته، في حين كانت شفتاه الغليظتان القابعتان أسفلَ شاربٍ كثٍّ تُرددان أغنيةً شعبيةً شهيرة، واقتربَ منه "دبانة" ومن خلفه " كرشة " حتى كادا يلتصقان به، وعيناهما لا تفارقان ثمارَ البرتقال الطازجة، تطلعَ الرجلُ إليهما وعقدَ حاجبيه في ضيقٍ، وهو يتناولُ ثمرتين معطوبتين، ويقذفُ لكلٍّ منهما بواحدة، مبتعدًا بجسده عنهما، وكأنَّهما وباءٌ يخشى الاقترابَ منه ..

تعاملتْ أسنانُ كلٍّ منهما مع البرتقالة، وراحا يقضمانها في نهمٍ دونَ حتى أن يفكرا في إزالة القشرِ أو التخلصِ من الجزءِ الذي أصابه العطبُ، وقد ألقيا بجسديهما فوقَ حجرين مُتجاورين بجانبِ الرصيف، وعلى مَقرُبَةٍ من مِقهى التِّجَارة الشهير ..

مسحَ "دبانة" فمَه بكمه، وقالَ في حنقٍ، وهو يتطلعُ لسيدةٍ يبدو عليها الثراءُ، اعترى الفزعُ نظراتِها حينَ وجدتْ نفسها فجأةً على مَقرُبَةٍ منهما، فراحتْ تبتعدُ عنهما في سرعة :

- وهؤلاء المجانين الذين يخشون الاقترابَ منا في احتقارٍ، وكأننا وباءٌ أو جُرذانٌ لا حقَّ لها في الحياة .

ردَّ " كرشة " قائلا في مرارةٍ ساخرة، وهو يزيحُ بيده إحدى الحشراتِ الزاحفةِ من فوق جلبابِه الرثِّ :

- وماذا يهمُنا من هؤلاءِ ؟ وهل لنا أهلٌ أو ولدٌ حتى نشعرَ بالخزي ؟!

كشفَ "دبانة" عن أسنانِه السوداءِ القذرةِ في ابتسامةٍ مريرةٍ قائلا :

- أنتَ على حقٍّ يا " كرشة " .. إنني أشعرُ وكأنني جئتُ إلي الدنيا كنبتةٍ شيطانيةٍ ألقتْ الرياحُ ببذورِها في أرضٍ بوار، وكلما حاولتُ أن أتذكرَ أنَّه كان لي في يومٍ من الأيامِ أبٌ أو أمٌ تخونني الذاكرةُ .

مدَّدَ " كرشة " قدميه القذرتين أمامَه لعلَّ شمسَ الصباحِ أنْ تُخففَ من الرائحةِ النتنة المُنبعثةِ منهما، وقال :

- أما أنا فأتذكرُ ذلك جيدا .. أتذكرُ اللحظة التي هربتُ فيها من الملجأ بعدَ أن تحرشتُ بمديرة الدارِ العجوز و ..

قطعَ " كرشة " عبارتَه، حين رأى سيارةً سوداءَ فارهة تتوقفُ أمامهما، ومن خلفِ عجلةِ قيادتِها انبعثَ صوتٌ يقولُ لهما بلهجةٍ آمرة :

- اركبا .

تطلعا إلى السيارة في ذهول، ولم يتحركْ أحدُهما قيدَ أنمُلةٍ، فما كانَ من صاحبِ العربةِ إلا أن فتحَ بابَ سيارتِه، وترجَّلَ منها ليقفَ أمامَهما بجسدِه القوي المُمتلئ، ووجهِه المُكتنز المُستدير، ولحيته الطويلِة التي تكادُ تصلُ لصدرِ جلبابِه الأبيضِ القصير ..

رمقهما صاحبُ اللحيةِ للحظاتٍ بنظراتِه النافذة التي تغلغلتْ في أعماقهما، وهتفَ في هدوء :

- لماذا ترفضُ ركوبَ السيارة يا " كرشة " .. وأنتَ يا "دبانة" ؟

راحَ الاثنان يُحدقان في ملامحِ ذي اللحيةِ التي بدتْ مألوفةً لهما، كلٌّ منهما يفركُ عينيه دونَ أن يتفوها بحرفٍ، فاقتربَ منهما صاحبَ اللحية أكثرَ، وقال وقد تراقصتْ على شفتيه شبحَ ابتسامة :

- ألم تتعرفا عليَّ بعد ؟

جحظتْ عينا " كرشة " في ذهولٍ، وخرجتْ الحروفُ من بين شفتيه متعثرةً، وهو يقولُ :

- مستحيل .. هل أنتَ ..

قاطعه "دبانة" قائلا، وهو يبتلعُ ريقَه بصعوبة :

- نعم .. مستحيل لا يمكنُ أن تكونَ الـ...

اتسعتْ ابتسامةُ صاحبِ اللحية، وهو يقاطعهما قائلا :

- نعم يا رفاقُ .. إنَّه أنا .. أنا " الجن " .

واتسعتْ عينا "دبانة" و" كرشة " في ذهولٍ حتى كادتا تلتصقان بمقدمةِ رأسيهما !

******

٢- غَرَام السَعدي ..

بقامتِه الفارهةِ وجسدِه الممشوقِ القوي عبرَ فارس - بخطواتٍ حذرة - بوابةَ الفيلا، وراحَ يتقدمُ في بطءٍ، وعيناه تتفحصان الحديقة الكبيرةَ المُحيطة بالفيلا ذات المبنى الجميلِ الذي يتكونُ من طابقين، ابتلعَ ريقَه في محاولةٍ منه لوأدِ ذلك التوترَ الذي يعتريه منذُ الصباح حين قررَ أن يذهبَ لعنوان الإعلانِ الذي أخبره به "سمير مصباح"، وفي الحقيقةِ لم يكنْ يدري سببًا لهذا التوتر غيرَ أنَّه شيءٌ كامنٌ في نفسِه، وهو أنَّه لا يحبُّ العملَ عندَ الغير، ولهذا اشترى سيارتَه عقبَ عودتِه من الخليج؛ ليعملَ عليها ويكونَ حرَّ نفسِه بعد أن فقدَ الأملَ في العمل بشهادته التي حصلَ عليها، ولا فائدةَ لها الآنَ غير أنَّها تُزيّنُ ردهة شقتِه المتواضعة التي ورثها عن أبيه الراحل ..

مرةً أخرى ابتلعَ ريقَه، وهو يضغطُ زِرَ الجرس ليُفتح بابُ الفيلا، وتظهرُ على عتبته خادمةٌ من الواضح من ملامحها وعينيها الضيقتين أنَّها هندية أو صينية ..

للحظاتٍ ظلَّ يتطلعُ إليها ولم يدرِ بأي لغةٍ يُخاطبها، ولكنَّها لم تمنحه الفرصةَ، ففتحتْ له البابَ، وعيناها على ملفٍ بيده يضمُ أوراقَه الخاصة، وهى تُهمهمُ بجملةٍ قصيرةٍ لم يفهمْ منها شيئا ..

تبعها لداخل الفيلا بنفسِ خُطواته الحَذرة، وقد تضاعفَ توترُه مراتٍ ومرات، وعيناه تتفحصان الفيلا بأثاثِها الذي ينمُّ كلُّ شيءٍ فيه عن الذوقِ والجمالِ والثراء ..

قادته الخادمةُ لقاعةِ استقبالٍ كبيرة، وأشارتْ له بالجلوسِ، ثم تركته وشفتاها ترددان نفسَ الجملةِ القصيرة التي لم يفهمْ منها شيئاً، مرَّرَ" فارس" أصابعَه فوقَ شعرِه المُجَعَّدِ الطويلِ الذي انتصبتْ شُعيراتُه الطويلة في تنافرٍ وتمردٍ وكأنَّه يشاركُه توترَه، وانطلقتْ من حلقِه تنهيدةٌ حارةٌ وأعماقُه تهتف :

- لا داعي لكل هذا التوترِ، إنْ لم يعجبكَ العملَ يمكنُكَ أنْ تُغادرَ المكانَ بلا عودةٍ .

وعلى الرغمِ من محاولاتِه المتعددةِ لطمأنةِ نفسِه إلا أنَّ عينيه راحتا تدوران في المكانِ بتوترٍ مضاعف زادَ من إحساسِه بالضيقِ، حتى توقفتا على شهادةٍ تُزيّنُ حائطَ الردهةِ، وتفيدُ بحصولِ الطالبِ " كريم شهدي" على المركزِ الأولِ في بطولةِ الجمهوريةِ للسباحةِ، هزَّ " فارس" رأسَه في إعجابٍ، واتجه صوبَ أحدِ المقاعدِ، وألقى بجسدِه فوقَه، وفجأةً ..وقعت عيناه على صورةٍ في الجانبِ الآخرِ من الردهةِ، واتسعتْ عيناه في انبهارٍ، وهو ينهضُ من مكانِه - دونَ أنْ يشعرَ- ليجدَ نفسَه أمامَها ..

كانت صورةً - عفوًا أقصدُ تحفة فنية - لامرأةٍ على مشارفِ الثلاثين من عمرِها، وهي بلباسِ ملعبِ التنس ..

واتسعتْ عيناه أكثرَ وأكثرَ، وهما تتفحصان الصورة ..

راحتْ أعماقُه تتساءلُ في ذهولٍ :

- أهذه صورةٌ لامرأةٍ حقيقية أم لوحةٌ خياليةٌ لفنانٍ مُبدعٍ فاقَ بإبداعه كلَّ ضروبِ الخيال ؟!

نعم نعم .. حتمًا إنَّها لوحةٌ خيالية ..

فهذا الجسدُ المتناسقُ الذي اتخذَ وضعَ انحناءةٍ بسيطةٍ مُمسكاً بمضربِ التنس في تحفزٍ كجوادٍ جامحٍ، وهاتان العينان الواسعتان، والوجهُ الأبيضُ المستديرُ الذي يتوسطه أنفٌ دقيقٌ وشفتان مكتنزتان كحبتين ناضجتين من الكريز ..

هذه الصورةُ لو ظهرتْ مِنْ قبلُ لما نالَ صاحبُ الموناليزا كلَّ هذه الشهرة و..

- أهلًا ..

فاق مِنْ شرودِه على إثرِ الصوتِ الذي انبعثَ من خلفِه فاستدارَ في سرعةٍ و ..

ربَّاه !!

إنَّها حقيقة ..

لم تكنْ خيالًا أبدًا ..

نعم .. كانت صاحبةُ الصورةِ أمامَه في ثوبٍ وردي جميل من قطعةٍ واحدة، وقد انسدلَ فوقَ جسدِها الممشوق مستجيباً لمُنحنياتِ جسدِها المُثيرِ في رقةٍ ونعومة، وشعرُها الأسودُ الناعمُ قد انهمرَ شلالُه فوقَ كتفيها مما زادَ من أنوثتِها الطاغية ..

كررتْ كلمتها مرةً أخرى، وهى تضعُ نظارتَها الشمسية فوقَ مُقدمةِ رأسِها :

- أهلا .

فاقَ " فارس" من شرودِه، وهتفَ بحروفٍ مُتعثرةٍ، وهو يمسحُ عرقاً وهميًا تصبَّبتْ به جبهتُه :

- أنا فارس .. فارس كمال، وقد حضرتُ من أجلِ الإعلان الذي ..

قطبتْ حاجبيها في تساؤلٍ زادَها جمالًا، وهي تقاطعه قائلةً :

- إعلان ؟! أية إعلان ؟

تضاعفَ توترُه، وراح يهتف :

- لقد أعلنتم عن حاجتِكم إلى سائقٍ خاص و ..

حملتْ شفتاها الجميلتان ابتسامةً رقيقةً أعادتْ له الحياةَ، وهي تهتفُ بذهولٍ :

- سائق ! أنتَ سائق ؟!

هتفَ في راحةٍ، وهو يُخرج أوراقَه قائلًا :

- نعم .. وها هي أوراقي و ..

انطلقتْ من شفتيها ضحكةٌ ناعمة - كشفتْ عن حبَّاتٍ من اللؤلؤ - ذابَ لها وجدانُه، وهي تقاطعُه قائلة :

- انتظرْ .. سيأتي " كريم" حالا، ويقابلكَ .

لم تكدْ تتمُّ جملتَها حتى سمعَ من خلفِه خطواتٍ على السلم الداخلي للفيلا لشابٍ أبيضِ البشرةِ مُمتلئ الجسدِ إلى حدٍّ ما، كان في حُلتهِ الكاملة، وفي نفس عمر " فارس" تقريبًا أو يكبره قليلا، ألقى الشابُ نظرةً جامدةً على المرأةِ دونَ أن يُعيرَها اهتمامًا، ثم مدَّ يدَه لفارس مصافحًا، وهو يرسمُ على شفتيه ابتسامةً دبلوماسية قائلا :

- " كريم شهدى " .. رجل أعمال وصاحبُ الإعلانِ .

- " فارس كمال " .. قرأتُ الإعلانَ و ..

قاطعه " كريم شهدي "، وهو يتناولُ الأوراقَ قائلًا في سرعة :

- أين عملتَ من قبل ؟

- لم أعملْ كسائقٍ خاص من قبل .. كانت لدىَّ سيارتي الخاصة و ..

قاطعه " كريم" مرة أخرى قائلًا بدهشة، وهو يتفحَّصُ الأوراقَ :

- بكالريوس سياسة واقتصاد !

ابتسمَ " فارس" قائلا في هدوءٍ، ولم يخفَ عليه الذهولُ الذي اعترى عينىَّ المرأةِ وملامحها مع الجملةِ الأخيرة :

- نعم .. لم أكنْ أعلمُ حينَ التحقتُ بتلك الكليةِ أنَّ وظائفَها صعبةٌ بل مستحيلة و..

للمرة الثالثة يقاطعُه " كريم شهدي " قائلا :

- نعم .. نعم أتفهمْ ذلك .

ثم التفتَ لرئيسِ الأمنِ الذي دخلَ في تلك اللحظةِ، وناوله أوراقَ " فارس" قائلا :

- أرسلْ هذه الأوراقَ لجهازِ الأمنِ الخاص بالشركة؛ لفحصها والتأكُّدِ منها.

استدارَ رجلُ الأمنِ مُغادرًا المكان؛ لتنفيذِ الأمرِ، في حين التفتَ كريم إلى فارس قائلا :

- لا تقلقْ إنَّه إجراءٌ روتيني فقط .

همهمَ " فارس" بعبارةٍ غير مفهومة، في حين هتفَ " كريم شهدي" قائلًا، وهو ينظرُ لساعتِه :

- مبدئيًا أوافقُ على استلامِكَ العمل، وراتبُكَ سيتمُّ تحديدُه بعد أن تصلَ بي إلى الشركة .

وصمتَ للحظةٍ استطردَ بعدَها، وهو ينظرُ في ساعته :

- فلدىَّ موعدٌ هامُ بالشركةِ بعدَ عشر دقائقٍ من الآن .

قالَ ذلك وأعطاه ظهرَه مُتجهًا نحوَ بابِ الفيلا في خطواتٍ واسعةٍ واثقة، تطلعَ إليه

" فارس" للحظةٍ في ذهولٍ، تبعه بعدَها بعد أنْ ألقى عليها نظرةً أخيرة ..

وهالَه ما رأتْ عيناه ..

ربَّاه !!

لقد اختفتْ ابتسامتُها ..

تماما !!

******

ما أنْ توقَّفَ أتوبيسُ النقلِ العامِ في محطةِ ميدانِ بابِ الخلقِ، حتى ألقتْ بجسدِها المُنهكِ نحوَ بابِ النزولِ وسطِ الجموعِ المتدافعةِ، راحتْ تُشيّع رُكابَ الأتوبيسِ الذي غادرَ المحطة بنظراتٍ حانقةٍ غاضبة، وهي تعدلُ ملابسَها، وتواصلُ طريقَها عبرَ الميدانِ العريقِ الذي تنطلقُ فيه السياراتُ كالريحِ، وبعدَ عناءٍ واستجداء لقائدي السياراتِ نجحتْ في عبورِ الميدانِ، وقد بدأ الظلامُ يُرخي سدولَه على صفحةِ الكون، انطلقتْ من حلقِها تنهيدةً مريرةً، وعيناها على الشارع الطويلِ أمامها حيثُ تسكنُ في شقةٍ بالإيجارِ بأحدِ البيوتِ التي تقبعُ في آخره مع صغيرها "أيمن" ذي الخمس سنوات، بعد أن اختطفَ الموتُ زوجَها في ريعان شبابِه بعدَ رحلةِ زواجٍ لم تتعدَ السنواتِ الأربع، قضتْ آخرَ عامين منهم في التنقلِ بين الأطباءِ والمستشفياتِ إلى أنْ نفذَ أمرُ اللهِ، ورحلَ زوجُها تاركا إياها تواجه الدنيا بمفردها ..

وهاهو القدرُ يُخططُ ليخطفَ منها ابنها أيمن – كما خطفَ أباه - وقد وَرَثَ ذلك المرضَ اللعينَ عنه و ...

- أخبارُكِ يا "منال" .

فاقتْ مِن شُرودِها لتطالعَ بعينيها المُنهكتين أم فاتن أمامَها بملامحِها الطيبة التي تبعثُ على الراحةِ، رسمتْ فوقَ شفتيها ابتسامةً خرجتْ على الرغمِ منها باهتةً، وهي تقولُ :

- الحمدُ لله يا أمي .. بخير .

أحسَّتْ أم فاتن بما تُعانيه "منال"، فهتفتْ بها قائلةً :

- " أيمن" حبيبي .. ما أخباره ؟

ترقرقتْ عينا "منال" بالدموعِ، وقالت :

- كما هو يا أم فاتن .. المرضُ يأكلُ جسدَه يومًا بعدَ يوم وأنا .. وأنا ما زلتُ أبحثُ عن عملٍ لأتحملَ نفقاتِ علاجِه الباهظة .

أخذتها أم فاتن بين أحضانِها، وربَّتتْ على كتفيها قائلة :

- اطمئني يا ابنتي، وهوِّني على نفسكِ .. مَنْ خلقَه لن ينساه أبدًا .

مسحتْ "منال" دموعَها قائلة، وهى تُهيئ نفسَها لمواصلةِ السير :

- بإذنِ اللهِ يا أمي، أملي في اللهِ كبير .. سأذهبُ الآنَ لأطمئنَ عليه .

- مع السلامة يا ابنتي .. مع السلامة .

ظلتْ أم فاتن مكانها تتابعها للحظاتٍ في أسى، ثم هزتْ رأسَها، وعادتْ نحوَ الميدانِ مرة أخرى بعد أن كانت على مَقرُبَةٍ من مدخلِ بيتها، وواصلتْ خُطاها حتى وصلتْ لمحلٍ ضخمٍ بالميدان تحتلُ واجهته لافتةً كبيرة كُتِبَ عليها بالخطِ العريض" الجمل لاكسسوار السيارات" .. نهض الحاجُ " فرج الجمل"

بجسدِه الضئيل، ورأسِه الأصلع مِن خلف مكتبه فورَ رؤيتِها، وهرعَ إليها قائلا، وهو يحملُ مقعدًا بنفسه، ويضعه لها أمامَ المحل :

- أهلا بالست أم فاتن .. تفضَّلي .

ألقتْ أم فاتن بجسدها الذي أنهكه الزمنُ فوقَ المقعدِ، وهي تقولُ مبتسمةً :

- ربنا يكرمكَ يا حاج .

عادَ الحاجُ " فرج" بمقعدٍ آخر، وجلسَ عليه بجوارِها قائلا لها في طيبةٍ بالغة :

- أخبارُكِ يا أم فاتن ؟

صمتتْ للحظاتٍ،ثم قالتْ :

- أنا الحمدُ لله بخير يا حاج ، ولكن أحتاجُ مساعدتكَ في أمرٍ لا يخصني .

ناولها الرجلُ كوبَ الليمون الذي أتى به عاملُ المحلِ، وقال لها :

- تفضَّلي يا أم فاتن .. تحت أمركِ .

تناولتْ منه الكوبَ، وقالتْ في مرارة :

- الموضوعُ يخصُّ " منال " التي تُوفِّى زوجُها و..

ابتسمَ الحاجُ " فرج الجمل"، وقال مقاطعًا :

- أعرفُها يا أم فاتن .. المعلم "توفيق" حدثني عنها .. لا تقلقي .

علتْ الابتسامة وجهَهَا قائلة في سعادة، وهى تنهضُ مُعلنة الانصراف :

- أكرمكَ الله يا حاج، وجعلكَ دوما نصيرًا للغلابة والمحتاجين .

هتفَ الرجلُ قائلا في طيبةٍ بالغة :

- كلُّه من فضل الله سبحانه وتعالى يا أم فاتن .

وصمتَ قليلا يتابعها في أسى، وهى تسيرُ في ضعفٍ مُتكئةً على الحائط، وتذكَّرَ زوجَها الراحلَ الأستاذ "رشاد" مدرسُ اللغة العربية، وصاحبُ الأفضالِ الكبيرةِ في تربيةِ كلِّ أبناءِ

الحي، وتذكَّر أيضًا ابنتها "فاتن" التى فقدتْ حياتَها في ريعانِ شبابِها في صدمةٍ مُروِّعةٍ

لأمِّها ولكلِّ مَنْ بالحيِّ، فهتفَ في أعماقه قائلا، وهو يتطلعُ للسماءِ :

- أعانكِ اللهُ يا أم فاتن، وألهمكِ الصبرَ .

******

بعدَ المغربِ كعادتِه كان " الأعور" داخلَ الحوش، وأمامه كان الأولادُ الصِّغارُ يُفرغون ما تحويه جيوبُهم على المائدةِ الصدئة، وهو يرمقهم من خلال عينِه الواحدةِ في صمت و ..

فجأةً ..

وجدَ أمامَه قواتِ الشرطة تُحاصرُ المكانَ، وجنودُها ينتشرون ويحاصرون الأولادَ الذين أصابهم الفزعُ، وكلٌّ منهم يحاولُ الفرارَ بنفسه، في حين تطلع " الأعور" بعينه الواحدة لرجال الشرطةِ في غضبٍ، وهو يُطيحُ بالمائدة الصغيرةِ التي أمامَه بقدمه، ويُلقي بنفسه خلفَ السورِ الذي يجاوره ليهوي بجسدِه داخلَ تلك المقبرةِ التي أعدَّها للحظة كهذه، وسطَ صرخاتِ الأطفالِ التي ملأتْ المكان، وهم يحاولون عبثاً الفرارَ في حين كان " الأعور" يسحبُ حجرًا ضخمًا ليغلقَ المقبرةَ مِنْ خلفه ..

مِنْ مَكْمَنِه راحَ يتابعُ عربةَ الشرطة، وهي تغادرُ المكانَ، وقد امتلأ صندوقُها الخلفي بالأطفالِ الذين راحتْ صرخاتُهم تتابعُ في ذعرٍ، ورفعَ رأسَه في

حذرٍ، وهو يغادرُ المقبرةَ، وقد جحظتْ عينُه السليمة في غضبٍ رهيب، وراحَ يتطلعُ للحوش الذي تحطمَ، وعلاه الخرابُ، وكان قد أنفقَ ما يزيدُ على السنواتِ الثلاث في إعدادِ مخبأٍ كهذا بعيدًا عن أعين رجالِ الشرطةِ و فجأةً ..

اتسعتْ عينُه في ذهولٍ، وهو يتطلعُ لسيارةٍ سوداءَ فارهة تُغلقُ مدخلَ الحوش، ويهبطُ منها

" الجن" الذي وقفَ يبادله النظراتِ، وقد عقدَ ساعديه أمامَ صدرِه، وفي عينيه تتراقصُ نفسُ الابتسامةِ .. الابتسامة الساخرة !

******

بجسدِه القوي خطا "أشرف" ابن المعلم توفيق - والذي يعملُ مُدربًا لفريقِ الناشئين بأحدِ الأندية الكبرى - بقدميه داخلَ المِقهى، واتجه صوبَ والدِه الذي كان يجلسُ خلفَ مكتبِه الذي يتصدرُ المِقهى بصحبةِ "أحمد راغب" و"سمير مصباح" ..

انقلبتْ سِحنة المعلم "توفيق" فورَ رؤيةِ ابنِه، في حين هتفَ "راغب" قائلا:

- أهلا بالكابتن " أشرف " .

سلّم عليهم "أشرف" قائلا :

- أهلا عم أحمد .. أهلا أستاذ "سمير" .

نهضَ المعلمُ "توفيق" بجسدِه الضخم، وأخذه من يدِه مبتعدًا، وهو يقولُ:

- تعال .. أريدُكَ في موضوعٍ هام .

انصاعَ له "أشرف"، ومضى وراءَه لأحدِ أركانِ المِقهى، وجلسا فوقَ مقعدين مُتجاورين، وهتفَ به المعلمُ "توفيق" قائلا في حدةٍ :

- ما هذا الذي فعلته أيُّها التعس ؟

هزَّ "أشرف" رأسَه، وقد فَهِمَ ما يرمي إليه والده، فقالَ في تأثرٍ :

- وماذا كنتَ تريدُ منِّي أن أفعلَ يا أبي .. لقد طلبتْ الطلاقَ فطلقتُها .

حاولَ المعلم "توفيق" أنْ يخرجَ صوتُه هادئاً؛ حتى لا يصلُ لروادِ المِقهى الذي بدأ يزدحمُ بالزبائن، وهو يقولُ بغيظٍ :

- أتطلقها بعد سبعةِ عشر عامًا من الزواج .

لوَّح "أشرف" بذراعِه هاتفاً في ضيق :

- حياتي صارتْ معها جحيمًا يا أبي، والطلاقُ هو أفضلُ حلٍ لي ولها .

- و" شادي" .. ابنك !

- " شادي" ابني ، وسيظلُّ معي .. إنَّه الآنَ تجاوزَ الخامسة عشرة من عمره، وبإمكانِه أن يقدِّرَ و ..

- مهما كَبُرَ يا ولدي .. من حقه أن يعيشَ بينَ أبيه وأمه .

ربَّتَ "أشرف" على كتفِ أبيه، وقالَ في هدوء :

- لسنا أولَ مَنْ يلجأ للطلاقِ يا أبي .. وغدًا تستقيمُ الأمورُ، وأتزوجُ وأبدأ حياةً جديدة و ..

قاطعه المعلمُ "توفيق" قائلا في ألمٍ شديد :

- أنتَ ستبدأ حياتَكَ، وهي ستبدأ حياتَها .. الضحيةُ الوحيدُ هو " شادي"، وأنا لن أسامحكَ أبدًا لو حدثَ له مكروهًا .. هل تسمع ؟ لنْ أسامحَكَ أبدًا .

******

٣- برهوم الجن ..

قبلَ تلك الأحداثِ بسبعةِ أشهرٍ في ذلك المكانِ المُنطرفِ مِن المُقطم، كان " الجن" داخلَ حجرةٍ بأحدِ المباني جالسًا في جلبابِه الأبيضِ على مقعدٍ بجوار النافذةِ، يراقبُ الظلامَ الذي أسدلَ ستارَه على المنطقةِ، حينَ دخلَ عليه أحدُ زملائِه قائلا له في جمودٍ :

- مولانا يطلبُ مقابلتك الآن .

امتقعَ وجهُ " الجن" بشدة، وخرجَ صوتُه بصعوبةٍ من بين شفتيه، وهو يردّدُ قائلا بحروفٍ مُتعثرة :

- مولانا يطلبني أنا ؟ !

- نعم يا أخ " إبراهيم" .

أمامَ هذه اللهجةِ الجامدةِ لم يملكْ " الجن" إلا أنْ ينهضَ من مقعدِه في تثاقلٍ مُغادرًا حُجرتَه خلفَ رفيقِه - ذي الخطواتِ الرتيبةِ الواثقةِ – وقدماه لا تقويان على حملِه، ووقفا معاً أمامَ بابِ مُغلقٍ لإحدى الحجراتِ .. ابتلعَ " الجن" ريقَه مرة أخرى في صعوبةٍ، وهو يُطالعُ رفيقَه يطرقُ البابَ في هدوءٍ، ثم يفتحه مشيرًا له بالدخول ..

يمتثلُ " الجن" للأمرِ، ويعبرُ البابَ بخطواتٍ متعثرةٍ حذرةٍ، في حين أغلقَ رفيقُه البابَ خلفَه .. رفعَ " الجن" عينيه إلى الشيخ "مرتضى" الذي كان يجلسُ فوقَ أريكةٍ واسعة بجسدِه الضخم داخلَ جلبابِه الأبيضِ الفضفاض، وأمامَه طبقٌ كبيرٌ عامرٌ بشتَّى أنواعِ الفاكهة ..

رمقه الشيخُ "مرتضي" بنظرةٍ مُتفحصةٍ، وتناولَ تفاحة كبيرةً قضمها، ثم هتفَ به قائلا :

- أقبلْ يا أخ "إبراهيم" .

جاهدَ " الجن" وهو يبتلعُ ريقَه، وأجبرَ قدميه ليقتربَ خُطوةً أخرى من الشيخ "مرتضى" بوجهِ شاحب وعينين ممتقعتين، ولا يدري كيف خرجتْ الحروفُ من بين شفتيه، وهو يردّدُ :

- تحت أمرِكَ يا مولانا .

تناولَ الشيخُ "مرتضى" قضمةً أخرى من التفاحة، وركَّز نظرتَه النافذة في وجهِ " الجن"، وقالَ بصوتٍ عميق :

- أبشرْ يا أخ "إبرهيم" .

ازدادَ شحوبُ ملامحِ " الجن"، وهو يرددُ بوجهٍ ممتقع :

- خيرًا يا مولانا .

بصوتٍ قوي حازمٍ صكَّ مسامعَ " الجن" جاءه الردُّ من الشيخ "مرتضى"، وهو يقولُ :

- لقد وقعَ الاختيارُ عليكَ يا أخ "إبراهيم" .

أحسَّ " الجن" أن قدميه لم تعدْ قادرتين على حملهِ، وهو يُرددُ بصوتٍ متحشرج :

- أنا ؟!

- نعم يا أخ "إبراهيم" .. الآنَ جاءَ دورُكَ في طلبِ الشهادة .

بصوتٍ ضعيفٍ لم يدرِ " الجن" كيف خرجَ من بين شفتيه هتفَ قائلا بتلعثم، وهو يبتلعُ ريقَه مرةً أخرى :

- الشهادة !

- نعم .. مَلهى ليلي بمصرَ الجديدة .. كلُّ روادِه يتخذون من الشيطانِ حليفًا لهم .

وصمتَ الشيخُ "مرتضي" لحظاتٍ يراقبُ فيها وجهَ " الجن" الشاحبِ، واستطردَ قائلا بصوتٍ بدا أكثرَ عمقًا :

- وقد وقعَ الاختيارُ عليكَ لتطهيرِ ذلك المكانِ الموبوء .

- مولانا أنا ..

- أنتَ ماذا يا أخ "إبراهيم" ؟! أترفضُ أن تجودَ بروحكَ في سبيلِ الدفاعِ عن ديننا وقضيتنا؟

- لا يا مولانا .. ولكن ..

- لا توجد لكن يا أخ "إبراهيم" .. اذهبْ الآنَ لتستعدَ؛ لا نريدُ أنْ يطلعَ صباحُ بعدَ غدٍ على ذلك المَلهى، أريدُه كومة من تراب، أريدُ كلَّ مَنْ فيه جُثثاً متفحمة .. هل سمعتَ ؟ هيا انصرفْ .

خرجَ " الجن" مُغادرًا حجرةَ الشيخِ "مرتضى"، وهو يَجرُّ قدميه جرًا، وقد شحبَ وجهُه في شدةٍ حتى نافسَ وجوهَ الموتى !

******

" الجن" فوقَ فراشِه داخلَ حجرتِه وحيدًا، وقد سيطرَ عليه همٌ وحزنٌ عظيم، منذُ غادرَ حجرة الشيخ "مرتضى"، نهضَ من فراشِه، وهو يُطلقُ من حلقه تنهيدةً حارة، واتجه للنافذة المفتوحة ليلتقط جرعةً من الهواء النقي يملأ بها صدره، وهو يمررُ كفَه على رأسِه ولحيتِه في توتر وحنقٍ هائلين ..

من بين شفتيه خرجَ صوتُه مُشبعاً بالألم والمرارة، وهو يرددُ قائلا مُقلدًا صوتَ الشيخ "مرتضى" :

- الآنَ جاءَ دورُكَ في طلبِ الشهادةِ يا أخ إبراهيم .

وصمت للحظةٍ استطردَ قائلا بعدها بنفس المرارةِ التي لا تخلو من سخرية، وقد استعادَ صوتَه :

- أيُّ دورٍ هذا أيُّها المخبولُ ؟

وهل تدعوني لتناولِ الغداء ؟ !

إنك تدعوني للتضحية بروحي ..

أنا ..

أنا الجن أضحِّي بروحي !

ومِنْ أجل مَنْ ؟ !

فلتذهبوا جميعًا إلى الجحيم ..

بل ولتذهب أيضا قضيتُكم الملعونةُ لأعمق أعماقِ الجحيم ..

ثم .. منذُ متى وكان للجن يومًا قضية ؟ !

إنني لم أنضمْ إليكم إلا بسببِ الظروفِ التي شهدتها البلادُ بعدَ الثورة ..

لم أجدْ غيركم ملاذًا يأويني من الجوعِ والتشرد ..

نعم .. جئتكم طالبًا الحمايةَ والأمانَ ..

والآنَ تدعونني لأنْ أجودَ بنفسي، وأضحِّي من أجلكم ..

أنا ! أنا الجن ..

ألا تعرفون مَنْ أنا ؟!

أنا " الجن" الذي تركَ أمهَ مريضةً، وهَرَبَ بثمنِ علاجِها تاركاً إياها تواجه الموتَ ..

هل عرفتم من أنا ؟ .. ها .. ها .. ها..

وبرقتْ عيناه في جنون !

******

بأصابعَ مُرتجفةٍ تحسَّسَ " الجن" الحزامَ الناسفِ الذي أحاطَ وسطه، وهتفَ بحروفٍ مُتعثرةٍ، وهو يبتلعُ ريقَه في الرجلين اللذين يحيطان به :

- وكيف يعملُ هذا الحزام ؟

جاءه الردُّ على لسانِ أحدِ الرجلين بصوتٍ جامدٍ :

- فقط ستضغطُ على هذا الزرِ الأحمر ضغطة واحدة يعملُ الحزامُ بعدَها .

هزَّ " الجن" رأسَه في شحوبٍ، وهو يبتلعُ ريقه مرةً أخرى مُتخيلا ما سيحدثُ له عقبَ تلك الضغطة التي يتحدثُ عنها ذلك المعتوه، فتصبَّبَ عرقٌ غزيرٌ على وجهه، في حين كان الرجلُ الآخرُ يربّتُ على كتفه قائلا :

- هنيئا لك بالشهادة يا أخ " إبراهيم " .

تطلعَ إليه " الجن" قائلا، وهو يكادُ يبكي :

- نحن السابقون وأنتم اللاحقون بإذن الله يا أخي .

هتفَ به الأولُ قائلا بنفس لهجته الجامدة الخالية من الانفعالات تمامًا :

- هذه مفاتيحٌ لسيارةٍ حديثة في انتظارِكَ أسفلَ البناية، وهذا مبلغٌ من المالِ لتنفقَ ببذخٍ داخلَ ذلك الملهى الليلي فلا يُلاحظ أحدٌ عليكَ شيئا .

طرقاتٌ على البابِ في تلك اللحظة، فيتطلعُ إليهم " الجن" في توتر، فيربّتُ الثاني على كتفه ليطمئنه، ثم يتجه للبابِ ويفتحه ليدخل رجلٌ ثالثٌ بلحيةٍ طويلة يرتدي جلبابا أبيضا قصيرًا، وبيده حقيبة صغيرة، يرمقه " الجن" في تساؤلٍ، في حين يهتفُ به الأولُ بنفسِ اللهجة الجامدةِ قائلا :

- الأخ "سعيد" سيقومُ بإزالةِ لحيتكَ .

ردَ " الجن" في ذهولٍ قائلا :

- إزالة لحيتي ولكن ..

قاطعه الثاني قائلا بصوتٍ لا يخلو من صرامة :

- لا بد من ذلك يا اخ "إبراهيم"؛ حتى لا يشكَّ فيك أحدٌ مِمَنْ يلجون ذلك المكانَ الموبوء .

قال ذلك ثم مدَّ يده، وضغطَ على مِشبكٍ صغير خلفَ ظهرِ " الجن"؛ ليحلَّ الحزامَ، وقبل أن يكملَ ابتعدَ عنه " الجن" مُسرعاً في اتجاه الحمام قائلا، وهو يمسكُ طرفَ الحزامِ بيده :

- معذرة يا أخي، ولكن لا بدَّ أنْ أقضي حاجتي الآن .

ولم يتركْ لأحدهم فرصةً للاعتراضِ، حيثُ كان قد قطعَ الردهة المؤدية للحمام في لحظة، وأغلق البابَ وراءَه .. تابعه الأولُ، وعلتْ شفتيه ابتسامةٌ في لقطةٍ نادرةٍ ما تحدثُ، وهو يقولُ داعيًا رفاقَه للجلوس :

- لا بأسَ من الانتظارِ قليلا ليقضيَ حاجتَه؛ فقد لا يكون بإمكانه أن يفعلها مرةً ثانية .

شاركه رفيقاه الضحكَ و ..

فجأةً .. دويَّ انفجارٌ هائلٌ أطاحَ بثلاثتهم، وحوَّل المكانَ بأكملِه إلي كومة .. كومة من تراب !

******

٤- الصفقة ..

فجأةً ..

وجدَ " الجن" جسدَه يهوي أرضا، وسقطَ فوقَه الإطارُ الحديدي لنافذةِ الحمَّام الذي كان يتعلقُ به، وارتطمَ به في قوةٍ، وأحدثَ برأسِه جُرحًا طوليًا سالتْ منه الدماءُ في غزارة ..

بأنفاسٍ متلاحقةٍ وعينين مجهدتين أخذَ يُقاومُ في ضراوةٍ غيبوبة قوية تُحاصرُ عقله، وهو يُتابعُ من خلالِ صورةٍ مهتزة - صنعتها الدماءُ التي تسيلُ من رأسِه على جبهتِه في غزارةٍ وتغرقُ عينيه ووجهَه – آثارَ الانفجارِ القوي الذي أطاحَ بالشقة، وأيقظ المنطقة الهادئة كلَّها، وقد أطلتْ رؤوسُ السكانِ يتابعون ما حدثَ من نوافذِ منازلِهم المجاورة، والفزعُ قد تجسَّدَ في أبشعِ صورِه على وجوههم .. استنفرَ " الجن" كلَّ ما تبقَّى من قواه، وراحَ يزحفُ بجسدِه للخلفِ مبتعدًا عن المكانِ في شارعٍ خلفي يُجاورُ الشقة محل الانفجارِ، في نفس اللحظةِ التي التقطتْ فيها أذناه الصوتَ المُميزَ لعرباتِ الشرطةِ والدفاع المدني، وهي تُطوقُ المكانَ، ورجالُها ينتشرون في كلِّ ركنٍ .. نهضَ " الجن" من مكانِه مُعتمدًا بمرفقيه على إحدى مواسيرِ الصرفِ الصحي خلفَه، وراحَ يلهثُ في شدةٍ، والغيبوبة القوية تُحاصرُ عقله في إلحاحٍ، وقد أسندَ رأسَه على الحائطِ .. وأمامَ عينيه المجهدتين تراقصتْ صورةٌ لثلاثةِ رجالٍ ضخامِ الجثة في ملابس سوداءَ أحاطوا به، ورفعَ أحدُهم يدَه، وهوى بها على مؤخرةِ عنقه في ضربةٍ خفيفةٍ مدروسة، استسلمَ بعدَها " الجن" تمامًا للغيبوبةِ التي كانت تُحاصرُه في إصرار، وهوى أرضًا فاقدًا وعيَه تحتَ أقدامِهم !

ليحمله الرجالُ الثلاثة بعدَها، ويلقون به على المقعدِ الخلفي لسيارةٍ سوداءَ فارهة ذاتَ لوحةٍ معدنيةٍ تحملُ رقمًا مميزًا، والتي سَرعَانَ ما تحركتْ مُغادرةً المكانَ .

******

انطلقتْ من حلقِ " الجن" آهةُ ألمٍ، وهو يفتحُ عينيه في بطءٍ، ليجدَ نفسَه داخلَ قبوٍ رطبٍ شِبه مظلمٍ أسفلَ إحدى البنايات ..

بتثاقلٍ رفعَ يدَه، وتحسَّسَ رأسَه ليجدَ حولها ضمادةً كبيرةً من الشاش .. ابتلعَ ريقه الجاف بصعوبةٍ، وهو يهتفُ في أعماقه قائلا :

- ماذا حدث ؟ وأين أنا ؟ كل ما أذكره هو ..

ابتلعَ بقية عبارته، حين غمرتْ أضواءٌ قوية القبوَ في تلك اللحظةِ، فأغلقَ عينيه بسرعةٍ للحظات، فتحهما بعدَها ليتبين المكانَ من حوله ..

كان القبوُ ذو الجدران الخُراسانية خاليًا تمامًا من أيّ شيءٍ سوى مقعدٍ صغيرٍ على بُعدِ مترين منه، وليس له سوى مدخلٍ واحدٍ عبارة عن بابٍ حديدي مُغلق ..

اعتدلَ " الجن" في جلستِه حينَ صكَّ أذنيه في تلك اللحظةِ الصريرُ المُزعجُ الذي أحدثَه البابُ الحديدي، وهو يُفتح ليدخلَ منه رجلٌ فارع الطولِ، قوي الجسمِ، حليقُ الوجهِ، يُخفي معظمَ ملامحِه خلفَ منظارٍ أسودَ ضخم ..

عينا " الجن" تتابعان في ذهولٍ صاحبَ المنظارِ الأسودِ الذي يتحرّكُ في خطواتٍ واسعةٍ واثقة نحوَ المقعِد الوحيد، ويجلسُ عليه واضعاً ساقا فوقَ الأخرى، وهو يُشعلُ سيجارًا فخمًا في هدوء .. ظلَّ " الجن" يتابعُ سُحبَ الدخان ذاتَ الرائحةِ النفَّاذةِ المُنبعثة في قوةٍ من بين شفتي الرجلِ دونَ أن

يتفوَّه بحرفٍ، في حين نفَّث ذو المنظارِ الأسود دخانَه مرة أخرى، وهتفَ قائلا بصوتٍ بدا هادئا عميقا في آنٍ واحد :

- أهلا يا " جن" .

ابتلعَ " الجن" ريقه مرةً أخرى في صعوبةٍ بالغة، وهتفَ بصوتٍ مُتحشرجٍ قائلا :

- من المؤكدِ أنَّ حضرتك تعرفُ عني الكثير .

ابتسامةٌ خفيفةٌ اعترتْ ملامحَ ذا المنظار الأسود، وهو يضغطُ بإصبعِه على زرٍ في جهازٍ صغير بيده قائلًا بصوتِه الواثق العميق :

- نعم يا " جن" .. نعرفُ أكثرَ مما تتخيلُ .

اتسعتْ عينا " الجن" في ذهولٍ، وهو يرى الحائط الخُرَاساني المواجه للبابِ الحديدي، وقد تحوَّل لشاشةِ عرضٍ ضخمة، وازدادتْ عيناه اتساعًا أكثرَ وأكثر، وهو يُطالعُ ما تعرضه الشاشة ..

نعم .. الشاشة تعرضُ مشاهدَ من حياتِه كاد هو ينساها ..

مشاهدٌ له وهو في شوارع القاهرة - بعدَ هروبِه من الإصلاحية - وقد تحوَّل إلى لصٍ مهمتُه خطفُ الحقائبِ، والسلاسل الذهبيةِ من صدور النساء..

ومشاهدٌ وهو بالسجن بعدَ ضبطِه في إحدى السرقاتِ، والحكمُ عليه بسبع سنوات ..

ومشاهدٌ له وسطَ رفاقِه بجوار مسجدِ الحُسين، وقد اتخذ التسوَّل مهنة له ..

ومشهدٌ أخير له بعد انضمامه لجماعةِ الإخوان، وقد ارتدى الجلبابَ الأبيض، وأطلقَ العَنانَ للحيته ..

ابتلعَ " الجن" ريقه بصعوبةٍ للمرةِ الثالثة، وقد ارتفعَ حاجباه في ذهول، وهو يُطالعُ شاشة العرضِ التي راحتْ تُعيدُ عرضَ المشاهدِ السابقة تلقائيًا في حين كانت ابتسامةُ صاحبِ المنظار الأسود تتسعُ وتتسعُ، وهو يسحبُ نفساً آخرَ من سيجارِه في استمتاعٍ، والجن يرددُ قائلا بحروفٍ متعثرة :

- إنكم تعرفون كلَّ شيء !

لم يردْ عليه صاحبُ المِنظار الأسودِ بل ابتسمَ في ثقةٍ، وهو يضغط زِرًا آخرَ بجهازِه الصغير ليُفتحَ البابَ الحديدي للقبو، ويدخلُ منه رجلان، وفوقَ كتفِ كلٍّ منهما صندوقٌ متوسطُ الحجمِ .. وضعَ الرجلان الصندوقين أرضاً أمامَ عينيّ " الجن" الجاحظتين، ووقفا ينتظران الأمرَ من صاحبِ المنظار الأسودِ الذي اعتدلَ واضعًا ساقا فوقَ أخرى، وهو يُنفِّث دخانَ سيجارِه ذي الرائحةِ النفاذةِ، ثم أشارَ لأحدِ الرجلين الذي انحنى، ورفعَ غطاءَ أحدِ الصندوقين، وارتفعَ حاجبا " الجن" في ذهولٍ حتى كادا يلتصقان بجبهته، وهو يُطالعُ الصندوقَ الذي امتلأ عن آخرِه بأوراقِ البنكنوت ..

عدلَ صاحبُ المنظار الأسود منظارَه فوقَ عينيه، وأشارَ للرجلِ الآخر الذي تقدَّمَ، ورفعَ غطاءَ الصندوق الثاني ليتجسَّمَ الذهولُ مرة أخرى في عيني " الجن"، وهو يُحدِّقُ في الصندوق الذي اكتظَّ عن آخرِه بالذخيرةِ والمدافعِ الرشاشةِ المختلفةِ الحجم والشكل ..

بصعوبةٍ بالغةٍ جاهدَ " الجن" ليخرجَ صوتُه من بين شفتيه، وهو يهتفُ بصوتٍ مُتحشرجٍ :

- سعادتك .. أنا لا أفهمُ شيئا .

هتفَ ذو المنظار الأسودِ بصوته العميق قائلا :

- لا تتعجلْ يا " جن" .. ستفهمُ كلَّ شيء .

ثم أشارَ للرجلين بالخروج فغادرا القبوَ سريعًا، ووقفا بالخارج، وقد أُغلقَ البابُ خلفَهما أليكترونيا، ولم تمرْ دقائقٌ قليلة حتى سمعا صوتَ الجرس يستدعيهما للداخل، والبابُ يُفتح مرة أخرى فدخلا سريعًا، وعيونُهما معلقة بذي المنظار الأسودِ الذي أومأ لهما برأسِه، فاتجها نحوَ " الجن" الذي شحبتْ ملامحُ وجهِه - في شدةٍ - كوجوه الموتى، واصطحباه للخارج، وهو يَجرُّ قدميه بينهما جرًا، وقد خارتْ قواه تمامًا، وكأنَّه مقبلٌ على حبلِ المشنقة لتنفيذِ حُكم الإعدام فيه ..

نعم .. فما سمعه في الداخلِ منذُ قليلٍ كان رهيبًا ..

بل يتجاوزُ كلَّ حدودِ العقلِ ..

لأقصى درجة !

******

داخل الحديقةِ الخاصةِ بالفيلا الأخرى التي يملكُها " كريم شهدي" بالفيوم، جلسَ " فارس" فوقَ مقعدٍ أمامَ حُجرةِ رئيسِ الأمنِ المُجاورةِ للبوابةِ يُدخنُ سيجارة، وكان قد وصلَ لتوّهِ من القاهرة ومعه "غرام" زوجة " كريم شهدي" الذي سيعودُ إليه " فارس" ليأتيَ به من القاهرة آخر النهارِ كما اتفقَ معه في الصباح ..

وبينما هو كذلك فوجئ بسيارةٍ تقتحمُ بوابة الفيلا، وخلفَ عجلة قيادتِها "كريم شهدي" الذي أوقفَ سيارتَه في عنفٍ مُثيرًا حولها عاصفةً من التراب ..

تابعه " فارس" من مكانِه في ذهولٍ، وهو يندفعُ نحوَ الفيلا، وعلى وجهه غضبٌ شديد، وراحَ يتساءلُ في أعماقِه، وعيناه على مدخلِ الفيلا :

- تُرى .. ما الذي يُغضبه بهذا الشكلِ ؟ ولماذا لم ينتظرْ حتى أذهبَ إليه حسبَ اتفاقه معي؟

هزَّ رأسَه في ذهولٍ، وهو يتناولُ سيجارةً أخرى يُشعلها، في حين كان " كريم" في تلك اللحظةِ أمامَ زوجته "غرام"، التي كانت مُستلقية بجسدِها فوقَ أريكةٍ، بردهةِ الفيلا تعبثُ بهاتفها، واعتدلتْ حينَ رأته، وقبلَ أن تتفوَّه بحرفٍ مدَّ يدَه داخلَ جيبِه، وتناولَ شريطَ حبوبٍ لوَّح به أمامَ عينيها، وهو يصرخُ في وجهِها بغضبٍ قائلا :

- ما هذا ؟

ما أن رأتْ شريطَ الحبوبِ بيده حتى اتسعتْ عيناها في هلعٍ، ولم تعدْ تدري ماذا تقولُ له ..

اقتربَ منها، وراحَ يهزُّ كتفيها في قوةٍ صارخا :

- تكلمي .. ألا تريدين الإنجابَ منّي ؟

تطلعتْ إلى ما بيده بعينين مُحمرتين ذاهلتين، وقد جفَّ حلقُها، وعجزَ لسانُها عن النطق ..

ماذا ستقولُ له، وقد عرفَ كلَّ شيء ؟

هل تخبره بالحقيقة ؟

هل تخبره أنَّها لم تحبه يومًا ؟

هل تخبره أنَّها حاولتْ أنْ تحبه كثيراً ولكنها فشلتْ ؟

هل تخبره أنَّ ظهورَه بحياتِها قد حرمَها مِنْ حبيبها زميل الجامعة الذي أحبته وانتحرَ بسببها ؟

هل تخبره عن إحساسِها الذي سيطرَ عليها حينَ تقدَّم لخطبتها ؟

هل تخبره عن لهجة التعالي التي كان يخاطبُ بها أهلهَا البُسطاء، وهو يؤكدُ لهم أنَّه لن يكلفهم شيئا، وأنَّه يريدها فقط بالثوبِ الذي ترتديه ..

يومها لم تشعرْ به كرجلٍ يريدُ الزواجَ ..

أحسَّته تاجرًا بل نخَّاساً في سوقِ الرقيق ..

نخّاسٌ يملكُ المالَ ومِنْ حقِه أنْ يشتري ما يريدُ طالما يملكُ ثمنَه ..

فاقتْ من شرودِها بدموعِها المُتحجرة بمقلتيها، وهو يدفعُ جسدَها أرضًا صارخًا في عنف، وصفعتُه ترتطمُ بخدِّها :

- تكلمي .. إنْ كنتِ لا تريدين الإنجابَ منِّي .. فمِمَنْ تُريدين ؟

هوى جسدُها أرضًا في أنين مكتومٍ، ودموعُها تنهمرُ فوقَ خديها كحبَّاتٍ من اللؤلؤ، ظلَّ

" كريم" للحظاتٍ ينظر إليها بعينين جاحظتين في غضبٍ شديد، وأنفاسُه تتلاحقُ في سرعةٍ ، ثم رفعَ جسدَها المترنحَ أمامَه، وهوى على وجهِها بصفعةٍ هائلة، قبل أنْ يتركها لتهوي بجسدِها أرضًا مرة أخرى، ويندفعُ مُغادرًا الفيلا، ويُلقي بجسده داخلَ سيارتِه، وينطلقُ مغادرًا المكانَ، وعجلاتُ سيارتِه تزأرُ في شدة، في حين كانت عينا " فارس" في تلك اللحظةِ مُعلقتان بردهةِ الفيلا، وقد انعقدَ حاجباه في شدة ..

رمى " فارس" سيجارتَه، وتبادلَ نظرةً حائرةً مع رئيسِ الأمنِ الذي عادَ لتوّهِ من جولته التفقدية حولَ الفيلا، وهزَّ كتفيه لفارس في إشارةٍ منه أنَّ الأمرَ لا يعنيه، فتركه " فارس" وتقدَّمَ نحوَ بابِ الفيلا المفتوح، وعبرَه في حذرٍ، وهو يرددُ :

- مدام "غرام" ..

ولما لم يتلقَ ردًا، تقدَّمَ للداخلِ في حذرٍ، وفجأةً وقعتْ عيناه عليها، وقد تكوَّمَ جسدُها أرضًا والدماءُ تسيلُ من جانبِ شفتيها، وقد تهدَّلَ شعرُها الناعمُ فوقَ جبينِها، وابتلَّ بدموعِها ..

للحظاتٍ ظلَّ " فارس" يتطلعُ إليها في ترددٍ ثم حسمَ أمرَه، وانحنى يحملُ جسدَها بين ذراعيه المفتولتين، ويضعه فوقَ الأريكة، وراحَ يُسوّي ملابسَها وشعرَها المتهدِّل، وامتدتْ أصابعُه في رفقٍ تمسحُ خيطًا من الدماءِ على جانبِ شفتيها، في تلك اللحظةِ صدرتْ عنها آهةُ ألمٍ فاعتدلَ " فارس" واقفا، وهو يقولُ :

- حمدًا لله على سلامتِكِ .

تطلعتْ إليه بعينين مشوشتين في صمتٍ، تركها " فارس"، وأسرعَ ليحضرَ كوبًا من الماءِ، وجلسَ على طرفِ الأريكةِ، ورفعَ رأسَها ، تعلقتْ عيناها بعينيه للحظاتٍ، وقد استكانتْ رأسُها بين ذراعيه، وهو يُفرغُ بعضًا من قطراتِ الماءِ بفيها، أشارتْ له بيدها - أن كفى- فرفعَ الكوبَ، فاعتدلتْ جالسة فوقَ الأريكة، وهى تقولُ له من بين دموعِها، التي لم تجفْ بعد :

- أشكركَ يا " فارس" .

نهضَ " فارس" واقفا أمامَها، وهو يقولُ :

- مِن الممكنِ أنْ نستدعيَ طبيبًا لو أنكِ ..

قاطعته قائلة في ألمٍ :

- لا حاجةَ بي إلى طبيبٍ، ولكن فقط اتركني الآنَ .

- كما تأمرين .

وما أنْ غادرَها " فارس" حتى استلقتْ بجسدِها مرةً أخرى على الأريكةِ، وانهمرَ من عينيها شلالٌ .. شلالٌ من الدموع !

******

أمامَ إحدى البنايات المُتطرفة في القاهرةِ الجديدة توقَّف " الجن" بسيارتِه، وهبطَ منها وهو يرمقُ " الأعور" بابتسامته الساخرةِ، والذي كان وما زالَ يتطلعُ إليه في ذهول ..

ترجَّلَ " الأعور" من السيارة، وتبعَ " الجن" الذي تقدَّم بخطواتٍ واثقةٍ نحوَ إحدى شققِ الطابقِ الأول في تلك البنايةِ، وفتحَ بابَها، وهو يهتفُ به قائلا، والابتسامةُ الساخرة لا تغادرُ شفتيه :

- تفضَّل يا " أعور" .. ادخلْ ولا تخشَ شيئا .

خطا " الأعور" بقدميه إلى الردهة، وراحَ يتطلعُ إلى الأثاثِ الفاخرِ المُحيط به، ويتحسسه في ذهولٍ، وشفتاه تُرددان :

- منزلُ مَنْ هذا يا "جن" ؟

اتسعتْ ابتسامةُ " الجن"، وهو يقول :

- منزلي أنا .

- منزلك أنتَ ؟ ! منذُ متى ؟ !

توارتْ ابتسامةُ " الجن"، وهتفَ قائلا بصوتٍ يشوبُه الغضبُ :

- " أعور" .. إياكَ وإلا ..

قاطعه " الأعور" قائلا، ويدُه ما زالتْ تتحسسُ الأثاثَ الفاخر :

- لا تغضبْ يا " جن" ولكن .. ولكن منذُ متى وكان لأحدِنا منزلٌ يأويه ؟ طوال عمرِنا ونحن نتخذُ من الأرضِ فِراشاً والسماء غِطاء و ..

ضحكاتٌ مُجلجلة تصكُّ أذنيه من الخلف، وتجعله يقطعُ عبارته، ويستديرُ لتصطدمَ عينُه الواحدة بوجوهٍ بدتْ له مألوفةً، ولكنه لا يعرفُ أين ولا متى رآها ..

يهتفُ " كرشه " ساخرًا من داخل جلبابِه الأبيض :

- ما بكَ يا " أعور" .. هل ستظلُّ تُحدِّقُ فينا هكذا ؟

يطلقُ " النص" ضحكة أخرى، وهو يشيرُ لملابسِه النظيفة قائلا :

- لا تدعْ هذه الملابسَ تخدعكَ يا " أعور" .. دققْ جيدًا، وستعرفُ مَنْ نكونُ .

"دبانة" يُحرِّك سبابته بجوارِ رأسِه في حركةٍ دائريةٍ، وهو يهتفُ ضاحكاً :

- دعنا نساعدُكَ يا " أعور" .. هيا معي سأحاولُ مساعدَتكِ، وعليكَ أنْ تتذكرَ .. هل تتذكرُ رفاقَ السجنِ، وبابَ الوزير ومسجدَ الحُسين و ..

يقاطعه " الأعور" صارخًا، وقد امتزجتْ عينُه بحاجبه :

- يا أولاد الـ .. لا يمكن .. مستحيل !!

******

٥- المهنة إرهابي ..

خرج " الأعور" مِن الحمَّام، وقد اغتسلَ وارتدي جلبابا أبيضًا مثلَ رفاقِه، وراحَ يتحسسُ وجهه وملابسَه النظيفة غيرَ مصدقٍ، وهو يتخذُ مقعدَه بينهم، وكان يشعرُ بأنَّه في حُلمٍ سَرعانَ ما سيستيقظ منه .. ربَّتَ " الجن "على كتفه قائلا، وعلى شفتيه الابتسامةُ الساخرةُ التي لا تغادرُ شفتيه :

- اجلسْ يا " أعور" .. وانفضْ هذه الدهشةَ عنكَ؛ فسَرعانَ ما تتعودُ تلك الثيابَ .

هتفَ " الأعور" بصوتِه الأجشِّ قائلا :

- لماذا تفعلُ معنا كلَّ ذلك يا " جن" ؟

التفتَ إليه " الجن"، واتسعتْ ابتسامتهُ الساخرة، وهتفَ بهم قائلا، وكأنَّه لم يسمعْ سؤالَه :

- كيف أحوالُكم يا رفاق ؟

ردَّ " كرشة " ساخرًا :

- أحوالنا ! عظيمة .. عظيمة يا " جن" !

هتفَ " النص" في حنقٍ :

- شبحُ الجوعِ والبردِ يطاردنا في كلِّ مكان ..

والتقط "دبانة" طرفَ الحديث مُستطردًا، وهو يصرخُ قائلا بمرارةٍ :

- صِرنا ننافسُ كلابَ الشوارع في طعامِها .

اتسعتْ ابتسامة " الجن" أكثرَ وأكثر، وهو يستمعُ لعباراتِهم الساخطة، وتألقتْ عيناه بابتسامةٍ ماكرةٍ، ردَّدَ بعدَها :

- عظيم .

ردَّدَ الأربعة في صوتٍ واحدٍ بذهولٍ غاضب :

- عظيم !! .. هل تسخرُ منا يا " جن" ؟!

اضطجعَ بظهرِه إلي الوراءِ قائلا، وأصابعُه تعبثُ بحبَّات مسبحتِه :

- أقولُ أنَّ أحوالكم مناسبة تمامًا .

هتفَ " النص " قائلا في ذهول :

- مناسبة ! لأيّ شيءٍ يا " جن" ؟

هتفَ " الجن" قائلا، وقد تضاعفتْ الابتسامة الماكرة بعينيه مراتٍ ومرات :

- كي تعملوا معي .

جحظتْ عين " الأعور" الواحدة، وقالَ بنفاذ صبر :

- تكلمْ يا "جن" .. نعملُ معكَ في أيّ شيء ؟

واستطردْ "دبانة" ذاهلا :

- ولماذا تركتَ لحيتكَ هكذا يا "جن" ؟

نهضَ " الجن" من مكانه، وتطلعَ إليهم ساخرًا ولم يردْ، فسأله " النص" في حيرةٍ :

- ماذا تعملُ يا "جن" ؟

مرة أخرى تطلعُ إليهم " الجن" وراحَ يرددُ قائلا، وقد اتسعتْ ابتسامته الساخرة، ولمعتْ عيناه ببريقٍ جنوني عجيب :

- أنا ..

أنا أعملُ في مهنةِ الخيرِ .. مهنةُ السعادة .. مهنةُ مَنْ لا عملَ له .

ردَّدَ الأربعة في صوتٍ واحدٍ يُقطرُ ذهولا :

- مهنة مَنْ لا عملَ له ! ماذا تعملُ يا "جن" ؟!

ارتفعتْ ضحكاتُ " الجن" أكثرَ وأكثر، ولم يردْعليهم، وإنما اتجه في خطواتٍ واثقةٍ إلى الحائطِ المقابل لهم، ووقفَ للحظاتٍ أمامَ لوحةٍ كبيرة تتصدرُ الردهة، والتفتَ مُلقيا نظرةً أخرى على عيونهم الذاهلة، ثم مدَّ يدَه، وانتزع اللوحة الكبيرة من مكانِها ليكشفَ عن فجوةٍ كبيرةٍ خلفها، وقد اكتظتْ عن آخرها بالعديد من الأسلحةِ مُختلفةِ الحجم، وانتزع منها مِدفعًا رشاشا كبيرًا رفعه عاليًا، وهو يهتفُ بصوتٍ عميقٍ كان له وقعٌ رهيبٌ عليهم :

- إرهابي .

تطلعَ إليه الأربعة في ذهول، ولم يتفوَّه أحدُهم بحرفٍ مرة أخرى، وكأنَّ ألسنتَهم قد التصقتْ بسقف حلوقِهم !

******

ما أن خطا " كريم شهدي" بقدميه داخلَ شركتِه حتى عقدَ حاجبيه في توترٍ، وهو يُطالعُ وجوهَ العاملين بشركته، وقد بدتْ له شاحبة ممتقعة ..

طافتْ عيناه بوجوهِهم، وتوقفتا عندَ سكرتيرته التي هتفتْ به في توترٍ مُضاعف :

- هناك زائرٌ في انتظارِكَ بالداخل " كريم" بك .

ارتفعَ حاجباه أكثرَ، وكادَ يسألها عمَّنْ يكونُ هذا الزائر، ولكنه وجدَ نفسَه يتجهُ نحوَ مكتبِه، ويدفعُ بابَه في حدةٍ ليرى ذلك الزائر المفاجئ و ..

ما أن ارتطمتْ عيناه بوجهِ زائره - بجسدِه الضخم، ووجهه المُكتظ، وعينيه الضيقتين الشبيهتين بعيني ثعلب، ولحيته القصيرة المُهذبة والمُنسقة بعناية بالغة، والذي كان ينفِّثُ دخانَ سيجارٍ فخمٍ رابضٍ بين شفتيه، وقد جلسَ مكانه خلفَ مكتبِه، ووضع ساقاً على ساق في خُيلاءٍ وتكبرٍ عظيمين – حتى ازدادَ ارتفاعُ حاجبيه وكادا يلتصقان بمقدمة رأسِه، وحينُها فقط أدركَ سرَّ الشحوبِ الذي يُسيطرُ على جميعِ العاملين بشركتِه و ..

- تفضَّل يا سيد " كريم" اجلسْ ... لا تنسَ أنَّه مكتبك .

صكَّت العبارةُ السابقة أذنيه، وقد انطلقتْ بصوتٍ خشنٍ جَهوري مِنْ بين شفتي زائرِه الذي أعقبَها بضحكةٍ لزجة، وهو ينفِّثُ دخانَ سيجارِه في برود..

ابتلعَ " كريم شهدي" ريقه في صعوبة، واتجه في تثاقلٍ للمقعدِ المواجه لمكتبِه، وألقى بجسدِه عليه، وهو يهتفُ بحروفٍ مُتعثرة لا يدري كيف خرجتْ مِن بين شفتيه الجافتين :

- أهلا يا بشمهندس .

تراجعَ زائرُه الضخمُ بجسدِه للخلفِ قائلا في برودٍ مِنْ بين دخان سيجاره:

- أهلا يا سيد " كريم" .. لقد تأخرَ ردُكَ في العرضِ الذي عرضناه عليكَ أمس .

ردَّدَ " كريم شهدي" بوجهٍ شاحبٍ ذاهلٍ :

- العرض ؟! وهل أنتم جادون في ذلك ؟ لقد ظننتُها مُزحةً و ..

اعتدلَ الزائرُ بجسدِه الضخمِ، وهو يقاطعه قائلا في غضبٍ :

- مُزحة ؟ ! نحن لا نمزحُ يا سيد " كريم" .

حملتْ عينا " كريم" بعضاً من الغضبِ، وهو يردُّ قائلا، وقد تخلَّصَ من بعض توتره :

- لا تمزحون ! إذا كيف تعرضون عليَّ عرضًا كهذا ؟ كيف تطلبون ثلاثين في المائة من أرباحِ شركاتي و ..

قطعَ عبارته إثر ضحكةٍ قوية مُجلجلة انطلقتْ من بين شفتي زائره، واهتزَّ معها جسدُه الضخم قائلا، وهو يمسحُ بكفِه فوقَ لحيته القصيرة :

- ثلاثون في المائة ! هذا عرضُ الأمسِ يا سيد " كريم" .. أما عرضُ اليومِ فهو مختلف .

وصمتَ لحظةً تراجعَ فيها بظهره للوراءِ، وتطلعَ إليه بعينيه الضيقتين، وهو يستطردُ قائلا :

- عرضُنا اليوم هو خمسون في المائة من أرباح كلِّ شركاتِكَ .

اتسعتْ عينا " كريم" في هلع، وهو يردّدُ :

- ماذا ؟! خمسون في المائة ! وهل كنتم شركاءَ لي وأنا لا أدري .

تناولَ زائرُه مسبحته من داخل جيبِ معطفِه، وهتفَ قائلا في برودٍ، وهو يُمررُ أصابعَه على حبَّاتِها في آلية :

- نحن بالفعل شركاءٌ يا سيد " كريم" .. نعم .. فبدوننا لن يمكنكَ أنْ تنجحَ في عملكَ أو تُتمَ أيَّ صفقةٍ و ..

نهضَ " كريم" من مكانِه غاضبًا، وهو يقاطعه قائلا :

- هل هذا تهديد ؟

نهضَ زائرُه الضخمُ بدورِه، ونفَّثَ دخانَ سيجارِه قائلا ببرودٍ لا يمكنُ وصفُه :

- نعم يا سيد " كريم " .. هو تهديدٌ بالفعل .

اشتعلتْ عينا " كريم" بالغضب، وهو يقولُ في تحدٍ:

- وإذا رفضتُ ؟

لمعتْ عينا الزائرِ بابتسامةٍ ساخرةٍ، وتحرَّكَ من مكانه ليصبحَ أمامَ " كريم شهدي" مباشرةً، ونفَّثَ دخانَ سيجارِه في وجهِه هذه المرة قائلا ببرودٍ أشدَّ بعد أن تطلع لساعته :

- الساعةُ الآن الثانية عشرة ظهرا يا سيد " كريم" .. سأنتظرُ اتصالكَ تُعلنُ الموافقة قبلَ أن يتعانقَ عقربا الساعة في الثانية عشر ليلا وإلا ..

وصمتَ فجأةً دونَ أن يُكملَ عبارته، وهو يبتلعُ ريقه فصار أشبه بثورٍ يتمخَّضُ مُحْدِثًا فرقعةً بإصبعيه الوسطى والإبهام، ثم استدارَ نحوَ البابِ في بطءٍ، ودخانُ سيجارِه ينطلقُ من فمه بغزاره ..

للحظاتٍ ظلَّ " كريم" يتابعه في جمودٍ عبرَ البابِ الذي تركه مفتوحًا خلفَه، وراحتْ أنفاسُه تتلاحقُ في سرعةٍ وغضبٍ، وكأنَّه بركانٌ أوشكَ على الانفجار ..

وقبلَ أنْ يقطعَ زائرُه تلك الردهة الطويلة المؤدية لبابِ الخروج، وسطَ الوجوهِ الشاحبة التي راحتْ ترمقه في خفيةٍ وحذر، كان " كريم" قد انطلقَ خارجَ مكتبِه صارخًا بثورة، في ظهرِ زائرِه :

- لقد خدعتمونا ..

ليس هذا ما وعدتمونا به ..

أين المصداقية في كلامكم ؟

بل أين النهضة التي أوجعتم بها رؤوسنا ..

كلكم كاذبون ..

كلكم مخادعون ..

لكني .. لكني لن أخضعَ لابتزازكم ..

نعم .. نعم .. لن أخضعَ ..

قل لهم أنَّ " كريم شهدي" لن يستسلمَ ..

ولن يتنازلَ عن مليم من أملاكِه التي ورثها عن والدِه .

ظلَّ الزائر مكانه يستمعُ عباراتِ " كريم شهدي" الغاضبة، والتي انطلقتْ في ظهرِه كمدفعٍ سريع الطلقات، ثم استدارَ في بطءٍ بجسدِه الضخم، وتطلعَ له في نظرةٍ غاضبةٍ صامتة بعينيه الضيقتين الشبيهتين بعيني ذئب، وقد ازدادتا ضيقا قبلَ أنْ يأخذ نفسًا عميقا من سيجارِه، وينفِّثُ دخانَه ببرودٍ، ثم يوليه ظهرَه وينصرف .

******

التفَّ الجميعُ حولَ المنضدةِ التي تتوسَّط الردهةِ، وقد حفلتْ بكلِّ ما لذَّ وطابَ من الأطعمةِ الشهية من بطٍ ودجاج وحمام ..

الأيدي المتعطشة تُسابقُ العيونَ الذاهلة، والأفمامُ تُلوِّكُ الطعامَ في نَهَمٍ..

في صدرِ المنضدةِ كان " الجن" يُراقبهم، وهم يلتهمون طعامَهم وكأنَّه زادُهم الأخير والابتسامة الساخرة لا تفارقُ شفتيه، وكأنَّها باتتْ محفورةٌ على وجهه ..

تهوي قبضة " كرشة " على حمامةٍ محشية، ويقطعها نصفين، ويُلقي بأحدِهما داخلَ جوفِه في لهفة، وراحَ يهتفُ قائلا، وبقايا الطعام تتناثرُ من فمه :

- أشعرُ وكأنِّي في حُلم، ما كنتُ أتصوَّرُ أنِّي سأشمُ رائحة ذلك الطعامِ طيلة حياتي .

يضعُ " النص " أصبعَه داخلَ فمه ليساعدَه على البلع، وهو يُردِّدُ في سعادةٍ قائلا :

- كلنا ذلك الرجل يا " كرشة " .. مَنْ مِنَّا كان يتصوَّرُ أن يتخلَّى عن جلبابِه الذي أصبحَ بلونِ الرصيف، أو أن يرى طعامًا كهذا حتى في عالم الأحلامِ ها .. ها .

" الجن" يتراجعُ بظهرِه إلى الوراء، وابتسامتهُ الساخرة تتسعُ لتشملَ وجهَه كلَّه، وهو يقولُ في بطءٍ ضاغطًا على حروفِه :

- ها هو الطعامُ أمامَكم يا رفاق، تناولوا منه ما شئتم، المهمُ أن تعوا جيدًا ما سأقوله لكم، وأنْ تجعلوا عقولكم رهنَ إشارتي .

قبضَ " الأعور" بكلتا يديه على دجاجةٍ سليمة، وجحظتْ عينُه الواحدة وهو يتطلعُ إليها بين يديه في جشعٍ قائلا :

- قلْ ما تشاءُ يا " جن" .. المهمُ ألا تحرمنا من طعامِكَ اللذيذ ها .. ها ..

"دبانة" يتحسسُ بطة سليمة أمامَه في ولهٍ كعاشقٍ يتحسسُ جسدَ محبوبته بعد غيابٍ، ويردّدُ قائلا :

- كلنا رهنُ إشارتِكَ يا "جن" .

ضحكَ "دبانة" قائلا، وبقايا الطعام تتناثرُ من فمه :

- ولكنّي أشعرُ بالحنين لجلبابي القديمِ يا "جن"؛ فأنا لم أتعوَّدْ على النظافةِ قط ..ها..ها ..

يضحكُ " النص " قائلا، وهو يُلقي بفمِه قطعةٍ كبيرةٍ من اللحم :

- صحيح يا "جن" هل تصلحُ ملابسُنا البيضاء النظيفة هذه للتسول ها .. ها ..

فجأةً .. ينهضُ " الجن" من مكانه غاضبًا، وقد انمحتْ الابتسامةُ من فوق شفتيه، وهو يهتفُ بغضب :

- كان هذا في الماضي يا أغبياء .. أما الآنَ فلابدَّ من الجلباب الأبيض، واللحية الطويلة .

هتفَ " الأعور" قائلا بصوتِه الأجشِّ، وهو يفترسُ قطعةً أخرى من اللحم:

- ولكن .. ولكن كيف يا "جن" .. ونحن لا نعرفُ شيئاً عن ذلك العمل ؟

تراقصتْ الابتسامة الماكرة على شفتي " الجن" مرةً أخرى، وهو يهتفُ قائلاً في خبثٍ :

- لا شيء يا رفاقَ السعادةِ سوى ذلك الجلبابِ الأبيض، وتلك اللحية الطويلة .

وصمتَ قليلا، يتطلعُ إليهم ثم مدَّ يدَه، والتقط مدفعًا رشاشا رفعَه أمامَ عيونِهم، وهو يستطردُ قائلا :

- وذلك المدفعُ الذي يُثيرُ الذعرَ والهلعَ في أشدِّ القلوبِ شجاعة .

تطلعَ إليه " النص " في نظرةٍ خاطفةٍ قائلا، وهو يواصلُ طعامَه بنفسِ النهمِ الذي بدأ به :

- ولكننا لم نتعودْ على حملِه، ولا نعرفُ كيف نستخدمه يا "جن" .

ارتفعتْ ضحكاتُ " الجن" تُجلجلُ مرةً أخرى، واهتزَّ معها جسدُه البدين، وهو يقولُ وقد رفعَ المدفعَ الرشاشَ عاليًا :

- استخدامُه بسيط للغاية يا رفاق .. نعم .. فيكفي أن تضغط على ذلك الزنادِ فقط .

رفعَ "دبانة" حاجبيه بذهول قائلا :

- الزناد فقط ! ولكننا لا نجيدُ التصويبَ .

هتفَ " الجن" ساخرًا، وقد ضاقتْ عيناه بشكلٍ غريب :

- ومَنْ طلبَ منكم التصويب ؟ ! إنَّ كلَّ ما عليكم أن تضغطوا الزنادَ، وتدعوا المدفعَ يحصدُ كلَّ ما يجده في طريقِه حصدًا .

هتفَ " الأعور" قائلا بوحشية، وقد اتسعتْ عينُه الواحدة في سعادةٍ لا مُبررَ لها :

- نحصدُ حصدًا .. يا لها من لعبةٍ ظريفة يا "جن" !

هزّ " كرشة " رأسَه قائلا بأسى :

- يكفي أنَّها ستنقذنا من الجوعِ والبرد .

تراجعَ " الجن" بظهره إلى الوراء فوقَ مقعدِه، وهتفَ قائلا، وهو يضغطُ على حروفِه :

- هذا عن أولا يا رفاق .

تناولَ كلٌّ منهم قطعة أخرى من اللحم، ألقاها داخلَ فمِه، وراحوا يتطلعون إليه، وهم يمضغونها و"دبانة" يهتفُ سائلا :

- وهل هناك ثانيا يا "جن" ؟

لمعتْ عينا " الجن" بنفس البريقِ الغامض، وهو يقولُ :

- نعم يا رفاق .. يجبُ علينا أن نقلِّدَهم في كلِّ شيء؛ حتي نُحققَ ما نريد و..

قاطعه " كرشة " قائلا :

- كيف يا "جن" ؟

- بأن نحفظَ بعضَ الشعاراتِ التي يُرددونها .

ردَّدَ " النص" في حيرةٍ قائلا :

- شعارات !

- نعم بعض الشعارات مثل الإسلام ، الدين ، الرسول .

لوَّحَ " الأعور" هاتفاً في ضيقٍ :

- أيُّ إسلامٍ وأيُّ رسولٍ تقصدُ يا "جن" ؟!

وردَ "دبانة" قائلا، وقد تضاعفتْ حيرتُه :

- أفصحْ عمَّا تريدُ مباشرة يا "جن" .. لماذا تتكلمُ بالألغاز ؟

وهتفَ " كرشة " قائلا :

- نعم يا " جن " .. نحن لم نسمعْ قط عن تلك المصطلحات المعقدة .

نهضَ " الجن" واقفا مرة أخرى، وهتفَ بصوتٍ عميق يشوبُه الغضبُ قائلا :

- ليس المهمُ أن تفهموا .. المهمُ أن تردّدوا .

هتفَ الأربعةُ بصوتٍ واحد :

- نردُ ماذا يا "جن" ؟

جحظتْ عينا " الجن" في جنون، وهو يرددُ بصوته الذي بدا أكثرَ عمقاً :

- الإسلامُ هو الحلُ ..

تطلعَ إليه الأربعة في ذهولٍ، وكأنَّه معتوهٌ أتى من كوكبٍ آخرَ، ولم يتفوَّه أحدُهم بحرفٍ، فصرخ فيهم " الجن" بصوتٍ عال :

- هَيَّا .. ردّدوا .. الإسلامُ هو الحلُ .

هزَّ " النص" رأسَه ضاحكا، وهو يقول :

- بصراحة الكلام صعب يا " جن"، ولكن .. ولكن أفضل من النومِ على الرصيف .

صكَّ سمعَهم صُراخُ " الجن" بلهجتِه الآمرة :

- هَيَّا .

اندفعَ الأربعة يُرددون في صوتٍ واحدٍ كالآلة :

- الإسلامُ هو الحلُ .. الإسلامُ هو الحلُ .. الإسلامُ هو الحلُ ..

******

٦- هجوم ..

قبلَ أن ينتصفَ الليلُ بدقائقَ، كان " فارس" يجلسُ على مقعدٍ مُجاور لرئيسِ الأمنِ داخلَ حجرةِ الأخيرِ بفيلا الفيوم، وقد مدَّدَ ساقيه للأمام، وفكَّ أزرارَ قميصِه، وكان الرجلُ يتجاذبُ الحديثَ معه حين دخل عليهما "غانم" الجنايني، ومعه كوبان من الشاي، اعتدلَ " فارس"، وتناولَ منه كوبَه قائلا له:

- أشكرُكَ يا عم " غانم" .. بالفعل كنتُ في حاجةٍ لكوبٍ من الشاي .

ردَّ عليه الرجلُ العجوز قائلا :

- بالهناء والشفاء يا ولدي .

التفتَ إليه رئيسُ الأمنِ قائلا :

- من الواضح أنَّ " كريم" بك سيقضي ليلتَه بالقاهرة يا " فارس" .

- في الحقيقة لا أدري ، ليس أمامي سوى الانتظارِ و ..

فجأةً ..

انطلقتْ تلك الصرخة ..

صرخةٌ أنثوية شقَّتْ عُبابَ الفضاء ..

صرخةٌ صكَّتْ آذانَهم جميعًا، واستطاعوا تمييزَ صوتِ صاحبتِها ..

لقد كانت هي ..

"غرام" ..

انتفضَ " فارس" مِنْ مكانِه واقفا، وهو يُلقي بسيجارتِه أرضا، في حين كان رئيسُ الأمنِ يهتفُ عبرَ جهازِه اللاسلكي صارخًا في رجاله المنتشرين حولَ الفيلا:

- الصرخة من داخلِ الفيلا .. انتشروا في أماكنِكم حولَ مداخلَ ومخارجَ الفيلا، وتقدَّموا جميعًا نحو الداخل في سرعة لنرى ما يحدثُ .

قالَ ذلك ثم استلَّ سلاحَه، وخرجَ قائلا لفارس الذي تحرَّكَ معه :

- لا يا " فارس" .. انتظرْ أنتَ هنا .

تطلعَ إليه " فارس" في ضيقٍ، في حين تركه رئيسُ الأمن، وانطلقَ مع رجاله صوبَ الفيلا يطوقون مداخلها ومخارجها من كلِّ اتجاه ..

أمامَ بابِ الفيلا الرئيسي تبادلَ رئيسُ الأمنِ نظرةً خاصة مع اثنين من رجاله، ثم اقتحمَ الفيلا صارخًا :

- لا يتحرك أحدُكم وإلا ..

ابتلعَ رئيسُ الأمنِ بقيةَ عبارته، وجحظتْ عيناه في شدةٍ هو ورجاله، حينَ وقعتْ أعينُهم على ثلاثةٍ من الملثمين في ملابسهم السوداء، وقد أحاط أحدُهم برقبةِ "غرام"، وسلاحُه مصوَّبٌ لرأسِها ..

هتفَ أحدُ الملثمين في رجالِ الأمن :

- ضعوا أسلحتكم أرضا، وإلا فجرنَّا رأسَها أمامَ عيونكم .

تطلعَ رجالُ الأمنِ لغرام، وهي تنظرُ لهم في رعبٍ، وقد تحشرَّج صوتُها تحتَ ذراعي الرجلِ القويتين، ثم ألقوا أسلحتَهم أرضًا و ..

فجأةً ..

غرقتْ الفيلا كلُّها في ظلامٍ مخيف، وقد انقطعتْ أنوارُها، وقطعَ الظلامُ بعضَ الهمهماتِ واللكمات، وفجأة – أيضا - سطعَ النورُ مرةً أخرى كما انقطعَ فجأة ..

ولكن حينَ عاد النورُ كان الوضعُ قد تغيَّر تماما ..

لقد فوجئ الجميعُ بفارس، وبيده سلاحُ الملثم الذي كان يُهدد "غرام" التي حررها ، ووقفتْ خلفَه تلتقط أنفاسَها غيرَ مُصدقةٍ أنَّها نجتْ، في حين كان " فارس" يهتفُ بحزمٍ وسلاحه في رأس الرجل :

- أما زلتم تفكرون ؟ هيا ارموا أسلحتكم أرضا .

أطاعه الملثمان الآخران، في حين هتفَ رئيسُ الأمن برجالِه :

- ليأخذْ كلٌّ منكم سلاحَه .

في نفسِ اللحظة دخلَ عم "غانم" ومعه حبالٌ قوية، وقامَ بمساعدةِ رجالِ الأمنِ في ربطِ الملثمين بالحبال، و" فارس" يهتفُ برئيسهم :

- يمكنُكَ الآنَ الاتصالُ بالشرطة .

والتفتَ إلى "غرام" التي كانت تتطلعُ إليه في انبهارٍ، وقال :

- انتهي كلُّ شيء مدام "غرام" .. لا تقلقي .

طافتْ عيناها تتفرسُ ملامحَ وجهه، وهتفتْ :

- أشكرُكَ .. أشكرُكَ يا " فارس" .

ابتسمَ " فارس" قائلا :

- في الحقيقةِ الذي يستحقُ الشكرَ هو عم "غانم"؛ فهو مَنْ قامَ بقطعِ الأنوارِ عن الفيلا .

وغرقَ الجميعُ في الضحكِ عقبَ عبارتِه الأخيرة .

******

داخل ذلك السوقِ الشعبي الكبيرِ المُتاخم لميدانِ العتبة بوسط القاهرة، والمتفرّعُ من شارع محمد علي كانت الأصواتُ تتعالى وتتعالى، وكلٌ ينادي على بضاعتِه بصوتٍ عالٍ ...

المحلاتُ التجاريةُ تحتلُ الشارعَ الواسعَ من جانبيه، في منتصفِ الشارع يوجدُ ذلك المحلُ الضخم، وعلى واجهته لافتةٌ كبيرةٌ تحملُ اسم صاحبه " الهواري " ..

قبل المحلِ بقليلٍ، ووسط كلّ ذلك الزحام والناسُ ما بين ذاهبٍ وآيبٍ، ومن أحدِ الأزقَّةِ التي يمتلئ بها ذلك الشارعُ الواسع، توقفتْ عربةٌ أجرة بيضاءَ من تلك العرباتِ التي تستخدمُ في نقل الركابِ بين أحياءِ القاهرة المختلفة، ونزلَ منها خمسةُ رجالٍ في ملابسهم البيضاء وذقونهم الطويلة، ساروا جنبًا إلى جنبٍ بعرضِ الزُقاقِ الضيق، والناسُ في ذلك السوق راحوا يرمقونهم في حذرٍ وترقبٍ ..

وفجأةً انتزعَ كلُّ واحدٍ من الرجال الخمسة مِدفعًا رشاشًا من أسفل جلبابِه ورفعَه عاليًا ..

الهرجُ والمرجُ يسودان الزُقاق، والناسُ يتدافعون في هلعٍ ورعبٍ إلى الشارع الرئيسي، والكلُّ يحاولُ الهربَ ببضاعته أو مِنْ غيرها؛ خوفاً من رصاصةٍ طائشة، المهم أن ينجوَ بنفسه .. حتى خلا الشارعُ من جميعِ الباعة، التي تناثرتْ بضاعتُهم على أرضيةِ الشارعِ والزُقاق ..

الرجالُ الخمسة يواصلون طريقَهم داخلَ ذلك الزُقاق، والمدافعُ الرشَّاشة تتراقصُ بينَ أيديهم، وهم يتوجهون في جمودٍ حيثُ ذلك المحلِ الضخم ..

محلُ الهواري ..

ويفتحون نيرانَ مدافعهم في غزارةٍ على كلِّ شيء ..

عمالُ المحلِ يسقطون مُضرَّجين في دمائِهم وسط الأثاثِ المُحطم ..

الرجالُ الخمسة يطأون بأقدامهم جثثَ عمالِ المحل، ويواصلون طريقَهم للداخل ..

النيرانُ ما زالتْ تنهمرُ بغزارةٍ مرةً أخرى على كلِّ شيءٍ مع أصواتِ الرجالِ الخمسةِ الصارمة، وهم يهتفون في صوتٍ واحدٍ بجمود :

- كفرة .. فجرة .

من خلف المكتبِ الضخم الذي يقبعُ في صدرِ المحل، تظهرُ رأسَ صاحبِ المحلِ، الذي ترتعدُ فرائصُه، وقد تجسَّم الرعبُ فوقَ ملامحِه وهو يصرخُ :

- والله أنا مسلمُ أصومُ، وأصلي، وأزكي و ..

هتفَ " الجن" صارخاً في صرامةٍ، ونيرانُ مدفعه تنهمرُ في غزارةٍ على كلِّ شيء :

- ومَنْ يريد مِنكَ الصومَ والصلاةَ أيُّها الكافرُ ؟!

يسقطُ صاحبُ المحلِ صريعاً، وسطَ أثاثِ محلِه المُحطم، في نفس اللحظة التي يشيرُ فيها "الجن " لرفاقِه حيثُ توجدُ الخِزانة ..

في لحظاتٍ كانوا قد أفرغوا محتوى الخِزانة في جُعبتهم، وتراجعوا مُنسحبين، ورصاصُهم يغمرُ كلَّ شيءٍ حيثُ سيارتهم التي انطلقتْ بهم مسرعةً؛ لتغادرَ المكانَ الذي اكتظَّ بعدَ دقائقَ برجالِ الشرطةِ الذين غمروا المكانَ، ولكنهم لم يجدوا به غيرَ الدماءِ والخراب ..

فقط !

******

راحتْ "غرام" تتقلبُ فوقَ فراشِها، وقد جافاها النومُ، فرمتْ بعينيها على ساعةِ الحائطِ التي تعلنُ تجاوزها الثالثة صباحا بدقائقَ؛ انطلقتْ مِن حلقها تنهيدةٌ حارة، وهي تعتدلُ جالسة في فراشها، وأصابعُها الرقيقة تتخللُ شعرَها الأسود الناعم المُنسدل فوقَ جبينِها وكتفيها في توتر؛ حينَ تذكرتْ أحداثَ الساعاتِ الأخيرةِ لها في فيلا الفيوم، والتي ما زالتْ تتراقصُ أمامَ عينيها، هجوم الملثمين، وتحقيقات النيابةِ، والقبض عليهم، و" كريم" الذي اختفى ولم يعدْ للفيلا منذُ شجارِه الأخير معها، واعتدائه عليها بالضرب ..

انطلقتْ من حلقها تنهيدةٌ حارةٌ أخرى، وهي تتناولُ سيجارةً رفيعةً ذات نكهةٍ مُميزة أشعلتها، وراحتْ تنفِثُ دخانَها، وهي تفكرُ في المستقبلِ القريبِ، وماذا يحملُ لها ؟ وكيف ستكونُ حياتُها مع " كريم" بعدَ أن كشف سرَّها، وعَرِفَ أنَّها لم تحبه يوماً ..

راحتْ أصابعُها الرقيقة تتخللُ شعرَها الطويل الناعم مرةً أخرى في توترٍ مُضاعف، وأحسَّتْ بالدهشةِ من نفسها حينَ وجدتْ تفكيرَها - على الرغمِ منها - انحرفَ نحوه ..

نحو فارس ..

رددتْ اسمَه في أعماقِها، وكأنَّما تتعرفه للمرةِ الأولى :

- فاااااارس !

حقا اسمه فارس ..

وهو فارسٌ بحق ..

نعم ما فعله في هذه الليلة لا يفعله إلا فارس .

سحبتْ من سيجارتِها نفساً آخرَ، وهي تستطردُ في أعماقِها :

- ولكن ما سببُ تلك الراحةِ التي غمرتني، وأنا بينَ أحضانِه حينَ جذبني نحوَه، وأحاطني بذراعِه، وذراعُه الأخرى تُحطم أنفَ المُلثَّم الذي هاجمني، واستولى على سلاحِه قبلَ أن تعودَ أنوارُ الفيلا .

أغمضتْ عينيها، وأسندتْ رأسَها للخلف، وهي تتذكرُ تلك اللحظة بكلِّ تفاصيلها، ثم فتحتهما مرةً أخرى، وتساءلتْ في أعماقها :

- ولكن لماذا فعلَ ذلك ؟

لماذا خاطرَ بحياته من أجلي ؟

كان من الممكنِ أن يموتَ، وهو يدافعُ عنِّي .

ومرةً أخرى - وعلى الرغمِ منها - وجدتْ نفسها تُرددُ اسمَه ذا الأربعةِ أحرفٍ بينَ شفتيها في شرودٍ، ثم نهضتْ من فِراشِها، واتجهتْ صوبَ نافذةٍ كبيرةٍ تُطلُّ على الحديقة، وأزاحتْ السِتارَ ودخانُ سيجارتِها يندفعُ من بين شفتيها في قوةٍ، وعيناها تخترقان ما بينَ أشجارِ الحديقةِ لتصلَ إلى حجرةٍ صغيرة مُضاءة الأنوارِ مُجاورة لبوابةِ الفيلا ..

واتسعتْ عيناها في ذهولٍ متعجبةً من نفسها حينَ وجدتها - على الرغم منها أيضا - تُحاولُ اختراقَ الظلامِ في لهفةٍ لتتبينَ ملامحه، وهو واقفٌ بجسدِه القوي عارياً الصدرَ يُدخنُ سيجارتَه خلفَ زجاجِ نافذتهِ المُغلَقِ .

******

الجميعُ في المنزل مرةً أخرى، وقد التفُّوا حولَ المائدةِ التي حفلتْ – كالعادة – بكلِّ ما لذَّ

وطابَ من الأطعمة الشهية ..

يتابعهم "الجن"، وابتسامته الساخرة المحفورة على وجهه تتسعُ شيئا فشيئا حتى تحولتْ لضحكةٍ كبيرة، وهو يقولُ :

- مَنْ كان يتوقعُ لكم هذا يا رفاق .. إنكم تأكلون، وتشربون كالملوك .

هتفَ " كرشة "وهو يتطلع لقطعةٍ من اللحمِ في سعادة :

- الفضلُ لكَ يا "جن" .

تراجعَ " الجن" بظهره إلى الوراءِ قائلا بغموض :

- لا يا " كرشة " .. لا يا رفاقَ السعادة، الفضلُ لكم أنتم، الفضلُ لجهادِكم، ودفاعِكم عن الإسلام .

ردَّدَ "دبانة" في شرودٍ قائلا، وقد توقَّف عن الطعام :

- ولكن الثمنَ فادحٌ يا رفاق .. ليتنا نحققُ ما نريدُ دونَ قتلٍ، أو إراقةٍ للدماء و ..

قاطعه " الأعور" هاتفا في حنقٍ، وهو يلوّحُ بذراعِه :

- وعندما كنا نتمدَّدُ على الرصيف نعاني الجوع والبرد .. مَنْ كان يفكرُ في حياتنا، أو حتي في موتنا ؟!

هتفَ " كرشة " قائلا، وهو ينظر لقطعة لحم بيده في هُيَامٍ، كعاشق يتطلعُ لمحبوبته :

- كفي يا رفاقُ كفي .. دعونا نستمتعُ بلحظتنا تلك فقط .. دعونا نفقدُ الإحساسَ بالزمانِ والمكانِ، ولا نفكّرُ إلا في تلك المتعة .. المتعة فقط .

ردَّدَ " النص" ضاحكاً :

- ولكن ينقصُنا شيءٌ آخر يا "جن" حتي تتحققَ المتعةُ الكاملة .

التفتَ إليه " الجن" قائلا في تساؤلٍ حقيقي :

- أيُّ شيءٍ تقصدُ يا " نص" ؟

ألقى " النص" بقطعةٍ من اللحم في فمِه، وهو يقولُ بصوتٍ حالمِ :

- النساء يا رفاق .. النساء .. الجنس الناعم .. الرائحةُ العطرةُ في حياتنا .

صَفَّقَ الجن بيديه، وهو يضحكُ قائلا بصوتٍ عالٍ :

- نعم يا رفاق .. " النص" على حق، هذا ما ينقصكم ..الجنس الناعم .

وهنا .. وفي تلك اللحظة، ومن بابٍ جانبي خلفهم، تظهر فتاةٌ على مشارفِ العقدِ الثالثِ من عمرِها، ذات قوامٍ فتَّان، ووجه خمري جميل، وعيونٍ سوداءَ واسعة، وشعر ناعمٍ أسودَ بلون الليل ..

سال لعابُ الأربعةِ، وهم يتتبعون مفاتنَ جسدِها التي أعلنتْ التمرُّدَ والعصيانَ على بنطالها الضيق، في حين تقتربُ الفتاة مِنْ " الجن"، وهي تقولُ بدلال :

- تحت أمركَ يا "جن" .

تخلَّى الأربعةُ عن طعامِهم، وقد استيقظتِ الوحوشُ المفترسةُ بداخل كلٍّ منهم، وراحوا ينهضون في بطءٍ، وعيونُهم مُعلقةٌ بجسدِ الفتاةِ الذي سلبَهم عقولَهم..

يقفُ "الجن" حائلًا بينهم وبينَ الفتاة، وهو يهتفُ في غضبٍ :

- مهلا يا رفاق .. مهلا .. إنها " تهاني " زوجتي، أقصد صديقتي .. صديقتي وحدي .

زأرتْ الوحوشُ الضارية بداخل كلٍّ منهم في غضبٍ، وتطايرَ الشررُ من عيونهم، والجن يواصلُ هتافه الغاضب بلهجةٍ حاسمةٍ قائلا، وهو يلوّح بإصبعه في وجوههم :

- هل تسمعون .. إنها لي .. لي وحدي .

عادَ كلٌّ منهم إلى مقعده مرةً أخرى، وراحوا يرمقون الطعام أمامَهم، وقد فقدوا شهيتهم إليه، ورددوا جميعا في صوتٍ واحدٍ بخفوت :

- أمرُكَ .. أمرُكَ يا زعيم .

يحتوي " الجن" تهاني بين ذراعيه قائلا، وجسدُه الضخمُ يهتزُّ مع ضحكته :

- لا تخافي يا حبيبتي إنهم رفاقي، وقد تفهَّموا الموقف .

هزَّت " تهاني" رأسَها مُتفهمة، في حين نزعَ " الجن" شاله الأبيضَ من فوق كتفيه، وربطه حولَ وسطها قائلا لها، وهو يعاودُ ليتخذَ مكانَه بينَ رفاقِه :

- هيا يا حبيبتي .. أريدُكِ أن تحتفلي برفاقي، وتُريهم إحدى رقصاتِك الجميلة .

ابتسمتْ " تهاني" في دلالٍ ابتسامةً رقيقةً خلبتْ عقولَهم، وهى تشدُّ الشالَ الأبيضَ حولَ خصرِها لتبرزَ مفاتنها، وتراجعتْ خُطوتين للخلفِ حتى صارتْ أمامَهم جميعا، وأصابعُها تضغط زِرَ الكاسيت، وراحتْ تتمايلُ وتتمايل، وعيونُ الأربعة تتابعُ جسدَها الذي يتلوى أمامَهم في جنونٍ كبوصلةٍ فقدتْ مؤشرها !

******

في تلك المنطقةِ المُتطرفة بحلوان على كورنيش نهر النيل انفردَ شابٌ وفتاة جاوزتْ أعمارُهم العشرين بقليل، وقد انتحيا جانبا على الكورنيش ..

الشابُ يتطلعُ لعيني الفتاة في ولهٍ وعشقٍ واضحين، وهو يهتفُ بِهُيَام :

- أحبُّكِ .

تورَّدَ وجهُ الفتاة خجلا، ولم ترُدْ في حين اقتربَ منها الشابُ، واعتصرَ راحتيها بين كفيه في رفقٍ، بينما كانت عيناه غارقتين في بحرِ عينيها الزرقاوين، وهو يقول :

- " شهد"، لم تعدْ لحياتي معنى بدونكِ، خيالكِ لا يفارقني لحظة .. نعم يا حبيبتي، أنتِ معي في يقظتي ومنامي و ..

قاطعته الفتاة قائلة في خجلٍ، وهي تسحبُ كفيها من راحتيه :

- هانتْ يا حسام .. كلها شهرٌ واحدٌ وتنتهي أعمالُ النقاشة لتكون شقتنا جاهزة، وبعدها نتزوجُ، وأكونُ معكَ للأبد .

مدَّ الشابُ أصابعه، ومسحَ على خدِّها قائلا، ووجهه يقترب من وجهها :

- شهرٌ كثيرٌ يا حبيبتي .

سرى الخِدرُ في جسدِها لملمس أصابعِه على خدِّها، فأسبلتْ جفنيها، فلم يدرِ بنفسه إلا وشفتاه يلتهمان شفتيها في قُبلةٍ طويلة و ..

فجأةً ..

استيقظا من نشوتهما على صريرِ عجلاتِ سيارةٍ تتوقفُ أمامَهما مُثيرةً عاصفة من الغُبار، ويهبط منها " الجن" ورفاقة في ملابسِهم البيضاء، وذقونِهم الطويلة، ومدافعِهم التي تتأرجحُ بينَ أيديهم ..

بكلِّ الذعر والهلع تطلعَ الشاب والفتاة للرجالِ الخمسة في ذهولٍ، تضاعفَ مراتٍ ومرات مع صوت " الجن" الصارم، وهو يقولُ للشاب :

- هل هذه زوجتك ؟

حاولَ الشابُ أن يبحثَ عن صوته للحظاتٍ بلا جدوى، وقد شحبَ وجهُه، وهربتْ منه الدماءُ، هتف بعدها بصوتٍ متحشرج :

- مَنْ أنتم ؟!

برقتْ عينا " الجن" في غضبٍ، وهو يردُّ عليه قائلا :

- إننا جماعةُ الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر .

هتفتْ الفتاةُ في ذهولٍ :

- جماعة ماذا ؟

تجاهلها " الجن"، ثم التفتَ للشابِ صارخا في غضب :

- لم تجبْ عن سؤالي بعد .. هل هذه زوجتك ؟

ردّدَ الشابُ بصوتٍ واهن لا يدري كيف خرجَ من بين شفتيه :

- إنها خطيبتي ، وسوف نتزوجُ بعد شهرٍ و..

قاطعه "الجن" قائلا بصوتٍ عميق، ألقى الرعبَ في قلبيهما، وهو يرفعُ سلاحَه في وجهيهما :

- أنتَ كافر .

وفي اللحظة التالية كانت رصاصاتُ الرجالِ الخمسة تنهمرُ حولهما في غزارةٍ؛ لتغمرَ جسدَ الشابِ الذي يقعُ أرضا مُضرَّجًا في دمائه تحتَ قدمي الفتاة التي سقطتْ فوقَ خطيبها مغشيًا عليها .. وارتفعَ صريرُ عجلاتِ السيارةِ مرةً أخرى مُغادرةً المكانَ بحملها تاركة خلفَها الكثيرَ من الدماءِ ودمعة واحدة ..

نعم .. دمعةٌ واحدةٌ حزينةٌ كانت تلمعُ فوقَ وجنتي الفتاةِ التي سقطتْ على جثمانِ خطيبها، وقد فقدتْ وعيها !

******

راحتْ "منال" تواصلُ خُطاها داخلَ شارعِها الذي تقطنُ فيه بأقدامٍ متثاقلةٍ مجهدة، بعدَ يومٍ آخرَ من البحث عن عملٍ بلا فائدة، وعقلها شاردٌ في المستقبلِ الغامض، الذي ينتظرُها مع ابنها و ...

- أهلا بست الحسن .

فاقتْ من شرودِها، وقد صكَّتْ العبارةُ أذنيها، فالتفتتْ تتطلعُ لصاحبها في ذهولٍ، هتفتْ بعدها قائلة بامتعاضٍ :

- مَنْ ؟ ! كرشة !

عدلَ " كرشة " شالة فوقَ كتفيه قائلا، وعلى شفتية ابتسامةٌ سمجةٌ كشفتْ عن أسنانه القذرة :

- تقصدين الشيخ " كرشة " .

رمقته بنظرةٍ مُجهدة لا مبالية، وواصلتْ طريقَها فأسرع وراءَها، وجذبَها من ذراعها قائلا بغضبٍ :

- عندما يتحدثُ الشيخُ " كرشة " لا تنصرفي قبلَ أن يُتمَ حديثه .

جذبتْ ذراعَها من يده صارخةً :

- ابتعدْ عني .. ماذا تريدُ مني ؟

اقتربَ منها هامسًا، وقد لانَ صوتُه :

- أما زلتِ تبحثين عن عملٍ بلا جدوى ؟

رمقته مرةً أخرى بنظرتها اللامبالية، وواصلتْ طريقَها فاعترضَها هاتفا بحدةٍ :

- أنا أتحدثُ إليكِ .

صرختْ في وجهه بكلِّ ما تئن به جوارحها من آلام :

- ماذا تريدُ منِّي ؟ وما شأنُكَ أنتَ إن كنتُ أبحثُ عَنْ عملٍ أم لا ؟

ابتسمَ في برودٍ، وهو يتناولُ مسبحته لتعبثَ أصابعُه بحبَّاتها قائلا :

- أنا أريدكِ يا "منال" .

صرختْ مستنكرة :

- أنتَ ؟ .. تريدني ! .. كيف ؟

تطلعَ لعينيها الغاضبتين قائلاً بنفسِ البرود :

- أريدُ زواجَكِ على سُنة اللهِ ورسولِه، وحينَها لن تحتاجي لعمل، وسأتكفلُ بكِ وبابنكِ

" أيمن" وعلاجه و ...

قاطعته صارخةً بصوتٍ عالٍ، جذبَ إليهما بعضُ العيون التي راحتْ تتابعُ ما يحدثُ من بعيدٍ في صمتٍ :

- أنا أتزوجك أنتَ ؟ ! أنتَ يا متسول .. يا صعلوك يا ..

شيءٌ ما في نظراته الصارمة الغاضبةِ جعلَ الدماءَ تتجمَّدُ في عروقها، وتبتلعُ ما تبقى من عبارتِها ، وهو يقولُ بصوتٍ عميقٍ غاضب، وأصابعُه تقبضُ على ذراعها بقوة :

- نعم كنتُ صعلوكا متسولا، ولكن ها هى الدنيا قد ابتسمتْ لنا، وصار الزمانُ زماننا ثم ..

ثم هل تظنين أنّي أنتظرُ رأيَكِ ؟

أنا آمرُكِ .. نعم آمرُكِ؛ فأنتِ وأمثالكِ من النساءِ سبايا لنا .. هل تسمعين؟ سبايا .

مرةً أخرى انتزعتْ ذراعَها من يده بقوةٍ صارخةً في وجهه :

- أنتَ مجنون .. مجنون .

وتركته مندفعةً تواصلُ طريقَها في غضبٍ، والدموعُ في عينيها، في حين راحَ هو يتابعُ جسدَها الذي أفقدَه عقله، وأصابعُه تمرُّ فوقَ حبَّاتِ مسبحته في سرعة، وقد جحظتْ عيناه في جنون !

******

٧- لعبة الموت ..

داخل مقرّ جماعةِ الإخوان التفَّ الجميعُ حولَ مائدةِ الاجتماعات، وسرتْ بينهم همهماتٌ تدلُ على الغضبِ الذي يجمعُ بينهم جميعا ..

وفجأةً .. ساد الهدوءُ المكان، حينَ فُتحَ البابُ، ودلفَ منه الشيخ "مرتضى" بجلبابِه الأبيض وجسدِه الضخم ووجهه المكتنز ..

للحظاتٍ وقفَ الشيخُ "مرتضى" يتطلعُ إليهم بنظرتِه الفاحصةِ الثاقبة، وأصابعُه تعبثُ في تلقائية بمسبحةٍ في يده ..

وبخطواتٍ مُتمهلةٍ اتجه نحوَ مقعدِه الذي يتصدرُ مائدةَ الاجتماعات، وتنحنحَ بصوتِه الأجشّ، هتفَ بعدَها بصوتٍ عميقٍ هادئ :

- ما آخرُ التطورات ؟

هتفَ أحدُ الأعضاءِ في خفوتٍ قائلا :

- في الحقيقةِ يا مولانا .. الأمورُ تسيرُ من سيءٍ إلى أسوأ .

سادَ توترٌ يشوبُه غضبٌ ملامحَ الشيخ "مرتضى" عقبَ العبارة السابقة، وهو يرمقهم في صمتٍ، في حين هتفَ آخر قائلا :

- نعم يا مولانا .. الحُلم الذي عشنا من أجلِه طويلا صارَ الآنَ في مهبِ الرّيحِ .

تسارعتْ أصابعُ الشيخ "مرتضى" تعبثُ بالمسبحة، وراح يرمقهم للحظات أخرى في صمتٍ، ثم هتف بصوته العميق قائلا :

- لا تدعوا القلقَ يسيطرُ عليكم يا رفاق .. فالنصرُ حليفُنا بإذنِ الله .

ردَّ آخر عليه في حذرٍ قائلا :

- كيف يا مولانا ؟ كيف وقد فقدنا الكثيرَ من تعاطفِ عامةِ الشعبِ معنا بعدَ الأحداث الأخيرة ؟

حكَّ الشيخُ "مرتضى" ذقنه بسبابته في توترٍ، وهو يرددُ وكأنَّه يُحَدِّثُ نفسَه في حنقٍ :

- نعم .. هذا هو مربطُ الفرس .. ما يحدثُ في الفترةِ الأخيرة و ..

قاطعه أحدُهم قائلا دونَ وعي منه :

- آه .. لو نعلم مَنْ هؤلاء و ..

ابتلعَ الرجلُ باقي عبارته حينَ أدركَ الجُرمَ الذي ارتكبه بمقاطعته للشيخ "مرتضى"، فانكمشَ على نفسه في مقعدِه، واستطردَ الشيخُ قائلا له في هدوء، وكأنَّ شيئاً لم يحدث :

- وهل هذا أمرٌ يحتاجُ إلى فطنةٍ ؟! إنَّهم مجموعةٌ من اللصوصِ والرِّعاع، ارتدوا ملابسنا، وعاثوا في الأرضِ فسادًا ونهبًا باسمنا .

- المهمُ أنْ نعرف مَنْ يقفُ وراءَهم يا مولانا ؟

لمعتْ عينا الشيخ "مرتضى" ببريقِ الغضب، وهو يقولُ وأصابعُه تمرُّ على المسبحة في سرعةٍ :

- الذين يقفون وراءَهم يا رفاقُ هم أصحابُ المصلحةِ الوحيدةِ من وراء سقوطنا .

- هل تقصد الـ..

قاطعه الشيخ "مرتضى" قائلا في غضبٍ :

- نعم هم رفاق .. هم أصحابُ المصلحةِ الوحيدةِ لما يحدثُ؛ لنسقطَ نحن، ويبزغُ نجمُهم مِنْ جديد .

وصمتَ الشيخُ "مرتضى" قليلا، وراحَ يتطلع إليهم في شرودٍ، وكأنه يُفكرُ في أمرٍ ما، ثم استطرد قائلا، وقد اكتسبَ صوتُه قوةً وحدة :

- ولكننا لن نتركهم يا رفاق، نعم .. لن نقفَ مكتوفي الأيدي، وسنردُّ لهم الصاعَ صاعين .

قال الشيخ " مرتضى" ذلك، ثم تناولَ هاتفه، وعبثَ بأزرارِه للحظاتٍ، هتفَ بعدَها قائلا عبر الهاتف، ونظرتُه الحادةُ تطالبُ بعضَهم بالصمت :

- نعم .. ما الأخبار ؟ .. عظيم .. في انتظاركم .

أغلقَ هاتفه، والتفتَ إليهم قائلا، وهو يستعيدُ مسبحتَه مرةً أخرى، وقد لمعتْ عيناه ببريقٍ جنوني عجيب :

- إنها لعبة حياةٍ أو موتٍ يا رفاق، ونحن لن نتخلىَ عن حُلمنا الذي عشنا من أجلِه لأكثرَ من ثمانين عامًا، سنجعلهم يتجرَّعون من نفسِ الكأس، نعم .. سنردُّ عليهم بطريقتهم .

هتفَ أحدُهم قائلا بصوتٍ خافت :

- ماذا تقصدُ يا مولانا ؟

هتف الشيخُ "مرتضى" والابتسامة تُزيّنُ وجهَه قائلا :

- منذُ قليلٍ نجحَ أخوةٌ لنا في عبورِ الحدود بالشحنة .

- أيُّة شحنةٍ يا مولانا ؟

تراجعَ الشيخ "مرتضى" بظهره إلى الوراء هاتفا، وابتسامتُة قد اتسعتْ حتى شملتْ وجههَ المكتنز كله :

- ثلاثُ عرباتٍ كبيرة الحجم مُكتظةٌ عن آخرها بملابس الجيشِ والشرطة.

وصمتَ للحظةٍ ابتلعَ فيها ريقه، واستطردَ قائلا :

- ليس هذا فحسبُ يا رفاق، إن العرباتِ مُكتظة أيضا بنفس نوعيات الأسلحةِ التي يستخدمونها في الجيش والشرطة .

- هل تقصد يا مولانا ...

- نعم .. نعم يا رفاق، سيرتدي أخوةٌ لنا ملابسَهم، ويحملون أسلحتَهم، ويعيثون في الأرضِ فسادًا، سينشرون الرعبَّ والفزعَ في كلِّ مكان؛ حتى يعرفَ كلُّ الشعبِ مَنْ هو عدوه الحقيقي، ومَنْ الذي لا يريدُ له الأمنَ والأمان .

وصمتَ مرة أخرى، واستطردَ قائلا، وقد جحظتْ عيناه بشكلٍ جنوني عجيب :

- وحينها سيعرفُ الشعبُ أيضاً أننا ملجأه .. ملجأه الوحيد .

وتضاعفَ جحوظُ عينيه مراتٍ ومرات !

******

داخل مستشفي المنيرةِ كان الحاجُ " فرج الجمل" قد افترشَ الأرض، وراحتْ دموعُه تنهمرُ في غزارة، في تلك الطرقةِ الطويلة التي تتواجدُ في إحدى حُجراتها ابنته مع الطبيب، ومِن حوله كان المعلمُ توفيق وأحمد راغب يحاولان تهدئته بلا فائدة، والرجلُ يُردد من بين دموعِه، وهو في حالةٍ أقرب للانهيار :

- لا إله إلا الله، وحسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل .

ربَّتَ المعلمُ "توفيق"على كتفه، قائلا وهو يحاولُ جاهدًا أن يمنعَ دموعَه :

- لله الأمرُ من قبلُ ومن بعد .

في حين هتفَ "راغب" قائلاً في حزنٍ شديد :

- اهدأ يا حاج " فرج" .. اهدأ بإذن الله خير .

خرجَ الطبيبُ في تلك اللحظةِ من حجرةِ الكشف، وهتفَ قائلا بعدَ أنْ نظرَ للحاج " فرج" في إشفاقٍ :

- صدمةٌ عصبيةٌ شديدة أفقدتَها النطق، وعلاجُها سيحتاجُ بعضَ الوقت، ولا بدَّ من عرضِها على طبيبٍ نفسي .

ردَّدَ الحاج " فرج الجمل" في ذهولٍ، من بين دموعِه :

- ماذا ؟ طبيب نفسي !

- ما تعرضتْ له ابنتكَ " شهد" ليس بالأمر البسيطِ، والطبيبُ النفسي هو الوحيدُ الآنَ القادرُ على علاجِها، وحينئذٍ ستنفكُ عقدةُ لسانِها وتتحدث .

ردَّدَ المعلم "توفيق" قائلا، بألمٍ لا يمكن وصفُه :

- وبم تنصحنا يا دكتور ؟

- مستشفى صديقي الدكتور " فوزي راشد" واحدٌ من أعظم أساتذةِ الطب النفسي، كما أنَّ مصحتَه مزودةٌ بأفضلِ الأجهزة، ولكن المصحة تحتاجُ نفقاتٍ كثيرة و ..

تحاملَ الحاج " فرج الجمل" على نفسه، ونهضَ واقفا بمساعدة " أحمد راغب"، وهتفَ من بين دموعِه التي ما زالتْ تنهمرُ :

- المالُ لا يهمُّ يا دكتور .. " شهد" ابنتي الوحيدة، والمهمُ أن تعودَ كما كانتْ.

ربَّتَ الطبيبُ على كتفه، وقال بأسى :

- بإذن الله يا حاج .. سأتصلُ الآنَ بالمصحة؛ ليرسلوا عربةً مُجهزة .

تركهم الطبيب، في حين ترك الحاج " فرج" جسدَه ليهويَ أرضًا مرةً أخرى بجوارِ الحائطِ، وهو يردّدُ :

- حسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل .. حسبُنا اللهُ ونعم الوكيل ..

في تلك اللحظة يُقبل عليهم " فارس" هاتفا بوجهٍ شاحبٍ، وهو يتطلعُ للحاج " فرج الجمل" الذي استسلمَ لنوبةٍ شديدةٍ من البكاء :

- آسف .. تأخرتُ بسبب العمل و ..

قاطعه " أحمد راغب" ، وهو يقولُ بألم :

- لا عليكَ يا " فارس"، سيتمُّ نقلُ " شهد" الآنَ لمصحةٍ نفسية؛ لأنَّها مُصابة بصدمةٍ عصبيةٍ أفقدتها النطقُ .

ردَّدَ الحاج " فرج" نفسَ العبارةِ من بين شفتيه الجافتين :

- حسبُنا اللهُ ونعم الوكيل ..

بخطى جامدة وعينين ممتلئتين بالدموع الحبيسةِ التي تُوشكُ على الانفجار، تقدَّم " فارس" من الحاج " فرج"، وربَّتَ عليه مساعدًا إياه على الوقوف، وزأرَ قائلا بألمٍ لا يمكنُ وصفُه :

- أرجوكَ تماسكْ يا عم الحاج، ولا تقلقْ، " شهد" ستُشفى بإذن اللهِ، وحقُها لن يضيعَ ..

وهذا وعد .

وبرقتْ عيناه في غضبٍ رهيب .

******

ما أن خطتْ " منال" إلى داخل شقتها، وبيدها ابنها " أيمن " الذي أخذته من عند جارتها حتى أغلقتْ البابَ خلفَها جيدا بالمفتاح، وألقتْ بجسدِها المُنهك فوقَ أريكةٍ تتوسطُ الصالةِ، وراحتْ تضمُّ ابنها إلى صدرها، وقد امتلأتْ عيناها بدموع حبيسةٍ، وكم هائلٍ من الحزن والبؤس لا يمكنُ وصفُه ..

الطفلُ الصغيرُ يتطلعُ إلى عينى أمه الدامعة، ويمدُّ كفه الصغيرة؛ ليمسحَ على خدِّها، وكأنَّه يُطمئنها بأنَّه بجوارها، تتناولُ "منال" كفَ ابنها الصغيرة وتُقبلها، وتضمه إلى صدرها أكثرَ وأكثرَ، وراحتْ أعماقُها تصرخُ في ضراوة :

- يا رب .. اللهمَّ إنّي ألجأ إليكَ، وأشكو ضعفي وقلة حيلتي، الكلُّ طامعٌ فيّ، ولا أدري ماذا أفعلُ معهم؟ جسدي صار مطمعًا للجميع حتى للصعاليك والمتسولين .. ألا يكفي ما أنا فيه ؟!

مرةً أخرى تحسَّستْ كفَ ابنها " أيمن"، وقبضتْ عليها في رفقٍ، وراحتْ تتطلعُ إلى عينيه الحانيتين الذابلتين، وهي تخاطبه قائلةً :

- لا تقلق يا حبيبي .. غدًا أجدُ عملا، وأجري لكَ العملية، وستُشفى بإذنِ اللهِ و ..

ابتلعتْ بقية عبارتها حين التقطتْ أذناها تلك الطرقاتِ القوية على باب شقتِها ..

للحظةٍ راحتْ تتطلعُ للبابِ في ذعرٍ، ولما تكررتْ الطرقاتُ، أراحتْ جسدَ ابنها على الأريكةِ، ونهضتْ في تثاقلٍ لترى مَنْ الطارقِ، وهي تهتفُ في توترٍ :

- مَنْ ؟ مَنْ الطارق ؟

التقطتْ أذناها صوتًا أجشًّا كريهًا ومألوفًا في آنٍ واحدٍ يقولُ لها :

- أنا يا ست "منال" .. أنا المعلم "رضوان" .

انطلقتْ من أعماقها تنهيدةٌ حارّة يائسة، وهي تفتحُ له البابَ ليطالعها بوجهه الحليق، وجسدِه البدين الذي حشرَه في حُلة فاخرةٍ بدتْ غيرَ مُتناسقة عليه ..

هتفتْ قائلةً، ولم تفتحْ له سوى جزءٍ يسيرٍ من الباب :

- أهلا يا معلم .. خيرًا .

التهمَ بعينيه الذئبيتين ما ظهرَ من جسدِها، وقال بصوتِه الأجشِّ :

- خيرًا بإذن اللهِ يا ست "منال" .. وهل يأتي مِنْ ورائي غيرُ الخير ؟

هتفتْ في مرارةٍ قائلة :

- عذرًا يا معلم؛ لن أستطيعَ دعوتكَ للدخول؛ فأنا وحدي كما تعلم و ..

قاطعها قائلا بصوته الأجشِّ، وعيناه تهيمان عشقا في وجهها :

- لا عليكِ يا ست "منال" .. جئتُ من أجل الإيجارِ المتأخر، سبعةُ أشهرٍ كاملة وأنا ..

قاطعته قائلة، وقد تضاعفتْ المرارةُ في صوتِها :

- أعلم أنني لم أدفعْ الإيجارَ منذُ سبعةِ أشهرٍ يا معلم، ولكنِّي أبحثُ الآنَ عن عملٍ، وقريبًا أسددُ لكَ الإيجارَ المتأخر .

حملتْ شفتاه ابتسامةً لزجةً كشفتْ عن أسنانه الصفراءِ القذرةِ، وهو يقولُ في برودٍ :

- شهورٌ الآنَ مضتْ، وأنتِ تبحثين عن هذا العملِ بلا فائدة وحتى .. وحتى لو عثرتِ عليه فهل سيمكِّنُكِ هذا العملُ من علاج " أيمن" أو حتى دفع الإيجارِ المُتأخر ؟

تطلعتْ إليه في صمتٍ عاجزٍ، وهي تُخفي جسدَها أكثرَ وأكثر خلفَ بابِ شقتها؛ هربًا مِن عينيه اللتين تقتحمانه في وقاحةٍ، فازدادتْ ابتسامتُه القميئةُ اتساعًا، وهو يقول :

- لدىَّ عرضٌ يحلُ كلَّ مشاكلِكِ .

رددتْ في ذهولٍ يشوبه التوترُ :

- عرض !

اقتربَ منها برائحتِه الكريهة قائلا، وهو يبلعُ ريقه :

- سأتزوجكَ على سُنَّةِ اللهِ ورسولهِ، ولكن زواجَنا سيكون سرًا؛ فلديَّ زوجةٌ وأولادٌ كِبار، وسأتكفلُ بكلِّ نفقاتِ علاج " أيمن"، وسأُجري له العمليةَ بل .. بل وسأكتبُ هذه الشقة باسمك .. ما رأيُكِ ؟

غُصَّةٌ من الألم والمرارة اعتصرتْ حلقها، وهي تسمعُ عبارتَه الأخيرة، فهتفتْ وقد امتلأتْ عيناها بالدموع :

- ولكن للأسف يا معلم أنا لا أفكرُ في الزواجِ، وقريبًا بإذن الله أجدُ عملا، وأسددُ لكَ إيجارَك المُتأخر .

اقتربَ منها بوجهه أكثرَ، وقال هامسًا بصوتٍ حاول جاهدًا أن يجعله رقيقا بلا فائدة :

- لا تتعجلي في الرفض .. خُذي وقتكِ وفكّري جيدا، وستجدينني دائمًا رهنَ إشارتكِ .

حاولتْ باستماتة أن تكتمَ دموعَها، وهي تقول له بمرارةٍ مضاعفة :

- مع السلامة يا معلم .

التهمَ عينيها مرة أخرى، وأرسلَ لها قُبلةً على الهواء، قبل أن يعطيها ظهره، فأغلقتْ بابَ شقتِها في عنفٍ، وعلى وجهها تجسَّدَ كلُّ بؤسِ ومرارةِ الدنيا، وهي تتجه صوبَ ابنها الذي يتطلعُ إليها في براءةٍ، فألقت بجسدِها إلى جواره فوقَ الأريكة، وأخذته بينَ أحضانِها وكأنَّها تحتمي به .. ولكنها – وعلى الرغم منها - لم تستطعْ أن تحبسَ دموعَها أكثرَ من ذلك، فسالتْ فوقَ خديها في غزارةٍ ..

وهنا .. وفي تلك اللحظةِ تجمَّعتْ أمامَ عينيها الدامعتين صورةٌ مشوشة لسحابة ..

سحابةٌ سوداء !

******

قفز " صنهاوي" بجسدِه الطويل وقامتِه الفارهة خارجَ سيارة الأجرة، التي لم تكنْ قد توقفتْ بعد، وانطلقَ يَجري على الأرض للحظاتٍ؛ ليحافظ على توازنِه، ثم اتجه بعدَها في خطواتٍ واسعةٍ مُتوازنة تجاه المقهى، وقد وضعَ يديه داخلَ جيبِ بنطاله، وما أنْ عبرَ بابَ المِقهي وقتَ الظهيرة، حتى اتسمتْ خطواتُه بالحذر، وعيناه تطوفان في وجوه العددِ القليلِ المُتواجدِ من الزبائن في هذا التوقيت؛ باحثا عن المعلم "عرفة"، ولما لم يجده تنهَّدَ في راحة، وهو يشقُّ طريقَه لركنِه المُعتاد، وألقى بجسدِه فوقَ المقعد مشيراً لعاملِ البوفية إشارةً معروفةً بسبابته وإبهامه دونَ أن يتفوَّه بحرف، وفي تلك اللحظة مدَّ أصابعَه داخلَ جوربه، وأخرج منه شريطا انتزعَ إحدى حَبَّاتِه، وألقاها داخلَ فمِه في اللحظةِ التي أقبلَ فيها " زيزو" ، ووضع الشايَ أمامَه، تطلعَ إليه " صنهاوي" بنظرةٍ خاويةٍ وكأنّه لا يراه، وهو يتناولُ كوبَ الشاي ويرفعُه لفمه، ويأخذ منه رشفة أسندَ بعدَها ظهرَه إلى مقعدِه، ورمى رأسَه إلي الوراء، وهو يضعُ إحدى ساقيه فوقَ الأخرى و ..

- أبحثُ عنكَ منذُ الصباح يا " صنهاوي" .

بجفونٍ شبه مُتثاقلة التفتَ " صنهاوي" لمصدر الصوتِ ليجدَ أمامَه "سيد" الكهربائي بجسدِه القصير، ووجه الشاحب، وعينيه الزائغتين اللتين لا تستقران في مكان ..

تطلعَ إليه " صنهاوي" بنظراتِه الخاويةِ، ومدَّ يدَه ليرفعَ كوبَه ويرتشفَ منه رشفةً أخرى، هتفَ بعدَها :

- خيرًا يا "سيد" .

ألقى "سيد" جسدَه على مقعدٍ مُجاورٍ له، وهو يهمسُ قائلا في أذنه :

- أحضرتُ لك المبلغَ الذي طلبته .. أين الأمانة ؟

في سرعة دبَّ النشاط في جسدِ "صنهاوي"، فاعتدلَ وهو يتناولُ منه مبلغا من المال ألقاه في جيبه سريعًا، ثم انحنى ليُخرجَ من جوربه لفَّة صغيرةً من القماش، انتزع منها شريطًا دسَّه في يد "سيد" الكهربائي الذي راحَ يتحسسه بأصابعِه في لهفةٍ وسعادة، وقد زالَ شحوبُه، وانطلقَ مُغادرًا المِقهى، وهو يدندنُ بلحنٍ شعبي هابط ..

راحَ "صنهاوي" يتابعه، وهو يغادرُ المِقهى، وعلى شفتيه ارتسمتْ ابتسامةٌ باهتة، وتناول إحدى سجائرِه راحَ يُشعلها، وينفِثُ دخانَها في استمتاعٍ رافعًا سبابته وإبهامه مرة أخرى لعامل المقهي الذي هتفَ به قائلا :

- قهوتك المظبوط جاهزة .

نهضَ "صنهاوي" من مكانه، واتجه للبوفيه، وتناولَ كوبَ القهوة، وأخذَ منه رشفتين على عجلٍ، واستدارَ مُغادرًا المِقهى، وقد وضعَ يديه في جيبِ بنطالِه كعادته ..

وما أن غادرَ " صنهاوي" المِقهى بخطواتٍ حتى فوجئ به أمامه ..

النص ..

" النص" في ثوبِه الجديدِ، ملابسُه البيضاءُ ولحيتُه الطويلة ..

تطلعَ إليه "صنهاوي" للحظةٍ، ثم انحرفَ بجسدِه مُبتعدًا عن طريقِه، ولكنَّه فُوجئ بالنص يهتفُ به في لهجةٍ جامدة :

- إلى أين يا "صنهاوي" ؟

توقفَ " صنهاوي" على بُعد خُطوتين منه، واستدارَ إليه قائلا في تحفزٍ :

- ماذا تريدُ يا " نص" ؟

لمعتْ عينا " النص" بغضبٍ مُخيفٍ سَقط معه قلبُ " صنهاوي" بين قدميه، وهو يهتفُ قائلا في جمودٍ :

- حذاري أن تتفوهَ بهذا الاسم مرة أخرى .

ابتلعَ " صنهاوي" ريقه بصعوبة، وهتفَ بحروفٍ خرجتْ على الرغم منه مُتعثرةً :

- وبِمَ أناديكَ ؟

عدلَ " النص" شاله الأبيضَ فوقَ كتفِه، قائلا بصوتٍ تعمَّدَ أن يكونَ عاليًا ليسمعه كلُّ روادِ المِقهى :

- اسمي هشام .. الأخ " هشام " .

حاولَ "صنهاوى" باستماتةٍ أن يمنعَ ضحكةً أرادتْ أن تخرجَ منه، وهو يقولُ للنص بصوتٍ تشوبُه رائحةُ السخرية :

- وماذا تريدُ يا أخ " هشام " ؟!

اقتربَ منه " النص"، وهتفَ قائلا بصوتٍ هامس في تودٍ :

- وماذا أريدُ منكَ يا "صنهاوي" ؟ وهل تملكُ شيئا آخر ؟ ! إنني في حاجةٍ لبعضٍ من حباتكَ اللعينة .

انحنى " صنهاوي" بقامته الفارهة حتى اقتربَ برقبتِه من " النص"، وهمسَ في أذنِه قائلا، وهو يُقلدُ صوتَه :

- وهل معكَ ثمنُها ؟

انطلقتْ من بين شفتي " النص" ضحكةٌ مُجلجلةٌ اهتزَّ معها جسدُه قائلا، وهو يتناولُ مِسبحته، وقد راحتْ أصابعُه تعبثُ بحبَّاتها :

- هل أصابكَ الجنونُ يا "صنهاوي" ؟! نحن لا ندفعُ .

اعتدلَ " صنهاوي" قائلا بلهجةٍ ساخرة :

- أنتم لا تدفعون .. وأنا لا أملكُ .

اختفتْ ابتسامة " النص"، ولمعَ في عينيه بريقٌ مخيفٌ، وقالَ وهو يجذبُ " صنهاوي" من ملابسِه :

- وهل تظنني أُخيِّرُكَ أيُّها الحيوانُ ؟ أنا آمرُكَ .

انتزعَ "صنهاوي" ملابسَه من بين يديه، وصرخَ في وجهِهِ بصوتٍ عالٍ :

- أبعد يدكَ عنّي يا " نص" وإلا ..

قاطعه " النص" صارخًا في وجهِه بصوتٍ أجشّ، وقد تجمَّع حولهما بعضٌ من روادِ المِقهي، وأصحابُ المحلاتِ بالشارع :

- هل واتتكَ الجُرأة لتدفعني وتعصي أوامري ؟!

وصمتَ لحظة تضاعفَ فيها بريقُ الغضبِ في عينيه، واستطردَ بعدَها قائلا بصوتٍ عالٍ، وهو يعدلُ شاله فوقَ كتفه، وأصابعه تمرُّ على حبَّاتِ المِسبحة في سرعة :

- أنتَ كافرٌ .. ورزقكَ من حرام .. لأنَّ حبوبَكَ المُخدرة تُذهبُ بعقولِ الناس.. فليشهدْ الجميعُ .. هذا الرجلُ كافرٌ، وسنقيمُ فيه حدَّ اللهِ .

شعرَ " صنهاوي" بأنَّ قدميه لم تعد قادرتين على حمله، وشحبَ وجههُ حين رأي " النص" ينتزعُ سلاحَه من بين طياتِ ملابسه، ويصوِّبه نحوَه و..

فجأةً ..

وجدَ " النص" قبضةً قويةً تُحيط بعنقِه، وسيفًا حادًا يعكسُ أشعة الشمسِ فوقَ رقبته ..

حاولَ " النص" أن يستديرَ برقبته في صعوبةٍ ليرى مهاجمه ..

واعتراه الذهول ..

لقد كان "عرفة " ..

"عرفة الضبع " الذي كان خارجًا من بيته المُواجه للمِقهى، والتقطتْ أذناه كلَّ شيء ..

فتسللَ عائدًا لحجرته في نشاطٍ يُذكره بالأيام الخوالي وعادَ بسيفه ..

صرخَ " النص" في قهرٍ، وهو يتطلعُ لسلاحِه - الذي وقعَ منه أرضًا - في يد المعلم " توفيق " :

- أهو أنتَ أيها الأعمى .

لمسَ "عرفة" بسنِ سيفِه الحادِ رقبةَ " النص"، وقال بصوتٍ جمَّدَ الدماءَ في عروقه، وسطَ نظراتِ المُحيطين الذاهلة، وقد قبضَ على قفاه بيدٍ، وعلى سيفه باليد الأخرى، فبدا منظرُ " النص" مُضحكًا أمامَ الجميع :

- اذهبْ با ابن العالمة مِنْ هنا ولا تعدْ ثانيةً؛ فهذا الحيُّ للرجالِ .

ثم دفعه فوقعَ أرضًا تحتَ أقدامِ المحيطين، ونهضَ مُسرعًا يتطلعُ إليهم، وراحَ يصرخُ في غضبٍ قبلَ أن يعدوَ مبتعدًا :

- ستدفعون الثمن .. جميعكم ستدفعون الثمن .

انطلقتْ ضحكاتُهم تُشيعه، وهو يجري في ذعرٍ ليتعثرَ ثم ينهض مبتعدًا، في حين التفتَ الحضورُ لعرفة الضبع، وحملوه فوقَ أعناقِهم، وراحوا يهتفون باسمه، وهو يرقصُ بسيفه في مهارةٍ يُحسدُ عليها ..

وبعدَ لحظاتٍ أشارَ لهم فتوقفوا عن الهُتافِ، وصرخَ مُناديًا بعد أن أنزلوه أرضا :

- "صنهاوي" يا ابني .. خُذ بيدي للمِقهى .

اقتربَ منه "صنهاوي"، وأخذ بيدِه للمِقهى، وهو يُربّتُ على كتفه شاكرًا إياه لما فعله من أجلِه، وأجلسَه فوقَ أحدِ المقاعد، وقبلَ أن يتركه مبتعدًا قبضَ"عرفة "على قفاه هاتفًا :

- إلى أين يا "صنهاوي" ؟! أين حبَّاتك اللعينة ؟

تطلعَ إليه "صنهاوي" في ذهولٍ، وهو يكادُ يبكي، وافترشَ الأرضَ تحتَ قدميه، ومدَّ يدَه في جوربِه، وتناولَ شريطًا ناوله إياه، وهو يقولُ :

- تحت أمركَ يا معلم "عرفة " .

وضجَّ الجميعُ بالضحك .

******

٨- كريم شهدي ..

طرقاتٌ قوية على باب حجرة " فارس" - التي أجبرته ظروفُ الساعات الأخيرةِ التي شهدتها فيلا الفيوم في الليلة الماضية من تحقيقات الشرطةِ والنيابة مع الملثمين الذين هاجموا الفيلا وتمَّ القبضُ عليهم أن يقضيَ بها ليلته - أيقظته من نومه فزعًا، فقطبَ ما بين حاجبيه، وهو يفتحُ عينيه، ويتطلعُ متثائبا لساعةِ هاتفه، وارتفعَ حاجباه في دهشةٍ؛ فلم تكنْ الساعة قد تجاوزتْ السادسة صباحا بعد ..

راحَ يتثائبُ مرةً أخرى، وهو ينهضُ من فِراشه في تكاسلٍ بصدرِه العاري؛ ليفتحَ البابَ و ..

واتسعتْ عيناه في ذهولٍ حينَ فتحَ البابَ ..

لقد كانت هي ..

غرام ..

تراجعَ مُسرعًا ليخطفَ قميصه، ويرتديه في عجلٍ، ويعودُ إليها هاتفا :

- مدام "غرام" .. ماذا حدثَ و ..

على الرغمِ منها وجدتْ عينيها تتعلقان بجسدِه القوي، والشعر الكثيف الذي يملأ صدرَه العريضَ الذي لم تُغلق أزرارُ قميصِه بعد، وهتفتْ في توتر :

- آسفة يا " فارس" .. ولكن " كريم" لم يعدْ بعد ، وهاتفه مغلقٌ طوالَ الليل، حتى فيلا القاهرة لمْ يقضِ ليلته فيها، لا بدَّ أنْ نسافرَ الآنَ .

قاطعها قائلا ، وقد انتهى من غلقِ أزرارِ قميصه :

- خمسُ دقائق فقط وأكونُ جاهزًا .

رفعتْ نظارتها فوقَ جبهتِها، وهي تقولُ:

- سأنتظرُكَ في السيارة .

وقبلَ أن تمرَّ الدقائقُ الخمس كان يتخذُ مكانَه خلفَ مقودِ السيارةِ التي انطلقتْ مُغادرةً فيلا الفيوم .. هتفَ بها، والسيارة تتخذُ طريقَها السريع المُؤدي للقاهرة :

- أهذه أول مرة يبيتُ خارجَ المنزل ؟

تطلعتْ إليه في توترٍ، ومدَّتْ يدَها داخلَ حقيبتِها، وسحبتْ إحدى سجائرها الرفيعة، وأشعلتها ونفثتْ دخانَها في توترٍ ولم ترد عليه، لم يكرر " فارس" سؤاله مرة أخرى، وراحتْ عيناه تتابعان الطريقَ، والسيارةُ تنهبُ الأرضَ نهبًا، وقد خلا الطريقُ من الزحامِ في هذا الوقت من الصباح .. ألقتْ "غرام" سيجارتَها، وتناولتْ أخرى وبدا واضحًا من ملامحِ وجهها أنَّها تُعاني صراعًا داخليا رهيبًا .. هتف " فارس" في خفوتٍ :

- مدام "غرام" .. أرجوكِ حافظي على صحتكِ،هذه السيجارةُ الرابعة في ظرف ساعةٍ واحدة .

لم ترد عليه مرة أخرى، فظنَّ أنها لم تسمعه، فتعلقتْ عيناه مع الطريق في صمتٍ إلى أن سمعها تقولُ :

- أشكرُكَ يا " فارس" .

رمقها بنظرةٍ سريعة، وانفطرَ قلبُه للألم البادي على وجهها.

في حين استطردتْ هي قائلة في شرودٍ :

- لقد فعلتَ من أجلي الكثير، خاطرتَ بحياتكَ وأنقذتني من اللصوص، وبالأمس أسعفتني وحملتني لفراشي، وكنتَ ستستدعي لي الطبيب .

هتفَ قائلا في ألمٍ، وقلبُه يتمزَّقُ من أجلها حينَ لمحَ دمعةً وحيدةً خدعتها، ولمعتْ على خدِّها كحبةٍ من اللؤلؤ :

- مدام "غرام" .. لا تهوّلي الأمرَ، أيُّ إنسانٍ مكاني كان سيفعلُ ما فعلته .

وصمتَ قليلا، ثم استطردَ بصوتٍ بدا أكثرَ خفوتًا :

- ولكن .. هل لي أن أعرفَ السببَ ؟

أزالتْ دمعتها الوحيدة، وهي ترددُ :

- السبب !

ارتفع صوتُ " فارس" قليلا، وهو يقول :

- نعم .. سبب غضب " كريم" بك، وثورته الشديدة بالأمس .

انطلقتْ من أعماقها تنهيدة حارة، وهي تسحبُ سيجارة أخرى، راحتْ تنفِّثُ دخانَها في توتر، وقد أسندتْ رأسَها للخلف، وأغمضتْ عينيها، ولم تردْ عليه مرة أخرى ..

ظلتْ على حالها تلك فترةً قاربتْ الساعة، ولولا الدخانُ الذي يندفعُ من بين شفتيها مع كلِّ سيجارةٍ جديدة تُشعلها لظنَّ " فارس" أنَّها خلدتْ إلى النوم..

رمقها " فارس" بنظرة أخرى سريعة، والسيارة تُبطئ في سيرِها بعضَ الشيء مع دخولهم أجواء القاهرة، ومرة أخرى انفطرَ قلبُه من أجلِها حينَ لمحَ دمعةً ثانيةً تلمعُ على خدِّها، ودخانُ سيجارتها ينطلقُ من بين شفتيها في ثورة و..

- مدام "غرام " .. سنذهبُ إلى الفيلا أم إلى الشركة ؟

فتحتْ عينيها، وراحتْ تزيل بأصابعِها الرقيقةِ آثارَ دمعتِها الثانية، وهى تُعيدُ نظارتَها فوقَ عينيها، وهتفتْ بصوتٍ خافتٍ :

- الشركة يا " فارس " .

.. وعند مبنى الشركة توقفَ " فارس" بالسيارة في مكانِها، ونزلَ مسرعًا ليفتحَ البابَ لها، ولكنَّها هتفتْ به قائلة :

- سأنتظرُكَ هنا يا " فارس" .. اذهبْ واسألْ داخلَ الشركة .

تركها " فارس" واندفعَ يعبرُ مدخلَ الشركة، ولم تمر الدقائقُ الخمسُ حتى كان أمامَها مرةً أخرى، وهتفَ بها بعد أنْ اتخذ مكانَه خلفَ عجلة القيادة:

- لم يره أحدُهم منذُ ظهرِ أمس، ولكن مديرَ أمنِ الشركةِ يقولُ أنه جاءَ وحدَه ليلا في التاسعة مساءً، وخرجَ ومعه بعضُ الملفات، وهذا ما يؤكده أيضا مديرُ مكتبِه .

رددتْ بذهولٍ وكأنَّها تُحدِّثُ نفسَها :

- عاد ليلا، وأخذ ملفاتٍ، وأغلقَ هاتفه، ولم يعد لبيته .. ما معنى كل هذا؟

أشعلَ " فارس" سيجارته في شرودٍ، وهو يقول :

- في الحقيقة مدام "غرام " أنا لا أشعرُ بالراحة .

تطلعتْ إليه في نظرةٍ مُتسائلةٍ، فاستطردَ مِنْ بين دخانِ سجارته قائلا :

- الجميعُ يؤكدُ أنَّ " كريم" بك كان في شدةِ الغضبِ والثورةِ بعد أن زارته شخصيةٌ هامةٌ بالأمس .

- شخصية هامة ؟!

- نعم .. جميعهم أكدوا ذلك، ولكنهم رفضوا الإفصاحَ عن هويةِ ذلك الزائرِ، وهذا أمرٌ يدعو للقلق .

صمتَ " فارس" لحظاتٍ، أخذ خلالها نفسًا عميقا من سيجارته نفثه في قوةٍ ثم استطردَ قائلا :

- مدام " غرام" .. إذا لم يظهرْ " كريم" بك مع غروبِ شمس هذا اليوم، أو نتوصل لأيّ معلومةٍ عنه يجبُ أن نبلغَ الشرطة .

اتسعتْ عيناها في ذعرٍ عقبَ عبارته، في حين كان " فارس" يُديرُ مُحرِّكَ السيارةِ مُنطلقا بها لتبدأ رحلة البحثِ عن رجلِ الأعمال " كريم شُهدي" ..

ولم يعدْ هناك ما يُقال !

******

هتف المعلم "توفيق" في غضبٍ، وهو يتناولُ الشيشة من " زيزو" :

- جماعة ماذا ؟ ! الأمرُ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ ! منذُ متى ومجتمعُنا يعرفُ تلك المسمياتِ ؟ !

ردَّ "سمير مصباح" قائلا في أسى، وهو يطوي جريدته :

- هذا ما أكدته التحقيقاتُ الأولية يا معلم .. مجموعةٌ من المُلتحين يُطلقون على أنفسهم

هذا الاسمَ وشعُارهم – كما يدَّعون - هو تطبيقُ شرع الله .

ردَّ "أحمد راغب" في استنكارٍ قائلا قبلَ أن يغادرهم إلى محلِه :

- وهل أمرَهم شرعُ اللهِ بأنْ يُفرغوا في جسدِ الفتى أكثرَ من خمس عشرة رصاصة ؟

هتفَ "سمير مصباح" قائلا :

- الدينُ والشرعُ بريئان منهم ومن أمثالهم ..

أدعياءُ الدين .. الذين يتاجرون باسم اللهِ والرسول .

هتفَ الشيخ "عمرو حبيب" قائلا، وهو يضعُ طبقَ البسبوسة الذي بيدِه أمامَ أحدِ زبائنِ المِقهى:

- لديكَ كلُّ الحقِ يا أستاذ "سمير" .. ما حدثَ في حلوان بالأمس لا يقرهُ دينٌ ولا شرع ..

وهذه كلها أمورٌ دخيلة وغريبةٌ على ديننا ومجتمعنا، وبلدُنا مصرُ كانت دومًا وأبدًا مصدرَ الأمن والأمان للمصريين وغيرهم .

تنَّهد المعلم "توفيق"، وهو يُنفّثُ دخانَه قائلا في ألم :

- كانَ اللهُ في عونِ " فرج الجمل" .. المصيبةٌ كبيرة .

نهضَ الأستاذ "سمير" في تلك اللحظة قائلا في إرهاقٍ :

- سأعودُ الآنَ لبيتي؛ فأنا في حاجةٍ لبعضٍ من الراحة .

تابعه المعلم "توفيق"، وهو يغادرُ المِقهى على مهل، وفجأةً تعلقتْ عيناه بمنال، وهي تمرُّ من أمام المِقهى، فنهض من مكانِه، وفتح دُرجَ مكتبِه، وتناولَ منه لفَّة، وانطلقَ خارجًا بجسدِه الضخم هاتفا بها :

- " منال " يا ابنتي .. أخبارُكِ ؟

التفتتْ إليه "منال" بجسدٍ منهك، وعينين مرهقتين مُحمرتين من كثرة البكاء، وهتفتْ بصوتٍ خافت :

- الحمدُ لله يا معلم .. نشكرُ اللهَ على كلِّ شيء .

تناول المعلم "توفيق" مقعدين، ووضعهما على جانب الطريقِ بعيدًا عن المِقهى، وهو يقول لها :

- تعالي يا ابنتي .. أريدُكِ في موضوع هام .

ألقتْ "منال" بجسدها المُنهكِ فوق المقعد، في حين أتي " زيزو"، ومعه كوبٌ من الليمون أعطاها إياه هاتفا :

- تفضَّلي يا ست "منال" .

تناولتْ منه الكوب شاكرةً، والتفتتْ للمعلم "توفيق" قائلة، وهى تُبللُ ريقها الجاف برشفةٍ من كوب الليمون :

- خيرًا يا معلم .

اعتدلَ المعلم "توفيق" بجسده الضخم فوقَ مقعدِه، وقال في طيبةٍ بالغة:

- أريد أن أطمئنَ على ابنك " أيمن" .

مسحةٌ من الحزنِ غلفتْ وجه "منال" فهتفتْ في ألم :

- كما هو يا معلم .. وحالته تسوءُ يومًا بعد يوم، وأنا يوميًا تائهةٌ بين المكاتبِ المختلفة في وزارة الصحة؛ لاستخراج قرار إجرائها على نفقة الدولة بلا فائدة، وبين البحث عن عمل، وأخشى أن يموتَ قبل أن ..

قاطعها قائلا في تأثرٍ:

- لا تقولي هذا يا ابنتي؛ فربُّكِ رحيمٌ، ورحمتُه وسعت كلَّ شيئ .

وصمت قليلا، ثم استطرد وهو يناولها اللفة التي بيده قائلا :

- هذه اللفة بها عشرةُ آلافِ جنيهِ، جمعها أهلُ الخير، وقريبا سوف ..

قاطعته قائلةً، والدموعُ في عينيها :

- ولكن يا معلم ..

وضع المبلغَ في يدها، مقاطعاً إياها وهو يقول في حنانٍ أبوي :

- لا توجد لكن يا ابنتي، هذا حقُكِ وحقُّ ابنُكِ علينا جميعًا، وسنقف معكِ حتى يُشفى بإذنِ الله .

وصمت مرةً أخرى، ثم تابع حديثه قائلاً :

- ثم أنني أريدُكِ في أمرٍ آخرَ .

تطلعتْ إليه في امتنانٍ، وهي تضع المبلغ بحقيبتها، فاستطرد قائلا :

- لقد وجدتُ لكِ عملًا .

لمعتْ السعادةُ في عينيها، وهتفتْ قائلة :

- حقا يا معلم ! حقا وجدتَ عملًا لي .

ابتسم في أبوية قائلا، وهو يناولها ورقةً صغيرة :

- نعم يا ابنتي .. محل ملابس شهير بمصرَ الجديدة له فروعٌ عديدة، وأعرف صاحبه، وهو في انتظارِكِ غدًا، وعنوانه في هذه الورقة .

تطلعتْ للعنوان، وهتفتْ في امتنانٍ :

- أنا لا أدري كيف أشكرك يا معلم و ..

قاطعها قائلا :

- ولكن " أيمن" كيف ستتصرفين معه ؟

- سأضعُ هذا المبلغَ تحت الحساب في المستشفى الخاص، وأحجزُ له حجرةً ليبدءوا في عمل الأشعة والتحاليل، حتى أتصرَّفَ لهم في بقية المبلغ .

- وكم ستتكلف العملية ؟

ابتلعتْ ريقها في صعوبةٍ، وهي تردّدُ قائلةً :

- خمسون ألفاً .

ربَّتَ المعلم "توفيق"على كتفها قائلا :

- لا تقلقي يا ابنتي .. تفائلي خيراً بإذن الله .

نهضتْ قائلةً له :

- أستأذنكَ الآنَ لأطمئنَ على " أيمن" .

- مع السلامة يا ابنتي، وقبّلي لي " أيمن" .

ردَّتْ عليه بابتسامة باهتةٍ فوقَ شفتيها، ثم استدارتْ لتتخذَ طريقها عبرَ ذلك الشارع الطويل، الذي تسكنُ في آخره، في حين كانت هناك عينان تمتلئان بالغضبِ ترمقان جسدَها من الخلف ..

كانت عيناه ..

عينا كرشة !

******

٩- ذات ليلة ممطرة ..

خلال تلك الفترة توطدتْ العلاقةُ كثيرًا بين " فارس" و"غرام"، فكانا لا يفترقان إلا للنوم فقط، وطوال النهارِ يبحثان معًا عن " كريم" في الأقسام والمستشفيات، في محاولةٍ منهما للتوصُّلِ لمكانه أو معرفة أيّ معلومةٍ تساعدُ الشرطة، وتكشفُ عن مصيره ..

هتفتْ به في ظهيرةِ أحدِ الأيام، والسيارة تتجاوزُ كوبري قصر النيل :

- ما أروعَ النيلَ ! لنرتاحَ هنا قليلا يا " فارس" .

هزَّ رأسَه وهو يدورُ بالسيارة ليتوقَّفَ بها على جانبِ الطريق، وقبل أن يفتحَ لها البابَ كانت قد نزلتْ، وقبضتْ بيديها على الحاجز الحديدي للكورنيش، وتنهدتْ في راحة، وعيناها معلقتان بمياه نهر النيل، ورفعتْ نظارتها على مقدمةِ رأسِها، في حين راح شعرُها الأسودُ يتطايرُ في نعومة فوقَ كتفيها ..

راقبها " فارس" للحظاتٍ، ثم جلس خلفها فوقَ دكة خُرَاسانية، وأشعل إحدى سجائره، وراح يُنفِّث دخانَها في شرود، ولكنه سَرعانَ ما أطفأ سيجارته حين مرَّ أمامَه بائعُ الصميت، فأشار له واشترى منه اثنتين، وراح البائعُ يعرضُ عليه ما عنده من بيضٍ وجبنٍ، ولكن فارس اكتفى منه بورقةٍ صغيرةٍ بها بعض من الدُقّة " الملح "..

وضع " فارس" ساقا فوقَ أخرى، وراح يُغمِّس الصميت بالدقة، ويأكلُ في استمتاعٍ، وفوجئ بغرام تجلسُ بجواره فوقَ الدكةِ الخُرَاسانية، وتمدُّ يدَها وتقطع جزءًا من الصميتة التي بيده، وتلقي بقطعة منها في فمها، فابتسم

"فارس" بهدوء، وهو يمدُّ لها يده بورقة الدُقّة فبادلته الابتسامة، وراحتْ تُغَمِّسُ بالدقة، وتأكلُ في استمتاع، وشعرُها يتطايرُ في رقةٍ وجمالٍ تخلبُ العقول ..

تناول " فارس" الصميتة الثانية وقطعها نصفين، وناولها أحدهما فتناولته في لهفةٍ، وعلى وجهها سعادةٌ غامرة، كانت قد فارقتها طوالَ الفترةِ الأخيرة ..

منحها " فارس" ابتسامةً هادئةً أخرى، وهو يسحبُ إحدى سجائره؛ ليشعلها وينفِّث دخانها في هدوء، وهو يشير لعامل الشاي بإصبعه - الذي اتخذ لنفسه نصبةً بدائية بجوار سور الكورنيش – بأن يأتيه بكوبٍ من الشاي فما كان "غرام" إلا أن أشارت بإصبعها، وفمُها محشوٌ بقطعةٍ كبيرةٍ من الصميت بأن يأتي بكوبين من الشاي، بادلها " فارس" الابتسامَ مرةً أخرى، وهو يتناول الشاي من الرجل، وينقده الثمن ..

في تلك اللحظة تعلقتْ عينا "غرام" بأحدِ المراكبِ الصغيرة المُتراصة أسفلَ الحاجز الحديدي، والتي تُقلُّ الركاب في نزهةٍ نيلية، وقف " فارس" بجسده الممشوق القوي، وفردَ كفه أمامها فتعلقتْ بها ناهضةً في بساطةٍ، وهي تبلعُ آخرَ ما تبقى بيدها من الصميت والشاي، وتحرَّكتْ معه في مرح وسعادة كطفلةٍ صغيرةٍ ..

اتجه بها " فارس" صوب المَرْسَى، واستقلا سويًا المركبة النيلية الصغيرة التي انطلقتْ تتهادى بهما في نهر النيل، ولا يوجد معهما سوى شابٍ صغيرٍ في المقدمة لا يتعدى العشرين من عمره ..

رفعتْ "غرام" نظارتها فوقَ مقدمة جبهتها، وراحتْ تهتفُ في أعماقها، وعيناها معلقتان بمياه نهر النيل :

- هذه هي الحياة التي كنتُ أتمناها ..

حياة هادئة بسيطة تُرفرفُ من حولها طيورُ الحبِّ ..

الحبُّ !!

آهٍ مما تفعله بنا هذه الكلمةُ ..

وآهٍ من سحرِها الذي لا يمكنُ فهمُه أبدًا ..

الحبُّ الذي يُحيلُ الكوخَ الصغيرَ قصرًا مُشرقا، في حين يُصبح الكونُ كلُّه مع الكراهيةِ سجنًا مُظلماً كئيباً ..

ولكن هل بمقدورنا أنْ نغيّر أقدارَنا ؟

هل ..

انتزعها صوتُ " فارس" من أفكارِها، وهو يقولُ بصوتٍ خافتٍ :

- مدام "غرام" .. أين ذهبتِ ؟

التفتتْ إليه في بطءٍ، وتعلقتْ عيناها بعينيه في نظرةٍ طويلةٍ أربكته، قبل أن تهتفَ :

- "غرام" فقط يا " فارس".. من الآن أنا "غرام" وأنت " فارس" .

تطلع إليها في صمتٍ، وهو يتحاشى النظرَ لعينيها، فابتسمتْ قائلةً، وهي تمسكُ بيده، وتجذبه ليجلسَ بجوارها قائلةً :

- فارس .. احكِ لي عنك، هل تعلمُ أنّي لا أعرفُ عنك إلا القليل ؟

ابتسم في هدوء، وهو يقول :

- كلُّ بياناتي عندكم بالشركة .

- لا أريدُ المعلومات التي تحملها الأوراق .. أريد أن أعرف " فارس" الإنسان بعيداً عن أية أوراق .

هتف في بساطةٍ قائلا، وهو يُشعل سيجارةً، وراح يُنفِّثُ دخانَها في شرود :

- اسمي " فارس كمال الضبع" من منطقة بابِ الخلق في وسط القاهرة، وحين لم أجد عملا بشهادتي التي حصلتُ عليها سافرتُ للخليج، وعملتُ هناك محاسبا بإحدى الشركات الكبرى على الرغم من أنَّه لا علاقة بين تلك الوظيفة ومؤهلي، وهناك رأيتُ " شاهيناز" ..

ابنة صاحب الشركة، وتزوجنا وأنجبتُ منها ابني الوحيد .

صمت " فارس" للحظةٍ التقط فيها أنفاسَه، وقد مرَّتْ بعينيه في تلك اللحظة سحابةٌ من الحزنِ ظهرتْ في صوته، وهو يستطردُ قائلا :

- وبعد الزواجِ اكتشفتُ حقيقتها، إنسانةٌ مغرورةٌ متكبرة أنانية، كان باعتقادها أنَّ الله خلقَ كلَّ البشر لخدمتها فقط .. وفي نفس الوقت كنتُ أحبُّ ابني جدًا، وأقضي معه معظم وقتي، وأعوِّضه عن غياب أمه الدائم عنه حتى أصابته الحُمَّى، ولم يكن قد أكمل عامَه الرابعَ بعدَ و .. مات .

ترقرقتْ في تلك اللحظة دمعةٌ وحيدةٌ خدعتْ " فارس"، وسالتْ على خدِّه، ولكنه أزالها بسرعة، وهو يستطردُ قائلا مُحاولًا الابتسام :

- وبعد موته لم أجدْ سببًا لأتحمَّلَ بشاعتها، فطلقتُها وعدتُ لمصر في ٢٠١٠، واشتريتُ بالمبلغ الذي عدتُ به من الغربةِ سيارة أجرة تساعدني على الحياة، ولكنها احترقتْ أسفل البيت في التخريبِ الذي صاحب ثورة يناير، ومن يومها وأنا ألهثُ وراءَ شركات التأمين للحصول على التعويضِ بلا فائدة .

وصمتَ مرةً أخرى استطرد بعدها محاولا الابتسامَ، وهو يُشعلُ سيجارةً أخرى :

- حتى جاءني عم "سمير" ومعه إعلانٌ تطلبون فيه سائقا .

تعلقتْ عينا "غرام" بملامحِ وجهه، وهو يقصُّ حكايته، وظهر عليها التأثرُ فلم تشعرْ إلا بكفيها تعتصرُ كفيه، وقد ترقرقتْ عيناها بالدموع، وهتفتْ :

- هل تعلم أنّ حكايتكَ تتشابه مع حكايتي إلى حدٍ كبير ؟

ربَّت على كفيها برفقٍ، وتطلع لها بنظرةٍ متسائلةٍ، فاستطردتْ قائلةً :

- أنا أيضا عانيتُ الكثيرَ والكثير على يد زوجي .. كريم بيه شهدي الذي كان يظنُّ نفسَه فوقَ البشرِ بأموالِه التي ورثَها عن أبيه .. نعم .. كان يظنُّ أنَّ كلَّ شيءٍ قابلٌ للبيع والشراء حتى المشاعرِ والأحاسيس .. كان هذا قانونه الخاص .. والغريبُ أنَّه كان يربحُ دائمًا !

كلُّ ذلك أحسستُ به حين جاء يطلبُ يدي، وأنا ما زلتُ في عامي الرابع بالجامعة ..

كان على يقين بأن طلبَه لن يُرفضَ ..

لم يعطِ والدي فرصةً للتفكير أو حتى الاعتراض ..

قدَّم لأبي كلَّ شيءٍ، ولم يطالبه بشيء ..

بل لم يفرقْ معه أنّي أخبرتُه بأمر علاقتي بزميلٍ لي بالجامعة، وأننا اتفقنا على الزواج .. يومها تطلع إليَّ قائلاً بابتسامةٍ واثقةٍ لا تخلو من السخرية : " هذا الحبُّ الذي تتحدثين عنه سينهارُ أمامَ حاجتكم للمال .. أما أنا فأقدِّم لكِ الأمانَ والمستقبلَ المضمونَ والسعادةَ مدى الحياة " .. وعلى الرغم من عدم اقتناعي تزوجنا، وذهبنا إلى أوروبا لقضاء شهر العسل، وحين عدنا ..

صمتتْ "غرام" للحظاتٍ، حاولتْ فيها أن تسيطرَ على دموعها، ثم استطردتْ قائلةً في حزنٍ رهيبٍ :

- وحين عدنا كان زميلي قد انتحر .. مات .. مات بسببي .

كان " فارس" يتطلعُ إليها، وقلبُه يتمزَّقُ من أجلها، وعلى وجهه ملامحُ ألمٍ عظيم، في حين لم تستطعْ "غرام" أن تتمالكَ نفسها أكثرَ من ذلك فانهمرتْ دموعُها على خدِّيها كالشلال، وألقتْ بنفسها في أحضان " فارس" الذي احتواها بين ذراعيه القويتين، فاستكان جسدُها في أحضانِه كطائرٍ رقيقٍ ضعيفٍ يبغي الدفءَ والأمانَ في ليلةٍ عاصفةٍ ممطرة .

******

ما أن خطتْ بقدميها داخلَ محلِ الملابسِ الشهيرِ بميدانِ الكربة في مصرَ الجديدة، ووقعتْ عيناها على صاحب المحل "صلاح عامر"، ذلك الرجل المُتَصَابِي بقميصه المُشَجَّر والسلسلة الفضية التي تتدلى من رقبتِه رغمَ تجاوزه الستين بعامين أو ثلاثة، إلا وأحسَّت بانقباض، وعدم راحة يسيطران على روحها، ويجثمان فوقَ صدرها خاصةً مع نظراته التي راحتْ تتفرسُ جسدَها في وقاحة، وهو يقول لها من خلف دخانِ سيجارته :

- العمل يبدأ من العاشرة صباحا للسادسة مساءً ، والراتبُ ألفان من الجنيهات، وقد يصلُ إلى أربعةِ آلافٍ بالسهر، والحوافز، والمكافآت .

وصمت قليلا استطرد بعدَها قائلاً، وعيناه تخترقان جسدَها :

- لقد حدثني المعلم "توفيق" عن ظروفكِ، وأنا خيرُ مَنْ يُقدِّرُ الظروفَ .. فلا تقلقي .

هربتْ بنظراتها من عينيه الوقحتين، وهى تردُ :

- أشكرك " صلاح " بيه .. متى يمكنني استلامُ العمل ؟

مرةً أخرى أكلها بعينيه، وهو يقول من خلف دخان سيجاره :

- كما تحبين .. الآنَ لو أردتِ .

ثم نادى على إحدى العاملات بالمحل التي أقبلتْ مسرعةً، وقال لها، وعيناه لا تفارقان جسدَ

"منال" :

- كوني مع "منال" حتى تفهمَ كلَّ كبيرة وصغيرة عن العمل .

تحرَّكتْ "منال" مع العاملة، في حين كان "صلاح عامر" يهتفُ بداخله، وأصابعه تتحسسُ شاربَه الرفيع :

- فَرَسَةٌ كما يقولُ الكتاب .. فرسةٌ تحتاجُ خيالًا .

وانطلقت من أعماقه تنهيدة حارَّة .

******

فجأةً وعلى عكس توقعاتِ هيئةِ الأرصادِ، هطلتْ أمطارٌ غزيرة، وأغرقتْ منطقةَ كورنيش النيل، ومناطقَ متفرقةً كثيرةً من القاهرة، وجعلتْ " فارس" يُسرع وهو يقبضُ على كفِّ "غرام"، ويجري بها نحوَ السيارة، وقد أغرقتهما الأمطارُ تماما، والتصقت الملابس بجسديهما، و"غرام" تهتفُ به في سعادةٍ كطفلةٍ في السابعة من عمرها :

- مهلا يا " فارس" .. سأقعُ على الأرض .

هتف بها وهو يحيطُ خِصرَها بذراعيه القويتين، ويكاد يحملها عن الأرضِ حملًا :

- الأمطارُ غزيرة، وأخشى على جسدِك الرقيقِ من البردِ والمرض .

مدتْ أصابعها الرقيقة، وتحسَّست وجنتيه، وهتفتْ به في رقةٍ ذابَ لها وجدانُه :

- أتخشى عليَّ لهذه الدرجة ؟

للحظة تطلع لعينيها الجمليتين تحتَ الأمطارِ، وكاد يبوحُ لها بما في داخله، ولكنه تراجعَ في اللحظة الأخيرةِ، وهو يفتحُ بابَ السيارة، ويلقي بجسدها داخلها في رفق، وبلمسةٍ رقيقة من أصابعه راحَ يُزيلُ الأمطارَ من فوق خديها، فأغمضتْ عينيها، واستسلمتْ للمساته الحانية، وتهيأتْ ليقتربَ منها أكثر، ولكنه تمالكَ نفسَه مرةً أخرى، وهو يغلقُ خلفَها بابَ السيارة، ويدور حولها ليحتلَّ مكانه خلفَ عجلة القيادة ، انطلقتْ بهما السيارةُ على مهلٍ، وسط الأمطار التي أغرقتْ الشوارعَ التي خلتْ أو كادتْ من البشر ..

هتفتْ في سعادة، وهي تنظرُ لبائع حمص الشام الذي اتخذ مكانًا بعربتِه الصغيرة أسفلَ سقفٍ من الصاج يحميه من المطر :

- " فارس" .. أرجوك، أريدُ حمصَ الشام .

تطلع إليها للحظة في دهشةٍ ثم ابتسم، وهو يوقف السيارة، ويغادرها وسطَ الأمطار التي أغرقت ملابسَه في شدة، وعاد ومعه كوبان من الحُمص، تناولتْ منه إحداهما في مرحٍ طفولي قائلة :

- أشكرُكَ يا " فارس" .. أشكرُكَ .

تاه للحظاتٍ في سحر عينيها الجمليتين، وبعضٌ من حبات المطر تتساقط من شعره لجبهته لتغيب وسطَ شعر صدرِه الغزير الذي يبدو من فتحةِ قميصه :

- أميرتي فقط عليها أن تحلمَ، وأنا علىَّ التنفيذ .

قبضتْ بكفيها على كوب الحمص، وتطلعتْ إليه في نظرةٍ طويلةٍ حالمة وهتفتْ :

- فارس .. كم أنتَ رائع وليتني كنتُ ..

وقطعتْ عبارتَها ثم انحنتْ نحوه، ومنحته قبلة خاطفة فوقَ خدِّه، لمستْ جزءًا من شفتيه، اعتدلتْ بعدها وقد احمرَّ وجهُها خجلًا خاصةً بعد أن سقطتْ قطراتٌ من ماء الحمص فوقَ ملابسها، فهتفتْ في خجلٍ، وفارس يتطلع إليها في ذهولٍ، وأصابعه تتحسس خدَّه مكان قبلتها :

- آسفة يا " فارس" أنا ..

ابتلعتْ باقي عبارتها، حين مدَّ يده وأخذ منها كوبَ الحمص؛ ليريحه فوقَ تابلوه السيارة، ووضع أنامله فوقَ شفتيها التي ارتجفتْ في عنفٍ؛ ليمنعَها من الكلام، وراحتْ أنامُله تتحسسَّ خدَّها الأبيض الجميل، وقد زادته قطراتُ المطرِ جمالا وضياءً، في حين أسبلتْ "غرام" عينيها مستسلمةً تمامًا، وحين أرادتْ أن تفيقَ وتعودَ لرشدها - أمام صرخاتِ عقلها - فُوجئتْ بشفتيه يلتهمان شفتيها في قبلةٍ طويلةٍ حارة ذابَ لها وجدانُها فانهارتْ كلُّ حصونِها، واستكان جسدُها لذراعيه القويتين اللذين يعتصرانه في قوة، فامتدتْ أصابعها خلفَ رأسه، وراحتْ تتحسسُ شعرَه وخلف أذنيه في نشوةٍ تملكتها تماما ..

فاقا من نشوتهما إثر طرقاتٍ خافتةٍ على زجاج السيارة، وابتسامة بلهاء تعلو وجهَ الرجل العجوز بائع الحمص، وقد أنستهما اللحظة أنَّهما في الشارع، والأمطار ما زالت تهطلُ بغزارة .. اعتدل " فارس" وبادل العجوزَ ابتسامته، ولوَّح له بأصابعه قبل أن ينطلقَ بالسيارة، ويهتفُ بغرام التي ما زالت مغمضةَ العينين، وكأنها لا تريدُ أن تفارقَ اللحظة الماضية :

- "غرام" أنا آسف و ..

فتحتْ عينيها، وراحتْ تتطلع لملامحه للحظةٍ هتفتْ بعدها مقاطعة إياه، وأصابعُها يتحسسان ظهر يده :

- أحبُّكَ .

اتسعتْ عينا "فارس" عقب عبارتها، ولم يدرِ إلا والسيارة تتوقف في حدةٍ على جانب الطريق مثيرةً حولها عاصفةً من رزازِ المطرِ المُتطاير، وهو يهتفُ بها :

- ماذا ؟!

مرةً أخرى غاصتْ بعينيها في عينيه كملاحٍ تائهٍ وجدَ ضالته بعدَ عناء، وهتفتْ بلا تردد :

- أحبُّكَ يا فارس .

ردَّد " فارس" قائلا في ذهول :

- "غرام" .. ما حدثَ الآنَ بيننا لحظة ضعف و ..

- أحبُّكَ .

تطلع طويلاً هذه المرة إلى عينيها الجميلتين، وكأنَّه يلقي عليهما الوداعَ الأخير، وفجأةً صرخ بشدةٍ، وهو يتألم :

- ولكن هذا مستحيل .. أنتِ متزوجة .. هل تسمعين ؟ مستحيل .

وفتح الباب مغادرًا السيارة، وراحت تتابعه في ذهولٍ، وقد ماتت السعادة في عينيها، وهو يواصلُ طريقَه تحتَ الأمطارِ الغزيرة، وعلى خدِّها توجد .. دمعة !

******

١٠ – الذئب ..

نهضتْ أم فاتن من مقعدها في تثاقلٍ حين صكَّ أذنيها رنينُ جرسِ الباب، راحتْ تتقدَّم نحوَه بخطواتٍ منهكةٍ بائسة، وفي طريقها للباب ألقتْ نظرةً على صورة ابنتها فاتن، التي تُزيّن ردهة الشقة، وهزَّتْ رأسها في ألمٍ، قبل أن تفتحَ البابَ لتفاجأ أمامها بالمعلم"توفيق" وبصحبته "أحمد راغب".. علتْ شفتيها ابتسامةٌ مريرةٌ، وهي تدعوهما للدخول، تبعها الرجلان في هدوءٍ، وعيناهما تجوبان أرجاءَ الشقة، ويلوحُ فيهما ألفُ تساؤلٍ وتساؤل، وكأنَّهما يبحثان عن شيء ما .. اتخذ كلٌّ منهما مكانه فوقَ أريكةٍ متهالكة، وراحا يتبادلان النظراتِ الصامتةِ معها إلى أن قطع المعلم "توفيق" حبالَ الصمتِ قائلاً :

- أحقاً ما سمعته يا أم فاتن ؟

تطلعتْ إليه الأمُ الثكلى بنظراتٍ ملؤها الألمُ والمرارة، وهتفتْ :

- وما الذي سمعته يا معلم ؟

التقط "أحمد راغب" طرفَ الحديث قائلا، وهو يعدلُ نظارته الطبية :

- يقولون أنكِ أتيتِ بطفلةٍ من الشارع لتقيمَ معكِ و..

قاطعته أم فاتن في ذعرٍ قائلة :

- كذبٌ وافتراء .. إنها ابنتي .. ابنتي " فاتن" .

تابعها المعلم "توفيق" في ألمٍ قائلا، وهو يجاهدُ دموعَه حتى لا تسقط :

- " فاتن " الآنَ بين يدي الله، وندعو لها بالرحمةِ والمغفرة و ..

قاطعته الأمُ صارخة :

- لا يا معلم .. لا .. ابنتي " فاتن " لم تمت، ابنتي بالداخل نائمةٌ في فراشها .

وعقب عبارتها نهضتْ سريعًا من مكانها، وفتحتْ بابَ حجرةٍ مجاورة قائلةً لهما في فرحة، وهي تطالع فتاةً نائمةً فوقَ فراشها :

- تعالا وانظرا .. ها هي ابنتي نائمة .

تقدَّم توفيق وراغب وطالعا فتاة صغيرة - لم تتجاوز عامها العاشر - نائمةً فوقَ الفراشِ، وفوقَ شفتيها ابتسامةٌ هادئةٌ جميلة .. كانت ذاتَ ملامحَ جميلةٍ، وبشرة تميلُ للسُمرَةِ قليلا، وشعرٌ أسودٌ ناعمٌ بلون الليل ينسابُ فوق كتفيها كشلال من الحرير ..

أخذ المعلم "توفيق" أم فاتن من يدها للخارج، بينما أغلق "راغب" بابَ الحجرةِ على الفتاة النائمة، وعادوا لمجلسهم، وهتف بها المعلم "توفيق" قائلا :

- إنَّها فتاةٌ جميلةٌ حقا .. ولكن " فاتن" كانت أجمل .

وضعتْ الأم رأسَها بالأرض، ورددتْ في ألمٍ :

- وهل هناك في جمال " فاتن" يا معلم .

مسحَ "راغب" نظارته من آثار دمعةٍ خدعته، وسألها :

- أين وجدتِ هذه الفتاة يا أم فاتن ؟

ألقتْ الأم بنظرةٍ حانية على باب الحُجرةِ المغلق، وهتفتْ في أسى :

- قابلتها في أتوبيس المنيب، وأنا عائدةٌ من عند أختي، كانت تبكي خلالَ مشادةٍ لها مع محصِّل التذاكر، ولا تملك ثمنَ التذكرة و..

اندفع المعلم "توفيق" يقاطعها قائلا :

- ولكن هذه الفتاة قد تكون تائهة، وأهلها يبحثون عنها الآنَ و ..

قاطعته أم فاتن معاتبةً :

- سامحكَ اللهُ يا معلم .. وهل أنا بمَنْ تأخذُ فتاةً تنعمُ بالحياةِ وسطَ أهلها ؟!

تطلع إليها الاثنان في تساؤلٍ، فاستطردتْ قائلة :

- إنَّها بلا أهل، وكانت هاربةٌ من أحد الملاجئ، وقد وجدتْ أنَّ الشارعَ أكثرَ رحمةً مما تعانيه بداخل الملجأ .

تنهَّد المعلم "توفيق" فى راحةٍ قائلاً :

- الحمد لله .. الآنَ اطمأنَّ قلبي .

ردَّدَ "راغب" في حيرةٍ قائلاً :

- ولكن هذا لا يحلُّ المشكلة يا معلم؛ فلا توجد أيُّ علاقةٍ تجمع بينهما، وتسمح للفتاة بالإقامة مع أم فاتن .

تطلعتْ إليه الأم في قلقٍ، وقد عاودها جزعُها، فهتف المعلم "توفيق" قائلاً :

- لا تقلقي يا أم فاتن .. سنسألُ في الأمرِ، ونتعرَّفُ الإجراءاتِ التي تجعل من إقامة الفتاةِ هنا بشكلٍ رسمي .

علتْ الراحةُ وجه الأم، وقبل أن تشكره فُتِحَ البابُ المجاورُ، وظهرتْ على عتبته الفتاة الصغيرة بوجهها الملائكي، وهتفتْ بصوتها العذب :

- هل عندنا ضيوف يا أمي ؟

أشرقَ وجهُ الأمِ في سعادة، وهي تفتحُ ذراعيها للفتاة، التي ألقتْ بجسدِها بين أحضانها وراحت تقبلها، قائلةً :

- لا يا حبيبتي .. ليسوا ضيوفًا .. هم أهلنا .

استدارتْ الفتاة للمعلم "توفيق"، وقالتْ في رقةٍ وبراءة :

- أهلا يا جدو .

مدَّ المعلم "توفيق" أصابعه، والتقط كفَها الرقيقة، واحتواها بين ذراعيه في حنانٍ قائلا :

- أهلا يا قلب جدو .

ضحك "أحمد راغب" قائلا :

- وهل جدو الآخر ليس له حظٌ في حضنٍ جميلٍ كهذا ؟

ابتسمتْ الفتاةُ في براءةٍ كاشفةً عن أسنانها البيضاء، وهي تلقي بجسدها بينَ أحضان "أحمد راغب" الذي ربَّتَ على كتفها قائلا :

- حفظكِ اللهُ يا ابنتي .. لديكِ كلُّ الحقِ يا أم فاتن؛ الفتاةُ تستحق .

فَرَدتْ الأمُ ذراعيها؛ لتحتوي الفتاةَ مرة أخرى، وهي تقولُ في سعادة :

- " فاتن " الصغيرة أعادتني للحياة مرةً أخرى .

نَهَضَ المعلم "توفيق" قائلا، وهو يربّتُ على رأس الفتاة :

- ليفعل اللهُ ما فيه الخير .. لا تقلقي يا أم فاتن .

وما أن غادر الرجلان الشقةَ حتى ألقتْ الفتاة بجسدها مرةً أخرى في أحضان الأمِ، وهي تقول بسعادةٍ غامرة :

- أحبُّكِ كثيرًا يا أمي .

تطلعتْ إليها الأم، وراحتْ تعتصرُ جسدَها بينَ ذراعيها في حنانٍ، بينما انهمرتْ دموعُها على خدِّها في غزارة !

******

قبل العاشرةِ مساءً بخمس دقائقَ، كانت "منال" تضع آخرَ قطعةِ ملابس في فاترينة العرضِ، واستدارتْ لتستعدَ للانصراف، وفُوجئتْ بصلاح عامر صاحب المحل يقتربُ منها فجأةً، ولمستْ أصابعُه مؤخرتَها بحركةٍ بدتْ عفويةً غيرَ مقصودة، فارتعد جسد "منال" وهي تبتعدُ عنه، وتحدِّجهُ بنظرةٍ ناريةٍ فهتفَ بها ، وكأنَّه لم يفعلْ شيئًا :

- أخبريني يا " منال " .. ما أخبارُ ابنك " أيمن" الآنَ ؟

هتفتْ غاضبةً، وقد احمرَّ وجهُها، وزادها جمالا في عينيه :

- إياكَ أن تفعلَ ما فعلتَ مرةً أخرى، وإلا ..

تراجع مبتعدًا عنها قائلا، وهو يتلفتُ حوله فوجد كلَّ عاملةٍ مشغولةً بعملها :

- كنتُ فقط أسألُ عن " أيمن" و ..

قاطعته قائلةً بلهجةٍ حاسمة :

- أرجوك يا " صلاح " بيه .. لا تنسَ أنَّني هنا للعملِ فقط .

هزَّ رأسَه ثم عاد لمكتبه، وجلس في مقعده يتطلعُ إليها للحظاتٍ وعيناه معلقتان بجسدِها، ثم نادها قائلا :

- تعالِ يا "منال".

رمقته في ضيقٍ، فهتفَ بها قائلا في هدوء :

- اجلسي من فضلك؛ أريدُكِ في موضوعٍ هام .

جلستْ "منال" على حافةِ المقعدِ المواجهِ له، فقال لها ، وعيناه تخترقان جسدَها :

- اسمعيني يا "منال"، وفكِّري في كلامي جيدًا، أنا لا أنكرُ أنَّكِ أعجبتني منذُ رأيتكِ، وسأقدِّمُ لكِ عرضًا .

وصمت لحظةً ابتلعَ فيها ريقه، ثم استطردَ قائلا :

- سأتكفلُ بعلاجِ " أيمن"، وسأكتبُ لكِ هذا المحل في مقابل الزواج منكِ .

رددتْ ذاهلة :

- تتزوجني ؟!

تراجعَ في مقعده للخلف، وهتفَ بها :

- نعم .. ولكن الزواجَ سيكونُ عرفياً .. هذا شرطي الوحيد .

ابتسمتْ في مرارةٍ، وقالت :

- سأوفِّرُ عليك الوقتَ والجهدَ يا "صلاح" بيه .. كثيرون من قبلك عرضوا عليَّ هذا العرض، وسأقول لكَ كما قلتُ لهم .. أنا لستُ للبيعِ يا "صلاح" بيه .. هل تسمع ؟ لستُ للبيع .

******

أربعةُ أيامٍ كاملة مرَّتْ على آخرِ لقاءٍ جمعَ بين " فارس" و"غرام" ..

أربعةُ أيامٍ كاملة انقطعَ فيها " فارس" عن الدنيا، ولَزِمَ شقته لم يغادرها، وحتى هاتفه لم يرد عليه ..

كان يُعاني من أزمةٍ نفسيةٍ شديدة ..

لقد صرَّحتْ له "غرام" بما تمنَّاه منذُ أن وقعتْ عيناه عليها أولَ مرة ..

نعم ..

قالتها واضحةً صريحةً ..

إنّها تحبه ..

وهو أيضًا يُحبُّها ..

لا ..

بل يعشقُها منذُ أن لمحتها عيناه ..

ولكن كيف يُحبُّها ؟

إنَّها متزوجة ..

وهو لا يمكنُ أن يخونَ أبدًا ..

نعم .. نعم لا يمكنُ أن يكونَ خائناً أبدًا ..

حتى ولو مع المرأةِ الوحيدةِ التي تحرِّك لها قلبُه ..

بكلِّ ما تئنُ به نفسُه من همومٍ وآلامٍ وضيق، نَهَضَ من فراشه، وجلس فوقَ حافته عاريَ الصدر .. تناولَ إحدى سجائره، أشعلها وراحَ يُنفِّثُ دخانَها في توتر، ويتابع من خلاله ملامحَه الشاحبة التي بدتْ له في المرآةِ المواجهةِ لفراشه ..

فاقَ من شرودِه، على رنينِ جرسِ الباب، الذي انطلق يُدوِّي في أرجاءِ شقتِه في تلك اللحظة، ظلَّ يتطلعُ إليه للحظاتٍ في لامبالاة، ثم نَهَضَ في تثاقلٍ، وهو يجرُّ قدميه جرًا، وعيناه على ساعة الحائط التي لم تكنْ عقاربُها قد تجاوزتْ الواحدة ظهرًا، ودخانُ سيجارته يندفعُ من بين شفتيه في قوة و ..

اتسعتْ عيناه في ذهولٍ حينَ فتحَ البابَ، وراحَ يُرددُ :

- مدام "غرام" !

رفعتْ نظارتَها الشمسية فوقَ جبهتها، فبدتْ من تحتها عيناها الجميلتان منتفختين مُجهدتين من قلةِ النومِ .. هتفتْ به في رقةٍ أسرتْ قلبَه :

- هل تسمح لي بالدخول ؟

أفسحَ لها الطريقَ، وأسرع يسترُ صدرَه العاري بقميصه، وهو يقولُ بصوتٍ لم يخلُ من الذهولِ بعد :

- كيف وصلتِ إلى هنا ؟

ردَّتْ قائلةً بصوتٍ شاحبٍ حزين :

- أنسيتَ أنَّ بياناتِكَ كلها في الشركة ؟ لقد اتصلتُ بهم في الشركة فأرسلوا لي عنوانك .

هتفَ في ألمٍ، وهو يُغلقُ ما تبقى من أزرارِ قميصه :

- ولمَ كل ذلك ؟

رمقته بنظرةٍ طويلةٍ في حزنٍ شديد، انفطرَ له قلبه، وهى تهتفُ به في عتابٍ :

- وماذا تريدُ منِّي أن أفعل، وقد تركتني، وتركتَ العملَ، وأغلقتَ هاتفكَ ؟

اقتربَ منها، وأمسكَ كتفيها في رفقٍ، وهتف بها بكلِّ الألم الذي تئنُ به جوارحه :

- غرام ..

يجب أن تعلمي أنّني منذُ أن رأيتكِ وصار بداخلي حُلمٌ واحد ..

أن أقضي عمري كلَّه بجوارِكِ ..

أن أكون دومًا قريبًا منكِ ..

أحميكِ وأحافظُ عليكِ ..

لأنَّني بالفعل أحِبُّك ..

لا بل أعشقُكِ ..

وكم تمنيتُ كثيرًا بيني وبين نفسي أن أسمعَ تلك الكلمة مِن بين شفتيكِ ..

ولكن كما قلتُ لكِ هذا حُلم ..

حُلمٌ وحدوثه مستحيل؛ لأنكِ متزوجة ..

وأنا لا يمكنُ أن أخونَ ..

هل تسمعين ؟ لا يمكن يا "غرام" .

راحتْ دموعُها تسيلُ على خديها، وهي تسمعُ اعترافَه بحبِّها، فهتفتْ به بصوت يُقطرُ ألمًا :

- مِنْ فضلكَ يا " فارس"، هيا استبدلْ ملابسَك؛ لتأتي معي في مشوارٍ يجبُ أن تكونَ معي فيه .

تطلع إليها في تساؤلٍ دونَ أنْ يحرِّكَ ساكنًا، فهتفتْ به قائلةً :

- أرجوكَ يا " فارس"، اسمعْ كلامي هذه المرة فقط، لن أطلبَ منكَ شيئًا آخرَ، هذا هو الطلبُ الأخيرُ، وبعدها افعلْ ما يحلو لكَ ..

نعم .. بعد هذا المشوارِ سيكونُ عليكَ اتخاذُ القرارِ، إما أنْ تبقى معي، وإما أنْ نفترقَ إلى الأبد .

اقترب "فارس" منها، ومسحَ دموعَها بأصابِعه، وهو يقولُ بصوتٍ يُقطِّرُ حنانًا :

- حسنًا يا "غرام".. انتظريني لأستبدلَ ملابسي .

ولم تمرْ الدقائقُ الثلاث حتى كان فارس - وبجواره غرام - في مكانه خلفَ عجلةِ قيادةِ السيارة التي انطلقتْ بهم، وهو يهتفُ بها :

- إلى أين ؟

هتفتْ قائلةً في ألمٍ مضاعف :

- مشرحة زينهم .

اتسعتْ عيناه في هلع عقبَ عبارتها، ولم ينطقْ بحرفٍ واحد، وراح عقلُه يدرسُ جميعَ الاحتمالات، دون أن يجرؤ لسانُه على البوحِ بها خشيةً من معرفةِ الجوابِ الذي لا يتمنى سماعه ..

ولم ينقذه من تصوراتِه واحتمالاته إلا والسيارة تأخذُ المنعطفَ الأخير لتتوقف أمامَ مشرحةِ زينهم، وقد تكدَّسَت أمامَها العديداتُ من النساء اللاتي افترشن الأرضَ يبكين ويصرخن في لوعةٍ على فقيدٍ أو فقيدةٍ لديهم، وحولهم عددٌ غيرُ قليلٍ من الرجال، وقد انحفرَ الحزنُ على وجوههم ..

اطلع المسئولُ على هويتهما، وأشار لهما بالدخول يتقدمهما عاملُ المشرحةِ بصحبته أحدُ أمناءِ الشرطة، تقدَّمت "غرام" في خطواتٍ حذرة، وقد شحبَ وجهُها حتى حاكى وجوهَ الموتى، ومِنْ خلفها بخطواتٍ توقَّفَ " فارس"، وراح يدعو اللهَ في سره أن يكونَ ظنُّه خاطئًا، في حين ابتلعتْ "غرام" ريقها، وعاملُ المشرحةِ يرفعُ الغطاءَ عن إحدى الجثث، وارتفعَ حاجباها، وضاقتْ حدقتا عينيها، وهي تتطلعُ إلى الجثةِ، وظلتْ للحظةٍ صامتةٍ، وكأنَّها فقدتْ النطقَ أو التصقَ لسانُها بسقفِ حلقها ..

وفجأةً ..

انطلقتْ من حلقِها صرخةٌ هلعةٌ جزعةٌ، وهى ترددُ كلمةً واحدةً من حرفين فقط :

- لأاااااااااااا.

أسدلَ عاملُ المشرحةِ الغطاءَ على الجثةِ مرةً أخرى، في حين كان أمينُ الشرطة يُسجلُ اسمَ وبياناتِ صاحبِ الجثة، بعد التعرُّفِ عليها، بينما سقط

قلبُ " فارس" بين قدميه، وهو ينظرُ إلى "غرام" التي تلاحقتْ أنفاسُها في سرعةٍ، وبدا له وكأنَّ قدميها أصبحتا غيرَ قادرتين على حملِها، وفجأةً ..

هوتْ "غرام" أرضًا لتسقط في ذلك العالمِ ..

عالم اللا وعي !

******

١١- اغتصاب ..

خَلتِ الطريق من البشر أو كادت في تلك الليلةِ الباردة، وقد تلبَّدتْ السماءُ بالغيومِ مما ينذرُ بأمطارٍ غزيرةٍ، وقبعَ الناسُ في بيوتهم ينشدون الدفءَ، رغمَ أن الساعة لم تكنْ قد تجاوزتْ العاشرة مساءً ..

وكان "عرفة الضبع " قد رجعَ مبكرًا في تلك الليلةِ، على غير عادتِه حيثُ أن سهرتَه لا تنتهي يوميًا إلا بعد أذانِ الفجر ..

راح يواصلُ خُطاه المُترنحةَ معتمدًا على عصاه القوية التي لا تفارقه في حذرٍ على جانب الطريق، وهو يهمهمُ بعباراتٍ ساخطةٍ غاضبةٍ كلما تعثَّرتْ قدمُه في حجرٍ أو حفرةٍ بالشارعِ .. وقبلَ أن يصلَ لبيته بعدةِ خُطواتٍ سمعَ مِنْ خلفه صوتًا بريئًا يقولُ له :

- جدو "عرفة ".. هل أساعدُكَ ؟

أرهفَ سمعَه للحظاتٍ ليحددَ هويةَ محدثِه، هتف بعدَها وعلى شفتيه ابتسامةٌ نادرًا ما تزورها:

- فاتن ! لماذا نزلتِ في تلك الليلة الباردة ؟

اقتربتْ منه الفتاةُ ذات العشرةِ أعوام، وأمسكتْ بيده قائلةً في براءةٍ :

- نعم يا جدو، أنا " فاتن".. نزلتُ أشتري شمعًا لأنني أخافُ الظلامَ لو انقطعتْ الكهرباء .

قبضَ "عرفة" على كفِّها الصغيرة، وتركها تقودُه للبيتِ الذي يسكنُ في حجرةٍ قربَ مدخلِه بالدورِ الأرضي .. راحتْ الفتاةُ تواصلُ خُطاها في صعوبةٍ،

وقد ألقى "عرفة" عليها بكلِّ حِمل جسدِه، بعد أن تركَ كفَّها، وأحاط كتفيها بذراعه، والتصقَ جسدُه بجسدِها تمامًا ..

تنهَّدتْ الفتاة في راحةٍ، وقالتْ لاهثةً، وهي تعبرُ مدخلَ البيت :

- وصلنا يا جدو "عرفة" .

تخلَّى عنها "عرفة"، وهو يُرهِفُ سمعَه مرةً أخرى للحظاتٍ، وأخرجَ مِفتاحَه، وراحَ يبحثُ عن ثقب البابِ، فهتفتْ به الفتاة الصغيرة :

- دعني أساعدُكَ يا جدو .

ناولها المفتاحَ، ففتحتْ له البابَ، وهي تقول :

- هل أضيئُ لكَ النور ؟

ابتسم قائلا، وجسدُه يغلقُ عليها مدخلَ الباب :

- وما حاجتي إلى النور ؟

ابتسمتْ الفتاةُ في براءةٍ، وتقدَّمتْ تنوي الخروجَ مِن الحجرة، ولكنه كان قد أغلقَ بابَ الحجرة بجسدِه تمامًا، وفوجئتْ به يدفعُ جسدَها للداخل، ويغلقُ البابَ بقدمه ..

وقعتْ الفتاةُ إثرَ دفعتِه فوقَ فراشِه الرثِّ، فصرختْ في رعبٍ :

- جدو "عرفة " .. ماذا تريدُ ؟ دعني أخرج .

رمى عصاه، وراحَ يخلعُ جلبابَه، ويلقي به وسطَ ظلامِ الحجرةِ قائلاً لها، وهو يتقدَّمُ نحوَها بصوتٍ أشبه بالفحيح، وقدمُه الثقيلةُ تهرسُ الشموعَ التي وقعتْ منها أرضًا :

- لا تخافي .. سأحكي لكِ حدوتةً جميلةً .

راحتْ الفتاةُ تصرخُ قائلةً :

- أرجوكَ يا جدو .. اتركني أخرج .

هجمَ عليها في جنونٍ، وهو يجذبُ جسدَها نحوه كذئبٍ جائع، وكفاه الجائعان تعبثان بكلِّ أجزاءِ جسدِها، وقبلاته تنهالُ عليها من بين أنفاسه الكريهةِ الخانقة، وصراخُ الفتاة يتواصلُ ويتواصلُ، ولكنه لم يأبه بصراخها ..

وكيف يأبه وحياته الإجرامية التي عاشها جعلتْ قلبَه أشدَّ من الصخر، ولا يعرفُ معنى الرحمةِ، ولم تشفعْ له توسلاتُ فتاةٍ صغيرةٍ لو تزوَّجَ لكانت في عمرِ أحفادِه ..

القبلاتُ المختلطة بأنفاسِه الكريهةِ ما زالتْ تنهالُ عليها ..

كفاه القذرتان ما زالتا تعبثان بجسدِها ..

صراخاتُها ما زالتْ تتوالى وتتوالى ..

وفجأةً ..

سقطَ بابُ حجرتِه، تحتَ ضرباتِ العديدِ من أهل الحيّ الذين أيقظهم صراخُ الفتاةِ، وأجبرهم على مغادرةِ بيوتهم الدافئة ..

أضاءوا أنوارَ الحجرة، واتسعت عيونهم في هلع مما رأتْ، وهجمَ بعضُهم عليه، ودفعوه بعيدًا عن الفتاة، في حين جذبَ البعضُ الآخرُ الفتاةَ، التي تلقتها أم فاتن بينَ ذراعيها، وهي تصرخ باكية :

- " فاتن ".. ابنتي .. حبيبتي ..

ألقتْ الفتاةُ بجسدِها الذي ينتفضُ في رعبٍ، بينَ أحضانِ أمها في حين كان "عرفة" قد لملم جسدَه، واتكأ بظهره على الحائط، وأرهفَ سمعَه لحركاتِ

المحيطين به الذين تطلعوا إليه في غضبٍ، وتحرّك بعضُهم نحوَه يريدون الفتكَ به جراءَ فعلتِه، وهم يصرخون :

- حتى هذه الفتاة الصغيرة لم تنجُ منكَ أيُّها السِّكيرُ المخمور .

نَهَضَ "عرفة" من مكانه سريعًا، ومدَّ يده أسفلَ فراشِه، وانتزع سيفًا طويلا راحَ يُلوّحُ به في وجوههم في مهارةٍ أعادتْ المحيطين به للماضي لأكثرَ من أربعين عامًا مضتْ حين كان يدخلُ أيَّ معركةٍ رافعًا سيفَه في قوةٍ وشجاعةٍ غيرَ آبهٍ بأعدادِ خصومِه وكانت الدماءُ تتناثرُ عن يمينه ويساره ..

تراجعَ المحيطون به حين طافتْ تلك الصورُ بذاكرتِهم، وقد تمكَّن الرعبُ منهم، وفي تلك اللحظة جاءهم صوتُه القبيحُ، وهو يقول :

- وماذا فعلتُ ؟! هل ارتكبتُ جريمةً ؟!

الليلة باردةٌ كما ترون، وكنتُ أرغبُ في بعضِ الدفءِ الذي تنعمون به مع زوجاتِكم ..

وأنا لا أرى سببًا لغضبكم؛ فهذه الفتاةُ من الشارعِ، ولا أصلَ لها و ..

فجأةً .. انتفض جسدُ الفتاةِ عقبَ سماعِها العبارة الأخيرة، ودفعتْ ذراعي أمها، وانطلقتْ نحوَ الشارعِ الذي أغرقته الأمطارُ في تلك اللحظة، وظلتْ تجري وتجري ..

وحينَ خرجَ البعضُ خلفها للبحثِ عنها في الشارع لم يكنْ للفتاة أثرٌ .. أدنى أثر !

******

اجتمعتْ "غرام" بمديري الشركاتِ بعدَ أسبوعين من إعلانِ الوفاة، وطالبتهم في حزمٍ بمضاعفةِ الجهد المبذولِ للمحافظة على اسم الشركاتِ في السوق، وهددتهم بأنَّ الطردَ سيكون مصيرَ كلِّ مَنْ يتهاونُ في عمله ..

والغريبُ أنها لم تتعجبْ أو تغضبْ -رغم عدم خبرتِها بالسوق وقوانينه- من زيارة البشمهندس لها التي لم تستغرقْ أكثرَ من نصف ساعةٍ فقط، حسمتها "غرام" باتفاقٍ نهائي معهم لا يتجاوزُ العشرين في المائة من الأرباحِ عن العام الأولِ فقط على أنْ يكونَ هناك اتفاقٌ آخرُ مع مطلعِ العامِ الجديد ..

في نهاية الزيارة انحنى البشمهندس بجسدِه الضخمِ مُقبِّلًا يدَها، قائلًا وهو يتأملُ جمالَها الفتَّان في ولهٍ:

- حينَ يجتمعُ الجمالُ والذكاءُ في امرأةٍ واحدةٍ يجبُ أنْ ننحني لها تقديرًا .

سحبتْ كفَّها من يدِه في رفقٍ، وهتفت بحزم :

- مع السلامة يا بشمهندس، وسيتولى محامو الشركةِ كتابةَ العقود .

ألقى البشمهندس نظرةً أخيرةً عليها، قبل أن يغادرَ المكانَ بجسدِه الضخمِ في خُيَلاءٍ كالطاووس يسبقه دخانُ سيجاره الذي يندفعُ من بين شفتيه في قوة، في حين هتفتْ "غرام" في أعماقها، وهي تعود لمقعدِها قائلة :

- هذا لو اكتملَ عامُكم الأولُ أيَّها الحَمْقَى .

نهضتْ مغادرةً مكتبَها والشركة كلَّها إلى سيارتها التي قادتها بنفسِها، وقد رفضت أن يصاحبها السائقُ الجديد؛ حيث كانت في طريقها إليه ..

" فارس" ..

وهناك ..

فوقَ أعلى مكان بالمقطم ..

كان بانتظارها ..

ألقتْ بجسدِها بين ذراعيه هاتفةً في سعادة، وهي تهيمُ ولهاً في عينيه :

- كم أوحشتني يا " فارس" !

قبضَ على كتفيها وهتفَ قائلا، وهو يتحسَّسُ كفيها الرقيقتين:

- أما أنتِ فلا ..

قاطعته بنظرةٍ مستنكرةٍ زادتها جمالا، فاستطرد هامسًا في أذنيها:

- هذا لأنكِ دوما معي، لم يفارقني خيالُكِ منذُ أمسِ، معي في يقظتي ومنامي .

تحسستْ ظهرَ كفيه بأناملها هاتفةً في سعادة :

- أحقا يا " فارس" ؟

أخذها من يدها برفقٍ، وسحبَ لها مقعدًا، وجلس في المقعد المقابل لها قائلا :

- حبيبتي .. هل تصدقينني لو قلتُ لكِ أنني أعرفك قبلَ أن أراكِ ؟

تاهت بعينيها في سحرِ عينيه في صمتٍ، فاستطردَ قائلا، وعيناه ما زالتا غارقتين في بحرِ عينيها :

- كلما كنتُ أسرحُ بيني وبين نفسي في مواصفاتِ فتاةِ الأحلام التي أتمناها..

كنتُ وكأنني أصفُ في صورتكِ أنتِ، ملامحكِ، عيناكِ، شفتاكِ، شعركِ .. حتى عندما ارتبطُ بزوجتي السابقة كنتُ قد وجدتُ فيها شيئًا منكِ، وعندما رأيتُكِ هتفَ قلبي، وهو يرفرفُ في سعادةٍ " هذه مَنْ تبحث عنها " .

تحسَّستْ كفيه بأناملها قائلةً في سعادةٍ :

- أنتَ فارس حقًا .

ابتسم في هدوء، ولم يردْ، فاستطردتْ قائلةً، وعيناها في عينيه :

- أحيانًا كثيرة أشعرُ بأنَّ اللهَ قد أرسلكَ إليَّ هديةً تعويضًا عما عانيتُه من قبل ..

وصار كلُّ أملي الآنَ هو إسعادُكَ فقط .

تناول " فارس" كفيها، وطبعَ فوقهما قبلةً رقصَ لها قلبُها طربًا .

وهناك ..

وعلى مائدةٍ قريبةٍ منهما كانتْ توجدُ أذنان ..

نعم .. أذنان كبيرتان !

******

من فوق المنبرِ رفعَ الشيخُ "عمرو حبيب" أكفَّه بالدعاء، وقد انتهى لتوّه من خطبة الجمعة في أحد المساجدِ الصغيرةِ بالحي، والحضورُ يؤمّنون وراءَه في خشوعٍ وتضرُّعٍ، وبعدها نزل من منبره معلنًا إقامةَ الصلاة، والمصلون تراصوا في صفوفٍ داخلَ المسجدِ وخارجه، وقد أتوا من كلِّ مكانٍ للاستماع لخطبة الشيخ "عمرو" الذي ذاعتْ شهرتُه بتمكنِه في العلم واطلاعه، وأسلوبه السلس البسيط، الذي يتسرَّبُ للقلوب، ويتمكَّن منها في بساطة ..

عقب الصلاة تجمَّع حولُه المصلون يبغون السلامَ عليه، ويدعون له بأن يُديمَ الله عليه نعمته .. ما أن انفضَّ المصلون من حوله، تناول كوبًا من الماءِ ألقى ببعضِه في جوفه ليبللَ ريقه و ..

- أهلا يا شيخ "عمرو" .

أبعد "عمرو" الكوبَ عن فمِه جانبا، وتطلع لصاحب العبارة للحظةٍ في دهشةٍ، وردَّ قائلا :

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

رمقه الزائرُ ذو الحُلة الأنيقة، واللحية الطويلةِ للحظات في صمتٍ، ثم ربَّتَ على كتفه قائلا :

- لنجلسَ قليلا يا شيخ "عمرو" .. أريدُكَ في موضوعٍ هام .

هتف "عمرو" في بساطةٍ، وهو يدعوه للجلوس قائلا :

- تفضَّل يا أخي .. تحت أمرِكَ .

جلسا سويًا بجوار أحدِ أعمدةِ المسجد، وهتف الرجلُ قائلا :

- في البداية أعرفُكَ بنفسي .. "ياسر ضرغام" مسئولُ شئونِ الدعوةِ برئاسةِ الجمهورية .

نظر إليه "عمرو" ذاهلا، وقال :

- أهلا بحضرتك .. تحت أمرك .

ابتسامةٌ خفيفةٌ علتْ شفتي الرجلِ، وهو يقولُ في هدوء :

- إننا نتابعُكَ جيدًا منذُ فترةٍ، ونعلمُ حُبَّ الناسِ لكَ، كما نعلمُ أيضًا بأنَّ عددَ متابعيكَ يزدادون يومًا بعدَ يوم، وهذا يدلُ على ثقةِ الناسِ وسيطرتك على قلوبِهم .

بدأ القلقُ يتسرَّبُ لعمرو، فهتفَ قائلا :

- مِنْ فضلكَ أريدُ أن أوضحَ لكَ أمرًا من البداية .. إنَّ الدروسَ التي ألقيها في المسجد، وكذلك خطبة الجمعة هو أمرٌ تطوعي منّي بناءً على رغباتِ الناس؛ فأنا ما زلتُ طالبًا في الأزهر، ولم أنهِ دراستي بعد .

اتسعتْ ابتسامةُ الرجلِ أكثرَ وقال بهدوءٍ، وكفُّه تتحسسُ لحيتَه القصيرة:

- لا تقلقْ يا شيخ "عمرو" .. نحن نعلمُ كلَّ شيء .

ردد "عمرو" قائلا، وقد تضاعف قلقه :

- تعلمون ؟!

- نعم .. نعم كلَّ شيء .. نعلمُ أمرَ أبيك " السيد حبيب" الذي فقدَ حياتَه في أحداثِ يناير ثمنًا لأنبوبةِ بوتاجاز، ونعلمُ أيضًا كيف وقفَ أهلُ الحي بجانبكم، ووفرُّوا لكم عربةَ البسبوسة التي تساعدُكَ مع أخوتِكَ على المعيشة و ..

قاطعه "عمرو" قائلا في قلقٍ مضاعف :

- من فضلك أخبرني ماذا تريدُ .. إن قلبي يكاد يتوقف و ..

ضحكةٌ هادئةٌ انبعثتْ من بين شفتي الرجلِ، قال بعدَها في هدوء :

- قلتُ لكَ لا تقلقْ يا شيخ "عمرو" .. إننا نُريدُكَ معنا .

ردَ "عمرو" قائلا في ذهول، وقد جفَّ حلقُه مرةً أخرى :

- معكم .. كيف ؟

- نريدُ شابًا مثلك، متحدثًا، فصيحًا، يعرفُ أمورَ دينِه جيدًا، والأهمُ من ذلك أنَّ الناسَ يحبونه، ويثقون فيه جيدًا .

تطلع إليه "عمرو" في ذهولٍ وتساؤلٍ، وقد تدلَّى فكُّه السفلي في منظرٍ يدعو للضحكِ، فابتسم الرجلُ مستطردا :

- مذيعٌ في برنامجٍ ديني بقناةٍ فضائيةٍ شهيرة، وراتبٌ لا يمكنُ لكَ أن تتخيله .

- أنا ؟ !!

- نعم .. إنَّ الناسَ في حاجةٍ لمنْ يوضحُ لهم أمورَ دينِهم في بساطة .

- وهذا ما أفعله في المسجدِ هنا .

ربَّتَ الرجلُ على كتفه قائلا :

- في المسجد كم سيبلغُ عددُ متابعيكَ مائة ، ألف ، ألفان .. ولكن في القناةِ الفضائيةِ سيتابعُكَ الآلافُ والملايين .. وسيكونُ تأثيرُ كلمتِكَ أكبرَ وأقوى.

- الملايين !

- نعم .. إننا نريدُ توسيعَ القاعدةِ التي تتابعُكَ و ..

قاطعه "عمرو" قائلا، وقد برقتْ عيناه في ظفرٍ :

- وما المقابل ؟

اتسعتْ ابتسامةُ الرجلُ أكثرَ وأكثر، وهو يقول :

- لا مقابل يا شيخ "عمرو" .. لو وافقتَ سنوقعُ العقودَ هذا المساء .

ردَّد "عمرو" قائلا، وكأنَّه في حُلمٍ :

- سيدي أنا لا أدري ماذا أقولُ لكَ و ..

ربَّتَ الرجلُ على كتفه، وهو يقولُ مقاطعًا :

- لا تقلْ شيئًا يا شيخ "عمرو" .. مُبارَك علينا معًا .

واتسعتْ ابتسامته أكثرَ وأكثر .

******

١٢– القِصَاص ..

ساد الحي بأكمله الظلامُ بعدَ أن انقطعتْ الكهرباءُ في مشهدٍ متكررٍ اعتاده الجميعُ خاصةً في الأشهرِ الأخيرة، وغرقتْ المنطقةُ بالكاملِ في ظلامٍ مخيف ..

ومن أحدِ الأزقةِ برزَ "صنهاوي" بجسدِه الرفيعِ وقامتِه الفارهةِ في طريقِه للمِقهى، وقد وضع كفيه كعادته في جيبِ بنطاله، وهو يدندنُ بأحد الألحانِ الشعبيةِ، وقبل أن يتجاوزَ الزُقاقَ وجدهم أمامه ..

ثلاثةٌ من الملتحين يتقدمهم " النص" ..

تراجعَ "صنهاوي" محاولا الفرارَ، ولكن الرجالَ الثلاثةَ حاصروه، وشلوا حركتَه بينما راحَ

"النص" يتطلع إليه في شماتةٍ، وهو يقولُ :

- تقدَّم يا كافر .

راح الثلاثة يجرونه جرًا نحوَ " النص"، فهتفَ في رعبٍ :

- " نص " .. إياك وإلا ..

تحسَّسَ " النص" لحيته، وهتفَ في غضبٍ رهيب :

- وإلا ماذا يا كافر؟ لقد قلتها لكَ من قبل أنك ستدفعُ الثمنَ، والآنَ جاءت لحظةُ الحساب .

قال " النص" ذلك، وأشار لرفاقِه الذين هجموا على "صنهاوي"، وشلوا حركته تمامًا، وفردوا ذراعَه على أحد الأحجار الضخمةِ بجانب الطريقِ، في

حين مدَّ " النص" يده داخل تلابيب جلبابِه، وانتزعَ سنجةً لوَّح بها أمامَ عيني "صنهاوي"، الذي هتفَ في رعبٍ، وهو يبكي :

- أرجوكَ يا " نص " .. سامحني .. خُذْ ما تريدُ من حبوبٍ، ولا أريدُ منكَ مالا ..

قهقه " النص" في جنونٍ وهتفَ غاضبًا، وهو يرفعُ السنجةَ عاليًا؛ ليهويَ بها على كفِّ "صنهاوي" :

- سَبَقَ السيف العزل يا كافر و..

فجأةً ..

عادت الأنوارُ، وغمرتْ المكان ليجدَ " النص" نفسَه مُحاصرًا بأهلِ المنطقةِ، والمعلم

"توفيق" يصرخُ فيه :

- اتركه يا " نص" وإلا ..

قاطعه " النص" صارخًا بغضبٍ، وهو يلوّح بالسنجةِ عاليًا :

- وإلا ماذا يا معلم .. أنتَ أيضًا رزقُكَ من حرام، وغدًا يأتي دورُكَ و..

ابتلع " النص" بقية عبارته حينَ وجدَ ذراعي " فارس" القويتين تطوقان عنقَه في قوةٍ فراحَ يسعلُ بشدةٍ، وقد مالَ وجهُه إلى الزُرقةِ، وسقط سلاحُه من يدِه أرضًا ..

رفعَ رفاقُه أسلحتَهم في غضبٍ، ولكنَّهم تراجعوا حين وجدوا " فارس" يغرسُ سنَّ سلاحِه الأبيض في رقبةِ " النص" التي سالتْ منها الدماءُ، وهو يقول:

- حذارِ أنْ يتحركَ أحدُكم وإلا ذبحتُه أمامَكم .

ثم التفتَ للمعلم "توفيق"، وقال له :

- من فضلك يا معلم .. اتصلْ بمديرية الأمن .

ما أن سمع رفاقُ " النص" عبارة " فارس" حتى أصابهم الذعرُ، وراحوا يلوّحون بأسلحتِهم في وجوه الجميعِ، وهم يتراجعون بظهورهم نحوَ الزُقاق الذي جاءوا منه، وسَرعانَ ما أطلقوا سيقانهم للريح، وقد ذابوا وسط أزقة المنطقةِ العريقة .. في تلك اللحظة التفتَ " فارس" إلى " النص"، وقالَ ساخرًا :

- والآنَ أيُّها " النص" الحقير .. أرني كيف ستقيم حدَّ اللهِ، وقد هربَ رفاقُكَ ؟!

تطلع إليه " النص" في غضبٍ وقهرٍ شديدين، وقال :

- أقسمُ أن تدفعَ الثمن يا " فارس" .

ابتسم " فارس" قائلا، وهو يتناولُ حبلا متينا من " زيزو" :

- سنرى يا " نص" .

ثم هجمَ عليه وراح يقيده، ويشدُّ وثاقه على أحدِ الأعمدةِ الضخمةِ التي توجد أمامَ المِقهى، وقبل أن ينتهيَ من مهمتِه فُوجئَ بسيارةٍ أجرة كبيرة تتوقفُ خلفَهم مثيرةً عاصفةً من التراب، ويهبط منها " الجن" ورفاقه شاهرين أسلحتَهم الرشاشة في وجوه الجميع .

تطلع إليهم " فارس" في حذرٍ، وراح يواصل شدَّ وثاقِ " النص" إلى العمودِ، فهتف به

" الجن" في غضبٍ :

- فُكَّ وثاقَه أيُّها الكافرُ .

تطلع إليه " فارس" في صمتٍ، ولم يُحرِّكْ ساكنًا، فما كان من " الجن" إلى أن طوَّقَ رأسَ

"الشامي" بذراعيه قائلا بغضبٍ، وهو يُصوِّبُ سلاحَه لرأسه :

- فُكَّ وثاقَه وإلا فَجَّرتُ رأسَه .

تطلع إليه " فارس" في غضبٍ صامتٍ، و"الشامي" يرتعدُ بين يديه، وهو يكاد يبكي، فصرخَ

"الجن" في رفاقه :

- هيَّا حُلوا وثاقَه .

هجم "دبانة" و" الأعور" وفكَّا وثاقَ " النص"، وحملاه إلى السيارةِ التي جلس "كرشة" مكانه خلفَ عجلةِ قيادتها ..

حين اطمأن " الجن" أن الجميعَ أصبحَ داخلَ السيارةِ، رَمَقَ " فارس" بنظرةٍ تحملُ الكثيرَ والكثير من المقت والكراهيةِ، وقال في غضبٍ، وهو يدفعُ " الشامي" أرضًا :

- لا تنسَ يا هذا .. ستدفعُ ثمنَ ما فعلته غاليًا .

وبرقتْ عيناه في جنونٍ، قبل أن يُلقيَ بجسدِه داخلَ السيارةِ، التي انطلقتْ بهم مغادرةً المكانَ والحيَّ كلَّه .

******

شحبَ وجهُ "منال" في شدةٍ، وهي تتطلع لوجه الطبيبِ الذي أخبرها منذُ لحظاتٍ بأنَّه لا بدَّ من إجراء العمليةِ لأيمن في ظرفِ ثمانٍ وأربعين ساعة؛ لأنَّ حالته تسوء، ولن يمكنهم الانتظارُ أكثرَ من ذلك .. اسودَّتْ الدنيا في عيني "منال"، وبدتْ لها على الرغم من اتساعِها، وكأنَّها تُطالعها من ثقبِ إبرة ..

راحتْ تجرُّ قدميها جرًا في طريقها للخروج من المستشفى دونَ أن تعرفَ لها هدفا ..

على البوابة الخارجية للمستشفى، وقفتْ حائرةً تتابعُ السيارات التي تنطلقُ أمامَ عينيها كالريح، ثم ألقتْ بجسدِها المُنهك على أحد الأحجارِ الضخمةِ بجوارِ سورِ المستشفى، وهي تغالبُ بصعوبة دموعَها التي تصارعُها لتسيلَ على خدَّيها .. في أعماقها تردَّد صوتُها يموجُ بالمرارةِ والألم :

- يتبقى أربعون ألفا .. من أين لي بمثلِ هذا المبلغ ؟!

تنهَّدتْ في مرارةٍ، وأمامَ عينيها المجهدتين تراقصتْ صورةُ "صلاح عامر" صاحب المحل والمعلم "رضوان" صاحب الشقة حينَ راحتْ لهما لتقترضَ المبلغَ المتبقي لإجراءِ العمليةِ على أن يأخذا كافة الضماناتِ التي تضمنُ لهما حقهما..

كلاهما قابل طلبها بترحيبٍ كبيرٍ وابتسامةٍ واسعة، وقدَّمَ لها دفترَ شيكاته، ولكن على شريطة أنْ تُوقّعَ على ورقة أخرى ..

ورقة الزواج العرفي ..

على الرغم منها تساقطتْ دمعةٌ مريرةٌ، وهي تصرخُ في أعماقها :

- كلهم كلاب .. ملاعين .. لا تعرفُ الرحمةُ طريقا لقلوبهم .

وعقب عبارتها دفنتْ رأسَها بين كفيها، وانخرطت في بكاءٍ حارٍ بعد أن عجزت عن كتمانِ دموعِها أكثرَ من ذلك و ..

- "منال" .. لماذا تجلسين هكذا يا ابنتي ؟

رفعتْ عينيها الغارقتين في بحرٍ من الدموع، ففوجئتْ بالحاج " فرج الجمل" أمامها، مسحتْ دموعَها، وعجز لسانُها عن الردِّ، فهتفَ بها في جزعٍ :

- تكلمي يا ابنتي .. هل أصاب " أيمن" مكروه ؟

- ليس بعد يا حاج .. ولكنهم أخبروني بضرورةِ إجراءِ العمليةِ في ظرفِ يومين، ولم أعدْ أدري ماذا أفعلُ، والمبلغ كبير و..

تنهَّد الحاج " فرج" في راحةٍ قائلا لها، وهو يُقدِّمُ لها لفةً بها رزمةً مالية كانت في جيبِه :

- اعلمي يا ابنتي بأنَّ اللهَ لن يتخلىَ عنكِ أبدًا؛ هذه اللفة بها عشرون ألفا و..

قاطعته "منال" قائلة، وهى تتحسَّسُ المبلغ، وفوق شفتيها ابتسامةٌ مختلطةٌ بالدموع :

- ولكن هذا كثيرٌ يا حاج ، وابنتك " شهد" تحتاجُ لمصاريفَ كثيرة و ..

ربَّتَ الحاج " فرج الجمل" على كتفيها قائلا، قبلَ أن يتجهَ لسيارته :

- كله من فضلِ اللهِ يا ابنتي .. هيَّا ادفعي لهم هذا المبلغ، وقريبا يأتيكِ المعلم "توفيق" بمبلغٍ آخرَ .

راحتْ "منال" تتحسَّسُ المبلغَ مرةً أخرى، ثم أسرعتْ عائدةً للمستشفى، وتوجهتْ لقسمِ الحساباتِ فهتف بها المسئولُ بعد أن أخذ المبلغَ، وناولها الإيصالَ :

- يتبقى عشرون ألفا .. متى ستقومين بدفعِها ؟

هتفتْ "منال" بعد أن ابتلعتْ ريقها بصعوبةٍ :

- قريبا بإذنِ الله .

ردَّ عليها المسئولُ قائلا بجمود :

- اعلمي أن ابنكِ لن يدخلَ العملياتِ قبل تسديدِ بقيةِ المبلغ .

تطلعتْ إليه بنظرة ألمٍ مريرة، قبلَ أن توليه ظهرُها مغادرةً المستشفى، وهي تجرُّ قدميها - اللتين أصبحتا غير قادرتين على حملها - جرًا، وتعلقتْ عيناها بالسماء، وشفتاها ترددان :

- ياااااااااارب .

******

تغيَّرتْ حياةُ "عمرو حبيب" وأسرته تمامًا بعد ذلك اللقاء، حيثُ تركَ عربة البسبوسة لصنهاوي الذي تعهَّد أمامَهم جميعًا في المِقهى بأنه سيقلعُ عن تجارة البرشامِ، ويبدأ حياةً جديدةً، وأنَّ اللهَ سبحانه وتعالى قد أرسلَ إليه فرصةً جديدةً على يد الشيخ "عمرو" عليه ألا يضيعها، أما "عمرو" وأخوته فقد اشتروا شقةً جديدةً واسعةً في شارع حسن الأكبر بعد أن رفض "عمرو" أن يتركَ الحي والمنطقة التي تربُّوا فيها، على الرغم من قيمةِ العقدِ الكبيرِ الذي وقَّعه مع

القناة، والذي يُتيحُ له السكنَ بأرقى أحياء القاهرة ..

وكانت فرحةٌ كبيرةٌ شاركه فيها جميعُ سكانِ الحي، وأكدوا له جميعًا بأنَّ ما وصلَ إليه هو بفضلِ صبرِ ودعواتِ أبيه الراحل " السيد حبيب"، الذي أفنى عمرَه من أجله وأجل أخوته حيثُ فقدَ حياتَه في مشاجرةٍ وسط الطابور، وهو يغيّرُ أنبوبة البوتاجاز ليأكلوا .. ولكن ها هو اللهُ سبحانه وتعالى الذي لا ينسي عبادَه قد أبدلهم خيرًا ..

هتف المعلم "توفيق" قائلا، وهو يحتضنه في سعادةٍ :

- تستحقُ كلَّ خيرٍ يا شيخ "عمرو" .. يا غالي يابن الغالي .

وضحك "أحمد راغب" قائلا، وهو يعدلُ وضعَ نظارته فوق عينيه في سعادةٍ:

- من اليوم أصبح لنا صوتٌ يُعبِّرُ عن مشاكلنا في الإعلام .. لا تنسَ يا شيخ "عمرو" أن تتكلمَ عنها، وخاصة الكهرباء التي تنقطعُ ليلا ونهارا و ..

قاطعه "سمير مصباح" ضاحكا، وهو يقولُ:

- إنَّه برنامج ديني يا "راغب"، وليس أحدَ برامجِ التوك شو .

ابتسم "عمرو" في هدوءٍ، وقال:

- لديك كلُّ الحقِ يا أستاذ "سمير" .. ولكن هذا لا يمنعُ من التعرُّضِ لمشاكلنا الحياتية؛ فالدينُ لا يمكنُ فصَله عن الحياةِ إطلاقًا .

ربَّت "أحمد راغب" على كتفه قائلا :

- ربنا يوفقك يا شيخ "عمرو" .

في تلك اللحظةِ انعقدَ حاجبا المعلم "توفيق" في قلقٍ، حين لمحَ حفيدَه " شادي" يدخل المِقهى بعينين مختنقتين بالدموع، انفطرَ قلبُ الجد لمنظر حفيدِه، ونهضَ مسرعًا إليه، وهو يهتفُ به في جزعٍ:

- " شادي" حبيبي .. ما بكَ ؟

تطلع إليه " شادي" في ألمٍ، ولم يردْ فأخذه الجَد من يده لأحدِ أركانِ المِقهى، وهتفَ بزيزو وهما يجلسان على مقعدين متجاورين:

- ليمون يا "زيزو" .

والتفت لحفيدِه قائلا في لوعةٍ:

-تكلَّم يا ولدي .. ماذا حدثَ ؟ ولمَ كل ذلك الحزن ؟

دمعت عينا " شادي"، وقال بصوت باكٍ انفطرَ قلبُ جده من أجله :

- لم أعدْ أشعرُ بالراحةِ يا جدي، لا مع أبي ولا مع أمي، أشعرُ بينهم بالغربة، هل تصدق هذا يا جدي ؟

انفطرَ قلبُ الجَد لكلام حفيدِه، الذي يُقطرُ يأسًا ومرارةٍ، وقبل أنْ يردَّ استطردُ " شادي" قائلا بصوتِه الباكي :

- أخبرني يا جدي أين يجدُ الأبناءُ راحتَهم إن لم يجدوها في بيوتِ آبائهم ؟

ناوله المعلم "توفيق" كوبَ الليمون قائلا بأسى :

- قلتُ لكَ من قبلُ تعال عندي يا " شادي"؛ أنا وجدتك نعيشُ وحدَنا، وسنفرحُ بكَ، وستملأ علينا الدنيا .

هتفَ الحفيدُ قائلا بمرارة :

- هذا ليس حلا يا جدي .. من حقي أن أعيشَ بين أبي وأمي ولكن .. ولكن بعد انفصالهما صار كلٌّ منهما يفكِّرُ في نفسِه فقط .

حاولَ المعلم "توفيق" جاهدًا أن يخفيَ آلامَه، وقال ضاحكا، وهو يتحسسُ وجنتي حفيدِه :

- " شادي" يا ولدي .. إنكَ لم تعدْ صغيرًا الآنَ .. لقد صرتَ شابًا على مشارفِ الرجولة، واعلم أنَّ الشدائدَ دائمًا هي التي تخلقُ الرجالَ، وحفيدُ المعلم "توفيق" لا بدَّ أن يكونَ رجلًا، لا تهزمه الصعابُ؛ ليحققَ مستقبَله الذي يحلمُ به ثم .. ثم هل نسيتَ أمنيتكَ في أنْ تُصبحَ طبيبًا مشهورًا يخدمُ أهلَ حيِّه البسطاء ؟

علتْ شفتي الحفيدِ ابتسامةٌ مختلطةٌ بالدموع، وقال وهو يُلقي بجسدِه في أحضانِ جده، وقد استعادَ بعضًا من هدوئه :

- حفظكَ اللهُ يا جدي .. حقا لا يمكنني أنْ أتخيلَ حياتي بدونكَ .

أخذه المعلم "توفيق" بقوةٍ بين أحضانه، وهو يحاولُ جاهدًا أن يكتمَ دموعَه، وعلى الرغمِ من كلِّ محاولاتِه هزمته دمعةً وحيدةً، سالتْ على خدِّه ساخنةً، ولكنه سَرعانَ ما بادرَ بمسحِها، وقلبُه ينتفضُ من شدةِ الألم ..

لقد قالها الصغيرُ بملءِ فِيه " أين يجدُ الأبناءُ راحتَهم إنْ لم يجدوها في بيوتِ أبائهم " ..

ليتَ كلَّ أبٍ وأمٍ يدركون مدى الجُرمِ الذي يرتكبونه في حقِ أبنائِهم، وهم يتخذون قرارَ الانفصال ..

ليت كلا منهم يكونُ صادقا مع نفسِه، ويرى عيوبَه قبلَ أن يرى عيوبَ الآخر ..

ليت كلا منهم يجدُ للآخر ولو عذرًا واحدًا؛ ليغفرَ له ويتحمله لتستمرَ الحياةُ، ولا يكون أبناؤنا هم الضحيةُ، ويدفعون ثمنَ تهورِ ورعونةِ الآباء ..

نعم .. يا ليت !

******

بخطى يائسة، واصلتْ "منال" خطواتِها، وقد عادتْ لتوّها من المستشفى بعد أن استأذنتْ من عملها للاطمئنانِ علي ابنها " أيمن"، وقد بدأ الظلامُ يُرخي بسدولِه على صفحةِ الكون، وغرق الحيُّ رويدًا رويدًا في الظلام خاصةً مع انقطاع الكهرباءِ الذي تعوَّد عليه أهلُ الحي، وكان المؤذن قد انتهى منذُ لحظاتٍ من أذان المغربِ في المسجد المجاور ..

تذكرتْ " أيمن" في تلك اللحظةِ، فانطلقتْ من أعماقها تنهيدةٌ حارة، وهي تجاهدُ عينيها باستماتةٍ كي لا تُفرغ ما تمتلئ به من دموع قهرٍ وألمٍ ويأس و ..

- "منال".

ارتجفَ جسدُها حينَ انبعثَ من خلفها ذلك الصوتُ الخشنُ بغتةً، فاستدارتْ لتُفاجأ بكرشة أمامَها بجلبابِه الأبيض، وملامحه البغيضة فانقبضَ قلبُها، وهي تُقلبُ بصرَها في الظلام المحيطِ بها في رهبةٍ .. هتف " كرشة " قائلا في صرامةٍ، وأصابعُه تعبثُ بحبَّات مسبحته :

- ما زلتُ في انتظار ردكِ .

رمته بنظرةٍ لا مبالية، واستدارتْ تواصلُ طريقَها لشقتها، فهتفَ بها في غضبٍ قائلا :

- لم يعدْ لدىَّ خيارٌ آخر .

وعقب عبارته انشقَّ الظلامُ من حوله عن ثلاثةٍ من الملثمين، هاجموا "منال" من الخلف وحاولوا شلَّ حركتها، وتكميم فمها، ولكن صرخاتَها الهلعة راحتْ تُدوِّي في أرجاءِ الحي ..

وفجأةً ..

وجد " كرشة " ورفاقة أنفسُهم محاصرين بأهل الحيِّ، وقد حملَ بعضُهم المصابيحَ التي ألقتْ ظلالا مخيفةً على العصي، والسكاكين، والحجارة التي يحملها البعضُ الآخر ..

من بين الجموع خرجَ صوتُ المعلم "توفيق" قائلا بصرامةٍ :

- اتركوها إذا أردتم الخروجَ سالمين .

تركَ الملثمون الثلاثة جسدَ "منال" الذي يرتجفُ في شدةٍ يهوي أرضًا، ورفعوا أسلحتَهم في تحفزٍ، في حين كان " كرشة " يصرخُ في وجه ال

معلم "توفيق" بغضبٍ :

- عُد إلى مقهاكَ أيُّها العجوزُ الخَرِف، ولا شأنَ لكَ بما يحدث .

تقدَّمَ المعلم "توفيق" بين عددٍ من الجموع المحاصرة في ثباتٍ قائلا :

- لن أعودَ بدونها، وأرني ماذا ستفعلُ مع العجوزِ الخَرِف .

زأرتْ الجموعُ المحيطةُ في غضبٍ شديد، وظلالُ المصابيح تتراقصُ فوقَ الأسلحةِ التي يلوِّحون بها في غضبٍ، فتراجع الملثمون للوراءِ، وهم يلوحون بأسلحتهم، وقد تسلل الرعبُ لقلوبهم رغمَ قوةِ الأسلحةِ التي بأيديهم ..

ارتفعَ حاجبا " كرشة " في غضبٍ، وهو يرى تراجعَ رجالِه فرفعَ سلاحَه صارخًا :

- لا بدَّ من تأديبهم يا رجال .. هيا .

وما أنْ رفعَ سلاحَه صوبَ المعلم "توفيق" حتى تلقى ساعده ضربةً قويةً أجبرته على التخلي عن سلاحِه الذي وقعَ أرضًا تحت أقدامِ " فارس" الذي ظهرَ من خلفِه، وهو يقولُ بغضبٍ، وقدمُه تغوصُ في معدةِ " كرشة " :

- يبدو أنكم لا تتعلمون أبدًا .

وما أن سقط " كرشة "، حتى هجمَ أهلُ الحي، وزأرتْ حناجرُهم بصرخاتٍ حانقةٍ غاضبة، ترددَ صداها في أرجاءِ الحي، وزلزلتْ قلوبَ الملثمين الثلاثة، وهم يلحسون ترابَ الأرضِ تحتَ أقدامِ أهالي الحي الغاضبة، وقد أنستهم المفاجأةُ أسلحتَهم التي لم تطلقْ رصاصةً واحدةً .. صُراخ " كرشة " ينبعثُ من تحت الأقدامِ في غضبٍ :

- جميعكم ستدفون الثمنَ و ..

ابتلع بقيةَ عبارتِه حينَ فُوجئَ بنصلِ سكينٍ حادٍ يغوصُ في قلبِه حتى مقبضه، فتراختْ رأسُه أرضًا بلا حراك وسقط جثةً هامدةً، وقد انفرط عقدُ مسبحته، ووطأتْ الأقدامُ حبَّاتِها التي تلوثتْ بدمائِه القذرة ..

عقب مقتلِ " كرشة " أصابَ الجميعُ حالةً من الجمود، وقد جحظتْ عيونُهم في جنون، وهم يتطلعون لجثته ..

" كرشة " الذي اتخذَ من الدينِ ستارًا؛ ليحققَ مآربَه، ويهتكَ عِرضَ امرأةٍ فضَّلتْ الموتَ على أن تُضحيَ بشرفِها ..

" كرشة " الذي لم يتوقفْ لسانُه منذُ فترةٍ طويلةٍ عن ترديد كلمات " الله .. الدين .. الرسول " ولم يره أحدُهم يومًا يُصلي أو يدخلُ مسجدًا أو يصنعُ معروفا مما أمرنا به الدين ..

كسرَ " فارس" حالة الجمودِ التي أحاطتهم، وهو يصرخُ قائلا في غضبٍ، وقدمُه تركلُ جثةَ

" كرشة " :

- لا يمكن أن يكونَ هؤلاء الملاعينَ هم حُماة الدين .. لا يمكن .. مستحيل.. مستحيل ..

هجمَ عليه المعلم "توفيق" و" الشامي" وحالا بينه وبين جثة " كرشة "، وأتاه صوتُ المعلم

"توفيق" يقولُ في ألمٍ، وهو يتطلعُ لجسد "منال" الذي لم يتوقفْ عن الارتجافِ بعد، وقد التصقتْ بالحائط :

- يكفي هذا يا " فارس" .. إنَّه الآنَ بين يدي الله .

تطلع إليه " فارس" في صمتٍ، وأنفاسُه تتلاحقُ في غضبٍ، في نفس اللحظة التي امتلأ بها المكانُ برجالِ الأمِن الذين حاصروا الجميعَ، وراح كبيرُهم يتطلعُ لجثة " كرشة "، ولحيته الكثة التي اصطبغتْ بدمائِه القذرة، وألقى نظرةً أخرى على جسدِ "منال" الذي يرتجفُ في شدةٍ، وسط دموعِها التي لم

تتوقفْ، ثم أمرَ رجاله بحملِ الجثةِ لعربةِ الإسعافِ التي وصلتْ للتوّ، والقبض على الملثمين الثلاثة الذين أسرعوا يقدمون أيديَهم لرجالِ الشرطة لتحيط بها الأغلالُ، وهم لا يصدقون أنَّهم ما زالوا على قيدِ الحياةِ، وأنَّ الشرطة قد وصلت قبلَ أنْ يفتكَ بهم أهلُ الحي ..

وغادر رجالُ الشرطة المكانَ بحملهم بعد أن وعدَهم المعلم "توفيق"، وبعضٌ من أهل الحي على اللحاقِ بهم في المديريةِ لاستيفاءِ المحضر ..

وما أن غادرتْ آخرُ سيارةٍ للشرطة المكانَ حتى انخرطتْ "منال" في بكاء حارٍ .. يائسٍ .. مرير !

******

١٣- عمرو حبيب ..

كان الشيخُ "عمرو حبيب" داخلَ حجرتِه يستعدُ لبدءِ برنامجِه، وقبلَ الخروجِ على الهواءِ بلحظاتٍ، وجدَ بابَ حجرته يُفتحُ، ويدخل منه كبيرُ المعدين بالقناة الذي وقفَ يتطلع لعمرو لحظاتٍ في توترٍ، ثم مدَّ يدَه إليه بورقةٍ قائلا، وهو يحاولُ الهروبَ بعينيه بعيدًا :

- هذا موضوعُ حلقتِكَ التي ستُبثُ الآنَ .

تطلع إليه "عمرو" للحظاتٍ حاولَ فيها أن يكشفَ سببَ توترِه، ثم تناول الورقةَ منه، وما أنْ طالعَ مُحتواها حتى انعقدَ حاجباه في ذهولٍ وغضب، في نفس اللحظةِ التي كان فيها المخرجُ ينادي في الجميع داخلَ البلاتوه باستدعاءِ الشيخ "عمرو" والاستعداد، وبدأ فعليًا في العدِّ التنازلي لبدءِ الحلقة ..

قبضَ "عمرو" على الورقةِ التي بيده في غضبٍ، ثم اتجه في خطواتٍ حازمةٍ نحوَ الاستوديو، واتخذَ مكانَه في اللحظةِ التي أتاه فيها صوتُ المخرج :

- جاهز يا شيخ "عمرو" .

هزَّ "عمرو" رأسَه علامة الإيجابِ مع صوت المخرج الذي يتردُ في الاستوديو :

- ثلاثة .. اثنان .. واحد .

ما أن انتهى المخرجُ من العدِّ، حتى رسمَ الشيخ "عمرو" ابتسامةً هادئةً فوقَ شفتيه؛ ليُخفيَ توترُه، وبدأ قائلا في هدوءٍ، وهو يَقلبُ الورقة التي معه فوقَ ظهرها :

- السلامُ عليكم ورحمة الله وبركاته أحبائي في كلِّ مكان ..

موضوع حلقتنا اليوم هو " الطريقُ إلى الجنة " .

وصمتَ قليلا للحظةٍ ابتلع فيها ريقه في توترٍ، ثم استطردَ قائلا في حسمٍ :

- واهمون أحبائي من ربطوا بينَ دخولِ الجنةِ، ورضا الحاكم ..

واهمون مَنْ ظنوا أنَّ رضا اللهِ في طاعتهم .

دخولُ الجنةِ مرتبطٌ بعملك فقط بأنْ تنفذَ ما أمركَ اللهُ به، وتبتعدُ عمَّا نهاكَ عنه ..

في تلك اللحظةِ نقلَ الجهازُ المثبتُ في أذنِ الشيخ "عمرو" صوتَ المخرج، وهو يقولُ له :

- الورقةُ يا شيخ "عمرو" .. لقد نسيتَ الورقة .. التزمْ بالورقةِ التي أمامَكَ .

ولكن "عمرو" لم يعرْ لحديثِه أدنى اهتمامٍ، واستطردَ قائلا في انفعالٍ عبرَ الشاشة :

- واهمون مَنْ اتخذوا العنفَ والقوةَ سلاحًا لنشرِ الدين ..

فديننُا هو دينُ السلام ..

اللهُ هو السلام ..

والسلامُ اسمٌ من أسمائه الحسنى ..

وفجأةً ..

انقطعَ البثُّ التليفزيوني مع صرخاتِ المخرجِ الغاضبةِ التي لم يهتمْ بها "عمرو"، وهو يلقي بالأجهزةِ المثبتةِ بأذنِه وملابسِه أرضًا، واندفعَ يُغادر المكانَ كالعاصفة، وألقى بجسدِه داخلَ سيارته، وأعماقُه تشتعلُ بغضبٍ عارمٍ اجتاحَ كيانَه كلَّه، وغادرَ البوابة منطلقًا بسيارته إلى غيرِ رجعة، غيرَ مبالٍ بتحيةِ رجالِ الأمنِ له ..

كانتْ أنفاسُه تتلاحقُ في سرعةٍ، وقد انعقدَ حاجباه في غضبٍ شملَ كلَّ ذرةٍ في كيانه ..

الآنَ فقط كشفَ وجوهَهم الحقيقية ..

إنَّهم يريدون منه أن يكونَ ستارًا يتخَّفون وراءَه ؛ ليحققوا مآربَهم ..

ستارًا يُنفذُ لهم مطالبهم وسياستهم دونَ أنْ يكونَ له حقُ الردِّ أو الاعتراض ..

واليومَ طلبوها صريحةً ..

نعم .. طلبوها بلا حياءٍ أو خجل ..

طالبوه أنْ يخرجَ على الشعبِ من خلالِ برنامجِه والتأكيدِ على أمورٍ بعينها ..

ضرورةُ الوقوفِ خلفَ الحاكم، وتحريم الخروجِ عليه مهما كانت الظروف..

قراراتُ الحاكمِ نافذةٌ لا رجعةَ فيها، وعلى الشعبِ التأييد فقط ..

أمنُ وأمانُ الشعبِ مرتبطٌ ببقاءِ الحاكمِ في منصبه ..

رضا اللهِ ودخولُ الجنةِ مرتبط برضا الحاكم وجماعتِه وتأييدِهم ضدَ الخونةِ أعداءُ النظام ..

فكَّ "عمرو" رباط عنقه، وقد امتلأ حلقُه بغُصَّة من الألم والمرارة، وعيناه تتابعان صوره الكبيرة على الحواملِ الضخمةِ المنتشرةِ في كلِّ الشوارع والميادين، وتحتها اسمُ برنامجه بالخطِ العريض ..

هزَّ رأسَه، وهو يتمتمُ في مرارةٍ، وقبضتاه تعتصران مقودَ سيارته التي تنطلقُ كالريح :

- كم كنتَ ساذجًا يا شيخ "عمرو" حينَ صدقتهم، وظننتَ أنَّهم يُقدرون علمَكَ ويحترمونه .

وصمتَ للحظةٍ برقتْ فيها عيناه في غضبٍ، وهو يستطردُ في حسمٍ :

- ولكنني لن أحققَ لهم ما يريدون، سأفضحُهم في كلِّ مكان، وأكشفُ آلاعيبهم..

لا بدَّ وأنْ يعرفَ الشعبُ حقيقتَهم .. نعم لا بدَّ .

وتضاعفَ بريقُ الجنونِ في عينيه مراتٍ ومرات !

******

هناك يقينٌ بداخل كلِّ المصريين بأنَّ بلادَهم مصرَ في معيةِ اللهِ وحفظِه دومًا وأبدًا، وأنَّ المِحنَ مهما طالتْ واشتدتْ فإنَّ الفرجَ آتٍ لا محالة، على الرغم من الوضعِ السيئِ الذي كانتْ تمرُّ به البلادُ في تلك الفترةِ العصيبةِ من تاريخِ مصرَ، التي انقسمَ شعبُها على نفسِه ما بين معارضٍ لسياسةِ حُكمِ جماعةِ الإخوانِ، وما بين مؤيدٍ لها بروحِه ودمِه ..

وشهدتْ البلادُ حالةً من الشدِّ والجذبِ بينَ مُعارضي الرئيسِ ومؤيديه، بدتْ وكأنَّها مباراةٌ بينَ طرفين يبغي كلٌّ منهما الانتصارَ لرأيه بغضِ النظرِ عن الوسيلةِ أو النتيجةِ، والحقيقةُ كانَ لكلٍّ منهما شيءٌ من المنطقِ في وجهةِ نظرِه..

فالمعارضون يرون أنَّ الرئيسَ فشلَ في معالجةِ المشكلاتِ الاقتصاديةِ والأمنيةِ التي شهدتها البلادُ خلالَ عامٍ كاملٍ من حكمِه ..

في حين يرى المؤيدون أنَّ الرئيسَ لم يأخذْ فرصتَه كاملةً منذُ استلامِه للسلطة، وأنَّه يجبُ أن يُكملَ ولايته ومدتُها أربعُ سنواتٍ كاملة باعتباره أولَ رئيسٍ منتخبٍ بعدَ ثورةِ يناير ..

ومما زادَ الأمرَ سوءًا ذلك الإعلان الدستوري المُكمِّل الذي أصدره الرئيسُ المصري، والذي عَمِلَ على نشرِ حالةٍ من اللغطِ والبلبلةِ بينَ المصريين..

داخل المِقهى كان "الشامي" يسألُ المعلم "توفيق"، وهم يتابعون التلفازَ :

- ما معنى هذا الإعلان الدستوري يا معلم "توفيق" ؟

تطلعَ إليه المعلمُ "توفيق" للحظاتٍ، وحاولَ البحثَ عن ردٍّ، فلما فشلَ هزَّ جسدَه الضخمَ، وراحَ يُهمهمُ بعباراتٍ غاضبةٍ، وكأنَّه سيهمُّ بسبِّه، فابتسمَ "سمير مصباح" قائلا للشامي :

- يعني أنَّ الرئيسَ قد جَمَعَ بينَ السلطتين التشريعية والتنفيذية، وبذلك صارتْ جميعُ قراراتِه مُحصَّنةً لا يمكنُ لأحدٍ الطعنَ عليها أمامَ أيِّ جهةٍ قانونية.

تطلعَ إليه "الشامي" في بلاهةٍ، ولم يفهمْ حرفًا واحدًا مما سَمِعَ، فاتسعتْ ابتسامةُ "سمير مصباح"، واستطردَ قائلًا :

- هل يمكنُ لممثلٍ أنْ يقومَ بدورِ اللصِ والضابطِ في نفسِ الوقت ؟

هزَّ "الشامي" رأسَه قائلا :

- لا .. لا يمكن .

التقط المعلم "توفيق" طرفَ الحديثِ قائلا بصوتِه الجَهُوري، وقد فَهِمَ المَغزَى الذي يهدفُ إليه "سمير مصباح" :

- من الآخر يا شامي إنَّ رئيسَ الجمهوريةِ صارَ بعدَ هذا الإعلانِ هو القاضيُّ والجلادُ في نفسِ الوقت .

ربَّت "سمير مصباح" على كتفِ المعلم "توفيق" قائلًا :

- اللهُ يفتحُ عليك يا معلم، هذا هو ما أقصدُه تمامًا .

عَدَلَ "أحمد راغب" نظارتَه، وقالَ وهو يضع ساقا فوقَ ساقٍ بلهجةِ العالمِ ببواطنِ الأمور :

- وبهذا سيساعدُ هذا الإعلانُ على صناعةِ فرعونٍ وديكتاتورٍ جديد .

هتفَ "سمير مصباح" قائلا بانفعالٍ :

- ليس هذا فحسب يا "راغب" .. إن هذا الإعلانَ سيقضي على الديموقراطية التي خرجَ الشعبُ من أجلها في ثورةِ الخامس والعشرين من يناير و ..

قاطعه المعلم " توفيق " قائلا في غضبٍ واضحٍ :

- وهذا سيُمكِّنُ جماعةَ الإخوانِ من الحُكمِ إلى الأبد .

رفعَ أحدُ الحضورِ عينيه عن جريدةٍ أمامَه قائلا في انفعالٍ، وقد تابعَ الحوارَ :

- لا تنسوا أنَّ الظروفَ التي تمرُّ بها البلادُ تحتاجُ لمثلِ تلك القراراتِ الاستثنائية؛ حتى يستطيعَ الرئيسُ مباشرةَ مهامِه وحمايةِ البلاد .

وهتفَ آخرُ قائلا بحماس :

- هذا الإعلانُ ضروري للقضاءِ على الفسادِ الذي استشرى في البلادِ لعقودٍ طويلة .

- هذا الإعلانُ الدستوري سيكونُ بمثابةِ الدبةِ التي قتلتْ صاحبَها .

واحتدَّ النقاشُ، وعلا صوتُ زبائنِ المِقهى ما بينَ مُؤيدٍ ومعارضٍ، واحمَّرتْ الوجوهُ، ونفرتْ العروق ..

ولم يعدْ الهدوءُ مرةً أخرى إلا بعدَ أنْ هوت عصا "عرفة الضبع" على إحدى موائدِ المِقهى محدثةً دويًّا شديدًا مع صوتِه الكريهِ، وهو يقول بغضبٍ موجهًا حديثَه للمعلم "توفيق" :

- ماذا حدثَ يا "توفيق" ؟ أهذا مِقهى شعبي أم مجلس الشعب ؟

ومما يبعثُ على الدهشةِ أنَّ الجميعَ تطلعوا إلي "عرفة الضبع" في صمتٍ غاضبٍ دونَ أن يتفوه أحدُهم بحرفٍ، وبدأوا يغادرون المِقهى واحدًا تلوَ الآخرِ، في حينَ هتفَ المعلم "توفيق" قائلا بهدوءٍ، وكأنَّ شيئا لم يحدثْ :

- شيشة المعلم "عرفة" يا زيزو .

ألقى "عرفه الضبع" جسدَه فوقَ مقعدِه، وشفتاه ترددان همهماتٍ حانقةً غيرَ مفهومةٍ، وقد أرهفَ أذناه كعادته، وأسندَ رأسَه على الحائطِ، تناولَ مبسمَ الشيشة من " زيزو" الذي ابتعدَ عنه في سرعةٍ قبلَ أنْ تناله إحدى نفحاتِه، فقالَ له "عرفة " وهو يُنفِّثُ دخانَ شيشته مشيرًا للتلفاز :

- هل هذا التلفازُ لا يذيعُ إلا الأخبارَ يا صبي العالمة ؟! أين قناةُ التت ؟

وعقبَ عبارتِه ضجَّ مَنْ تبقى مِنْ الحضورِ بالضحك !

******

١٤- وكانت ليلة ..

فجأةً ..

وجدته أمامَها يتطلعُ إليها في حبٍّ وعشقٍ واضحين، وقد تاه بعينيه في سحرِ عينيها الجميلتين .. هتفتْ به، وقلبُها يرقصُ بداخلِها في سعادةٍ :

- فارس .. عيناكَ .

وضعَ أنامله فوقَ شفتيها؛ ليمنعَها من الحديثِ، ثم اقتربَ منها، وعيناه ما زالتا معلقتين بعينيها حتى شعرتْ بحرارةِ أنف اسِه تلفحُ وجهَها بلا رحمةٍ، فأغمضتْ عينيها، ولم تدرِ إلا وشفتاه تلتهمان شفتيها في قُبلةٍ طويلةٍ، وقد احتوى رأسَها وجسدَها بين ذراعيه القويتين، فشعرتْ وكأنَّها تذوبُ داخله بجسدِها وروحِها وكيانِها ..

رنينُ هاتفِها ينطلقُ في تلك اللحظةِ، فتفتحُ عينيها في ضيقٍ، لتجدَ نفسَها وحيدةً فوقَ فراشِها، ورنينُ الهاتفِ ما زالَ يتواصلُ في إصرارٍ ..

تنطلقُ من حلقِها تنهيدةٌ حارة، وهي تتحسَّس شفتيها مكانَ قبلةِ " فارس"، وقد أسبَّلتْ عينيها متجاهلةً رنينَ الهاتفِ، الذي توقّف دونَ أنْ تُكلفَ نفسَها لتعرفَ هوية المتصل ..

مرةٍأخرى انطلقتْ من حلقها تنهيدةٌ حارة، وأصابعُها تتحسَّسُ رقبتها وخدَّها لتتخللَ شعرَها الطويل، الذي تهدَّل فوقَ كتفيها وصدرِها في رقةٍ، وقد ارتسمتْ فوقَ شفتيها ابتسامةُ سعادة، وهي ما زالتْ تتذكرُ تفاصيلَ ذلك الحُلمِ الذي عاشته منذُ لحظات ..

هتفتْ بأعماقها في سعادةٍ، وهي تعتدلُ جالسةً فوقَ فراشِها، وتتناولُ إحدى سجائرِها الرفيعة لتشعلها، وتنفِّثُ دخانَها في استمتاع :

- تُرى .. ماذا تفعلُ الآنَ يا " فارس" ؟ كم أشتاقُ إليكَ !

وصمتتْ قليلا، وعيناها على ساعةِ الحائطِ المواجهِ للفراشِ، والتي تجاوزتْ عقاربُها التاسعة مساءً بقليل، ثم استطردتْ قائلةً، وقد علتْ شفتيها ابتسامةٌ لخاطرٍ جالَ بخاطرها ولاقى هوى في نفسها :

- ولمَ لا ؟ ستكونُ مفاجأةً جميلة .. نعم سأفاجئه في شقته، وأنتزعُه منها؛ لنقضيَ سهرتنا معًا، وتكتحل عيناىّ بعينيه ..

غادرتْ فراشَها في نشاطٍ، وهي تُطفئ سيجارتَها، وتتجه صوبَ صِوانِ ملابسِها، وتوقفتْ أمامَه لثوانٍ، وقع فيها نظرُها على ثوبٍ أسودَ مُزخرف بنقوشٍ بيضاءَ من قطعةٍ واحدة ، طالما مدحَ " فارس" في جمالها، وهي ترتديه، وكثيرًا ما كان يصفها بالملكة أو الأميرة ..

تناولته وألقته فوقَ فراشها، واتخذتْ طريقَها نحوَ حمامِها الخاصِ الملحقِ بغرفتِها، تردّدُ في سعادة :

- حتما سيقولُ أنني مجنونةٌ .. وماذا في ذلك ؟! أنا بالفعلِ مجنونةٌ بحبه، وهو يعرفُ ذلك .

مرةً أخرى تطلعتْ للسعادةِ البارزةِ على وجهها في مرآةِ الحَمَّام، وقلبُها يرقصُ بين ضلوعِها في سعادةٍ، وراحتْ تخلعُ ملابسَها، ثم خطتْ بقدميها داخلَ حوضِ الاستحمامِ لتتركَ جسدَها فريسةً لشلالِ المياهِ المُنسابِ فوقَ جسدِها - وقد أغمضتْ عينيها - علّها تُطفئُ نارَ الشوقِ المستعرةِ بداخلها ..

حالةٌ من الهدوءِ والصفاءِ النفسي سيطرتْ عليها تمامًا، والمياهُ تنسابُ فوقَ جسدِها متخللةً ثناياه في نعومةٍ، فشعرتْ براحةٍ عجيبةٍ قبلَ أن تفتحَ عينيها، وقد انتهتْ من حمَّامِها، وقطراتُ المياه تلمعُ فوقَ جبينِها ووجهِها كحبَّاتٍ من اللؤلؤ ..

مدَّت يدها تلتقط مِنشفتَها المتواجدةَ فوقَ الحاملِ الأبنوسي خلفَ الستارةِ في آليةٍ، واتسعتْ عيناها حين وجدتْ المِنشفة لا تستجيبُ لها، في اللحظةِ التي لمحتْ فيها خلفَ الستارةِ ظلًا - غيرَ واضحِ المعالم – يقبضُ على طرفِ المِنشفةِ بيده، وقد ارتدى ملابسَ سوداءَ أخفتْ جسدَه وملامحَه ..

تلاحقتْ أنفاسُها في سرعةٍ، وازدادَ اتساعُ عينيها أكثرَ وأكثر، وراحتْ تبحثُ عن صوتِها بلا جدوى و ..

فجأةً سقطتْ أرضًا مغشيًا عليها، في حين توجَّه الشبحُ في خطواتٍ آليةٍ جامدةٍ نحوَ شُرفةِ حجرتِها !

******

استمرَّ التيارُ الكهربائي بلا انقطاعٍ لمدةٍ تجاوزتْ الساعاتِ الثلاث، في سابقةٍ تكادُ تكونُ الأولى منذُ شهرٍ كامل .. ألقى " فارس" نظرةً على الساعة الكبيرة التي تتصدرُ واجهةَ المِقهى، والتي تجاوزتْ الثانية صباحاً بدقائقَ، وقال ضاحكا، وهو يغلقُ الطاولة :

- لم يعدْ لي منافسٌ في هذا المِقهى يا معلم "توفيق" .

همهمَ المعلم "توفيق" بكلماتٍ غير مفهومةٍ تنمُّ عن عدمِ الرضا من خلفِ مكتبه - ضحك لها الحضور الذين يتوقعون ردَّه - وهو يُراجعُ حساباتِ المِقهى، في حين هتف "سمير مصباح"، وهو يدقُّ بقبضةِ يده على الطاولة :

- غدا ألاعبكَ بطريقةٍ جديدةٍ يا " فارس" وسوف ..

قاطعه " فارس" ضاحكا، وهو يقول :

- غدا لن تجدني؛ فأنا أفكرُ جديًّا في الاحتراف .

ضحك جميعُ الحضور عقبَ عبارةِ " فارس" الذي مدَّ يده ، وساعدَ "سمير مصباح" على النهوض، واتجها معًا لبابِ الخروجِ، بعد أن قال " فارس" ضاحكا للمعلم "توفيق" الذي مازالَ منهمكاً في عملِه :

- تصبح على خير يا معلم .

اهتزَّ جسدُ المعلم "توفيق" الضخم، وهو يهمهمُ بكلماتِه الغيرِ مفهومةٍ مرةً أخرى، وكأنَّه سيهمُّ بسبِّه، ثم استدار يصبُّ جمَّ غضبِه على عامل المِقهى في مشهدٍ متكررٍ اعتاده الجميعُ .. ربَّتَ "سمير مصباح" على كفِّ " فارس" التي يعتمدُ عليها قائلا في طيبةٍ بالغةٍ، وقد اتخذَ طريقَه بجوارِ الرصيف :

- تصبح على خير يا " فارس" .

حاول معه " فارس" كثيرًا كي يساعدَه حتى يصلَ لبيته، ولكنَّ الرجلَ العجوزَ الذي يتحسَّسُ خطاه بالكادِ؛ لضعفِ بصرهِ أصرَّ أنْ يستكملَ طريقَه وحدَه ..

ما أروعه من رجل ! هكذا عاش طيلةَ عمرِه، وسيعيشُ ما تبقى له، لا يحبُّ أن يكونَ عبئاً على أحد، حتي أولادِه الذين أفني عمرَه عليهم بعدَ رحيلِ أمهم، وهم ما زالوا صغاراً، والذين تفرَّقتْ بهم السبلُ وراءَ عملِهم ومستقبلهم

ما بينَ أوروبا وأمريكا، حتى ابنتِه الوحيدة ما إنْ تزوَّجت حتى سافرتْ مع زوجها الذي يعملُ مهندساً للبترول في إحدى دول الخليج، وتمرُّ عليه الأيامُ والشهورُ على أملِ مكالمةٍ من أحدِهم ليطمئنَ عليهم ..

وزادتْ وحشتُه بعدَ خروجِه على المعاشِ، فراحَ يقضي وقتَه ما بينَ قراءةِ جريدةِ الأهرامِ في الصباح- والتي صارتْ جزءاً أساسيًا من برنامجِه اليومي بصفحاتِها، ومقالاتِها، وكتَّابِها، ورؤساءِ تحريرِها الذين تعاقبوا عليها لأكثرَ من أربعين عامًا، لدرجةِ أنَّه اكتسبَ خبرةً عجيبةً تُمكنه من معرفةِ اسم الكاتبِ صاحب المقالِ لمجردِ أن يقرأَ له جملةً أو جملتين- وبينَ المِقهى مساءً حيثُ رفاقِ عمرِه على اختلافِ مستوياتِهم، والذين يحبونه ويقدرونه ويستشرونه في معظم أمورهم ..

هكذا كانت حياتُه ، وتلك كانت رسالته، والتي قامَ بها على خير وجهٍ، ولكن المرءَ في هذه السِّنِ يحتاجُ لمن يرفقُ به أو يحنو عليه ولو بكلمةٍ أو نظرةِ امتنان..

فهل يدرك أبناؤنا ذلك ؟

توجه " فارس" صوبَ مدخلِ البيتِ الذي يسكنُ في إحدى شققه الكائنةِ بالدورِ الأخير، وقد وضعَ كفيه في جيبِ بنطالِه، وهو يُمنّي نفسَه بساعاتٍ من النومِ الهادئِ بعدَ تلك الليلةِ الشاقة ..

وما أنْ عبرَ مدخلَ البيتِ بقدميه حتى هوتْ تلك الضربةُ القويةُ على بطنِه فانثنى جسدُه لها ألمًا، وحينَ اعتدلَ وهو يتأوَّهُ وجدَ نفسَه محاصرًا بخمسةٍ من الرجالِ المُلثمين الضخامِ الجثةِ الذين انهالوا عليه بالركلاتِ

واللكماتِ دونَ أن يجدَ فرصةً للدفاعِ عن نفسِه، ووجدَ رأسَه تدورُ به، وهو على وشكِ أنْ يفقدَ وعيَه ..

وكان آخرُ ما لمحته عيناه قبلَ أنْ يسقطَ في الغيبوبةِ هو الرجالُ الخمسةُ، وهم يتقدمون نحوَه ويحملونه إلى حقيبةِ سيارةٍ كانت مُعَدَّة للسيرِ، وتعجَّبَ كيف لم ينتبه إليها لحظةَ دخولِه لتنطلقَ السيارةُ بعدَها مُغادرةً الحيَّ في سرعةٍ دونَ أن ينتبه أحدٌ إليها، في نفسِ اللحظةِ التي هاجمتْ فيها الحيَّ سياراتان من سياراتِ الأجرة، وقد اكتظتا عن آخرهما بمجموعةٍ من الرجالِ المسلحين ذوي اللحَى الطويلةِ والملابسِ البيضاءِ والأسلحةِ الرشاشةِ التي تتأرجحُ في أيديهم، وقد انتشروا وحاصروا جميعَ مداخلِ ومخارجِ الحيِّ وسطَ صرخاتٍ هلعةٍ لمَنْ أجبرتهم الظروفُ أن يكونوا بالشارعِ في ذلك التوقيت ..

كان " الجن" هو آخرُ مَنْ نزلَ من السيارةِ الأولى رافعًا سلاحَه، وراحَ يرمقُ أهالي الحيَّ بنظراتٍ غاضبةٍ كلها مقتٌ وكراهية، في اللحظةِ التي صرخَ فيها "راغب" في رعبٍ، وهو يُغلقُ محلَه :

- أما لهذه الليلةِ من آخر !

في حين صرخَ المعلم "توفيق" في عمالِ المحلِ، وقد رفعَ كلٌّ منهم أحدَ مقاعدِ المِقهى ليدافعَ بها عن المكان :

- ادفنوا كلَّ مَنْ يجرؤ على دخول المِقهى مِنْ هؤلاء الكلاب.

وكما فعلَ المعلم "توفيق" فعلَ كلُّ أصحابِ المحلاتِ المحيطةِ حيثُ تراصوا أمامَ محلاتِهم حاملين كلَّ ما تقعُ عليه أيديهم من الحجارةِ والعصي والأسلحة، واشتعلتْ عيونُهم بالغضبِ في حين صرختْ عقولُهم في أسى ومرارةٍ بآلافِ الأسئلة :

أين الأمنُ ؟

أين الشرطةُ من تصرفاتِ هؤلاء ؟

هؤلاء الذين عاثوا في الأرضِ فسادًا دونَ رادعٍ يردعُهم أو قانونٍ يخيفهم، وصارتْ اللحَى الطويلةُ هى بوابةُ العبورِ لكلِّ عملٍ لا أخلاقِ ..

لكل مَنْ أرادَ أنْ يطرقَ بابًا من أبوابِ الفسادِ دونَ أنْ يخشىَ العقابَ ..

ليس هذا ما دعا إليه الدِّينُ ..

بل ليس هذا ما دعتْ إليه جميعُ الأديانِ السماوية ..

نعم .. جميعُ الأديانِ بريئةٌ من هؤلاء ..

تلك الفئة الضالة ..

أدعياءُ الدِّين الذين أساءوا بتصرفاتِهم تلك لغيرِهم من ذوي اللحَى الذين يحبون هذا الوطنَ، ويعشقون ترابَه ..

صرخَ " الجن" في غضبٍ، وهو يرفعُ سلاحَه عاليًا :

- لا بدَّ وأنْ يدفعَ الجميعُ ثمنَ مقتلِ " كرشة " .

وكما حدثَ منذُ ساعاتٍ قلائل ..

سادَ الهرجُ والمرج ..

ارتفع دوّيُ الرصاصات ..

الصراخُ يشقُّ عُبابَ السماء ..

الدماءُ تتناثرُ في كلِّ مكان ..

كلماتُ " الجن" بصوتِه الكريه تصكُّ الآذان :

- لا بدَّ من تأديبِ الجميع؛ ليعلموا أنَّ الأمرَ صار بأيدينا، وأننا أصحابُ الكلمةِ العليا.

صرخاتُ " الشامي" الذي كان مختبئاً بينَ السياراتِ تنطلقُ في ذعر، وهو يجري مبتعدًا في هلع، وقد ألقى أحدُهم إحدى الزجاجاتِ الحارقةِ داخلَ سيارةٍ كانت واقفةً بالجراج ..

دموعُ " الشامي" تنهمرُ على خدّيه في غزارةٍ، وهو يصرخُ قائلا، والسيارةُ تنفجرُ في دوّيٍ هائلٍ أيقظَ المنطقةَ كلَّها ..

- الرحمةُ من عندِكَ يا ربِّ، الطف يا لطيف ..

في تلك اللحظةِ يصلُ "عرفة الضبع"، وقد انتهتْ سهرتُه للتوّ، ونقلتْ إليه أذناه كلَّ ما يحدثُ فأسرع بجوارِ الحائطِ، وتسللَ لمدخلِ البيتِ الذي يقطنُ فيه، وسَحَبَ سيفاً طويلا من أسفلِ الفراشِ، وعادَ مرةً أخرى وقد قبضَ على عصاه التي يتوكأ عليها بيدٍ، وفي اليدِ الأخرى قبضَ على سيفه، وراحَ يُلوّحُ به في مهارةٍ، وأعماقُه تصرخُ :

- مَرْحَى للأيامِ الخَوالي .

وتطلعَ إليه الكثيرون مِمَنْ في المعركة ..

وعلى الرغمِ من أنَّهم يعلمون جيدًا بأنَّه لا يرى إلا أنَّهم شعروا بالخوفِ يتسللُ لأعماقِهم، وهم يشاهدون مهارتَه في استعمالِ السيف، وهو يهاجمهم في ضرباتٍ قويةٍ ذاتَ اليمينِ وذاتَ اليسار ..

اتسعتْ العيونُ المحيطةُ به في انبهارٍ، وقد تراقصتْ أمامَ أعينِهم في تلك اللحظةِ صورةُ عرفة منذُ أربعين عامًا مضتْ حينَ كان يُغلقُ وحدَه حيًّا بأكملِه..

اتجه إليه " الجن" وصرخَ قائلًا في غضبٍ، وقدمُه تركلُ العصا التي يتكئُ عليها :

- ويلٌ لكَ أيُّها الأعمى ... ألم يتبقَ غيرُكَ ؟!

سقطَ "عرفة" أرضًا بعيدًا عن سيفه، وهو يُهمهمُ همهماتٍ غاضبة، وراح يزحفُ فوقَ ركبتيه على الأرضِ باحثاً عن سيفه، فما كان من "دبانة" إلا أنْ هوى بكعبِ سلاحِه فوقَ ظهرِه في ضربةٍ قوية، ثم أعقبَها بأخرى فوقَ كتفِه فهوى "عرفة" أرضًا بلا حراك، وكأنَّه فقدَ الحياةَ تماماً ..

تطلع " الجن" إلى الخرابِ الذي حلَّ بالحيِّ، ثم هتفَ برفاقِه :

- يكفي هذا .. فلنرحل يا رفاق .

وفي ثوانٍ كان " الجن" ورفاقُه داخلَ السيارتين اللتين انطلقتا مغادرتين الحيَّ بعدَ معركةٍ لم تستغرقْ سوى دقائقَ تاركين خلفَهم خراباً ..

نعم .. مجردُ خرابٍ ودماءٍ وأنينٍ ودموع ..

بينَ الحُطام الذي ملأ المكانَ، زحفَ " الشامي" على بطنِه، واتجه نحوَ "عرفة الضبع"، وراحَ يتحسسه، ويهزُّ جسدَه صارخاً من بين دموعِه :

- يا معلم "عرفة" .

تأوَّه "عرفة "في ألم، وراحَ يُهمهمُ بعباراتٍ حانقة، ودماءٌ لزجة تسيلُ من خلف أذنِه، وتغرقُ كتفه، نهضَ " الشامي" وراحَ يجذبُ "عرفة "من ذراعه؛ ليساعدَه على الوقوفِ، وهو يناوله عصاه التي تلوثتْ بالدماء، وأخذ بيده في اتجاه مسكنِه في نفس اللحظةِ التي ارتفعَ فيها صوتُ المؤذنِ من المسجدِ المجاور بأذانِ الفجر ..

الله أكبر .. الله أكبر ..

تسمَّرَ "عرفة " مكانه، وقد تقلَّصتْ عضلاتُ وجهِه على نحوٍ غريب، وجحظتْ عيناه بشكلٍ ألقى الرعبَ في قلب " الشامي" الذي هتفَ به، وهو يحاولُ جذبَه حيثُ مسكنِه :

- تعالَ معي يا معلم "عرفة" لتدخلَ حجرتَكَ و..

تسمَّرتْ قدما "عرفة " بالأرض، وأبى التحرُّكَ وقد أرهفَ أذنيه حيثُ صوتِ المؤذن، وراحتْ شفتاه ترددان العباراتِ الغيرِ مفهومة ثم .. ثم دفعَ بالشامي أرضًا في قوة، وراحَ يسيرُ في بطءٍ متتبعاً صوتَ المؤذن، وشفتاه تُهمهمان بالعباراتِ الغير مفهومة، أسرع " الشامي" وراءَه، وحاول أن يساعده، ويأخذُ بيده، ولكن"عرفة" دفعه أرضاً مرةً أخرى، وراح يواصلُ خطواتِه البطيئة، حتى عبرَ الميدان، وصار على مَقرُبَةٍ من بابِ المسجدِ الكبير، الذي يتصدرُ واجهةَ ميدان بابِ الخلقِ العريق، في اللحظةِ التي عمَّ فيها الصمتُ المكانَ، وقد انتهى المؤذنُ من أذان الفجر ..

توقف "عرفة " مكانَه حائرًا على مَقرُبَةٍ من بابِ المسجد، وعيونُ المصلين ترقبُه في رهبةٍ وذهولٍ دونَ أن يجرؤَ أحدُهم أن يسألَه عمَّا يريدُ ..

مدَّ "عرفة " يده داخلَ جيبِ جلبابِه، وتناولَ زجاجةَ الخمرِ الرخيصةِ التي لا تفارقه، وأطاح بها بعيدًا، وراح يُرهفُ سمعَه مرةً أخرى مُتتبعاً خُطَى المصلين - وهم في طريقِهم لداخلِ المسجدِ- بخطواتِه البطيئة، ودقاتِ عصاه الرتيبة ..

تحسَّس لسانُه خيطاً من الدماءِ سالَ من خلف أذنِه فوقَ شفتيه ومسحَه بكفه، وراحَ يواصلُ خطواتِه وفجأةً ..

تعثَّرتْ قدمُه بحاجزٍ خشبي أمامَ بابِ المسجد، ووقع أرضاً فأسرعَ نحوَه بعضُ المصلين، وساعدوه على النهوضِ، وواتتْ بعضَهم الجرأةُ ليسألوه :

- ماذا تريدُ يا معلم "عرفة " ؟

استقبلَ وجهُه في تلك اللحظةِ نسمةَ هواءٍ رطبةِ انبعثتْ من داخلِ المسجدِ، فالتقط نفساً طويلا ملأ به صدَره، وارتسمتْ بعدَها على شفتيه

ابتسامةً نادرًا ما تزورها، ولم يردْ عليهم بل أشارَ لهم بسبابتِه إلى داخلِ المسجد ..

حينَ وضعوه بجوارِ أحدِ أعمدةِ المسجدِ، انطلقتْ من حلقهِ تنهيدةُ ارتياحٍ سمعَها الجميعُ، وراحت عيناه تجوبان المكانَ، وكأنَّه يراهم وشفتاه ما زالتا ترددان الكلماتِ الغيرِ مفهومة، وقد انفردتْ سبابته تجاه القبلةِ ..

وفجأةً ..

توقفتْ شفتاه عن الهمس ..

تراختْ سبابتُه ..

مالتْ رأسُه فوقَ كتفه ..

- " سبحانَ الله ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله " .

عبارةٌ رددها المحيطون بجثمانِه بعيونٍ دامعة، وهم يهزون جسدَه بلا فائدة، ولا يصدقون أنَّ تلك هى نهايةُ العرفة ..

عرفة الضبع ..

عرفة الضبع الذي انساقَ وراءَ نفسِه الأمَّارة بالسوء، فلم يتركْ منكرًا إلا وارتكبه ..

عرفة الضبع الذي قضى حياتَه لا تعرفُ قدمُه باباً لمسجد ..

ولا تعرف يدُه سبيلًا لصدقةٍ أو إحسان ..

سبحانه مَنْ يُغيرُ ولا يتغيَّرُ !

وصدقَ القائلُ عزَّوجلَّ في كتابِه الكريمِ " ورحمتي وسعتْ كلَّ شيء " .

******

- " يمكنُكَ الخروجُ الآن؛ فكلُّها كدماتٌ وإصاباتٌ سطحية كما أثبتت الأشعة ".

ألقى طبيبُ تلك المستشفى الاستثماري بتلك العبارةِ – قبل أن يخرجَ - في وجه " فارس"، الذي كان راقدًا فوقَ فراشِه، ومن حوله كان أحمد راغب وسمير مصباح .. ردَّد " فارس" قائلا في ضعفٍ، وهو يتحسَّسُ رأسَه :

- الحمدُ لله .

ضحك " أحمد راغب " قائلا :

- عُمر الشقي يا " فارس" !

ابتسمَ " فارس" في هدوء، في حين جلسَ" سمير مصباح" على طرفِ فراشِه قائلا، وجريدتُه التي لا تفارقه تحتَ إبطِه :

- ولكن .. السؤالُ يا " فارس" .. مَنْ فعل بكَ ذلك ؟ ومَنْ أتى بكَ لذلك المستشفى الاستثماري ؟

صمتَ " فارس" لحظاتٍ، راحَ يتطلعُ إليهم في غموضٍ، ثم قال :

- لا أدري يا أستاذ " سمير" .. عندما أفقتُ من غيبوبتي وجدتُ نفسي هنا، حتى التكاليفِ وصلتْ للمستشفى من خلالِ ظرفٍ باسمي كُتِبَ عليه فاعلُ خير.

ضحك " أحمد راغب " قائلًا في سعادةٍ، وهو يعدلُ نظارتَه :

- الحمدُ لله أنَّكَ بخيرٍ يا " فارس" و ..

ابتلعَ " راغب " بقيةَ عبارتِه حينَ لمحَ "غرام" ببابِ الحجرةِ تتطلعُ إلى " فارس"، وعلى وجهها حزنٌ شديد، اقتربتْ منهم في ثوبِها الوردي الجميل، الذي

زادها فتنةً وجمالًا، وقد انسابَ شعرُها فوقَ كتفيها كالحرير، ثم هتفتْ في رقةٍ هامسةٍ، وعيناها لا تفارقان وجه " فارس" :

- كاد قلبي يتوقفُ عن النبضِ حينَ علمتُ بالخبر .

تطلعَ إليها " فارس" في نظرةٍ طويلةٍ صامتة، ولم يتفوَّه بحرفٍ، فهتفَ " سمير مصباح" قائلا، وهو يشيرُ لرفيقه :

- سنتركُكَ قليلا يا " فارس"؛ لننهيَ إجراءاتِ خُروجِكَ .

خرجَ الرجلان، في حين جلستْ "غرام" على طرفِ الفراش، وتناولتْ بأناملِها الرقيقةِ كفَّ

" فارس"، وهى تهتفُ في ألم :

- كم أوحشتني يا " فارس" .. أوحشتني كثيرًا .

رمقها " فارس" مرةً أخرى بنفس النظرةِ الطويلةِ الصامتةِ التي يشوبُها حزنٌ دفين، ولم يردْ، فهتفتْ قائلة، وهى تتحسَّسُ كفيه بأناملِها :

- أرجوكَ .. تكلم يا " فارس" .. أريدُ أن أطمئنَ عليكَ .

سحبَ " فارس" كفَّه من بين أناملِها، وهتفَ قائلا بلهجةٍ بدتْ لها غريبة :

- أنا بخير .. وسأعودُ لشقتي الآنَ و..

قاطعته قائلة، وعيناها تهيمان عشقاً في عينيه الصامتتين :

- بل ستعودُ معي إلى الفيلا، ولن أتركَكَ حتى ..

قاطعها بدوره قائلا بلهجةٍ جامدة :

- بل سأعود لشقتي؛ فأنا في حاجةٍ إلى الراحة .

طافتْ بعينيها ملامحَ وجهه؛ علَّها تعرفُ سببَ تغيُّرَه، وهتفتْ في حزنٍ وألم:

- كنتُ أظنُّ أن راحتكَ عندي .

أشاحَ بوجهه إلى الناحيةِ الأخرى، دونَ أن يردَّ فنهضتْ من مكانِها، ودارتْ حولَ الفراش، وهتفتْ قائلة، وقد صارتْ في مواجهته :

- " فارس" .. ما بكَ ؟ تبدو غريبًا .

تطلعَ إليها طويلا هذه المرة، وعيناه يلوحُ فيهما ألفُ تساؤلٍ وتساؤل، ولكن لسانَه أبى أن يُفصحَ عنها فلزمَ الصمتَ، فما كانَ منها إلا أن جلستْ على ركبتيها بجوارِ فراشِه، وتحسَّستْ خدّيه بأناملها، وهى تهتفُ بصوتٍ مُتهدجٍ :

- أرجوكَ يا حبيبي .. احكِ لي، هل حدثَ شيءٌ أغضبكَ ؟

أزاحَ كفيها عن خدّيه برفقٍ، وقال في حزنٍ شديد، انفطرَ له قلبُها :

- "غرام" .. يجبُ أنْ نؤجلَ زواجَنا .

اتسعتْ عيناها في هلعٍ، وهى ترددُ ذاهلة :

- ماذا ؟ ! نؤجلُ زواجَنا !

انتزعَ صوتَه من بين شفتيه في صعوبةٍ، وهو يردد :

- "غرام" .. الفارقُ بيننا كبير، وأنا لا أملكُ شيئاً كما تعلمين، ولا أريدُ تكرارَ تجربةِ الزواجِ من امرأةٍ ثرية .

اتسعتْ عينا "غرام" في ذهولٍ لما سمعته، فنهضتْ واقفة، وقد تحجَّرتْ الدموعُ بمقلتيها، ولم تصدقْ ما سمعتُه أذناها ..

وممَنْ ؟!

مِنْ " فارس" !

الرجلُ الوحيدُ الذي أحبَّته !

إنها لم تشعرْ بأنَّ لها قلباً ينبضُ بين ضلوعِها إلا عندما رأته ..

وأحبَّته ..

لا بل عشقته ..

وصارَ كلُّ رجالِ الدنيا بالنسبة لها رجلا واحداً فقط ..

هو فارس .

تطلعَ إليها " فارس" وقد انفطرَ قلبُه من أجلِها، وكاد يتراجعُ عمَّا نوى عليه، فهتفَ قائلا في حزنٍ، وهو يقبضُ على أناملِها بأصابعِه :

- "غرام" .. أنتِ تعلمين أنّي عانيتُ من تجربتي الأولى، ولا أريدُ تكرار الخطأ و ..

في تلك اللحظةِ لم تستطعْ "غرام" أن تكتمَ دموعَها أكثرَ من ذلك، فانهمرتْ على خدّيها في غزارةٍ، وأمامَ عينيها تتراقصُ صورٌ عديدةٌ لجميع مواقفِ " فارس" معها، وحرصِه وخوفِه عليها حتى تعلَّقتْ به، وأحبَّته، وصارتْ لا ترى من جنسِ آدمَ سواه ..

كم هى عجيبةٌ تلك الدنيا ! ما أنْ ترى سعادتَنا تعتلى وجوهَنا حتى تحاولُ بشتَّى الطرقِ لقتلِها ووأدِها قبلَ أنْ نشمَّ رحيقَها، ونتمتعَ بنعيمِها..

سحبتْ أناملَها مِنْ بين أصابعِه، واندفعتْ مُغادرةً الحجرةَ كالعاصفةِ تسبقُها دموعُها، وبينَ ضلوعِها كان قلبُها ينتفضُ في لوعةٍ كطائرٍ ذبيح !

******

ما أنْ يُنعمَ اللهُ علينا بنعمةِ الأبناءِ والأحفادِ إلا ويُوثَّقُ عهدٌ غيرُ مكتوبٍ بيننا وبينَ أنفسنِا ألا نُريهم في يومٍ من الأيام لحظةَ ألمٍ، وألا ندخرَ جُهدًا في سبيلِ إسعادِهم وراحتِهم ..

ولكن هل تمكننا الأقدارُ من ذلك ؟

لم يصدقْ المعلم "توفيق" عينيه، ورمى بالشيشة جانبًا حينَ رأى حفيدَه " شادي" يدخلُ المِقهى، وانتفضَ من مكانِه مسرعًا نحوَه بجسدِه الضخمِ، وأخذه بينَ أحضانِه، وهو يهتفُ قائلًا بلهفة :

- " شادي" حبيبي .. ما كلُ هذا الغياب ؟ وأين كنتَ ؟ و ..

قاطعه الحفيدُ بلهجةٍ بدتْ جامدةً، وهو يخلِّصُ جسدَه من بين أحضانِ جدِه قائلاً :

- الحمدُ لله يا جدي، كنتُ أبحثُ عن نفسي، والحمدُ لله وجدتُها .

أيقظتْ كلماتُه الغريبةُ المعلم "توفيق" من فرحتِه بلقاءِ حفيدِه، وراحَ يتطلعُ إليه، وقد اتسعتْ عيناه في ذهولٍ، وهو يقول :

- ماذا تقولُ يا حبيبي ؟ ما هذا الكلام ؟ ولماذا تركتَ لحيتكِ هكذا ؟ و ..

قاطعه " شادي" قائلا، وهو يرمقُ زبائنَ المِقهى في ضيق :

- وهل كلامي غيرُ مفهومٍ يا جدي ؟ ! كانت نفسي تائهةً بلا هدفٍ أحيا من أجلِه، ولكنِّي وجدتها، وأما لحيتي فما العيبُ أنّي أطلقتُها ؟ ! إنَّها سُنَّة عن النبي "ص" .

ترك المعلم "توفيق" جسدَه يهوي فوقَ مقعدِه في عنفٍ، وهو يتابعُ حفيدَه في ذهولٍ، وقد سيطرتْ عليه مشاعرٌ شتَّى ..

كان يشعرُ في تلك اللحظةِ بأنَّ حفيدَه غريبٌ عنه ..

لا يعرفه ..

بل كان يشعرُ بأنَّه يضيعُ منه ..

خرجَ صوتُه يُقطِّرُ ألماً، وهو يقولُ له :

- " شادي" حبيبي .. لستَ أولَ ابنٍ ينفصلُ والداه، كثيرون مَنْ هم في مثلِ ظروفِك، ولكنهم تغلَّبوا عليها، ونجحوا وحققوا مستقبلَهم و ..

قاطعه الحفيدُ قائلا بلهجةٍ بدتْ أكثرَ جموداً، وهو يُلقي بجسدِه على مقعدٍ بجوارِ جدِه :

- هذا الأمرُ لمْ يعدْ يشغلني يا جدي؛ فاليومُ عرفتُ طريقي جيدًا .

ردَ المعلم " توفيق " قائلا كالمسحور :

- عرفتَ طريقَكَ !

ابتسمَ " شادي" في ثقةٍ قائلا :

- نعم يا جدي .. عرفتُ طريقَ سعادتِي بعد أنْ كنتُ تائهاً عنه .

وصمتَ للحظةٍ استطردَ بعدَها قائلا، وقد اتسعتْ ابتسامتُه :

- طريقي هو الطريقُ إلى الله، القربُ منه سبحانَه وتعالى والدفاعُ عن دينِه .

تلاحقتْ أنفاسُ المعلم "توفيق" أكثرَ وأكثرَ في ذهولٍ، وهو يقول :

- وهل كنتَ بعيدًا عن اللهِ يا ولدي ؟ ! ألم تكنْ تصلي وتصوم و..

قاطعه الحفيدُ قائلاً بلهجةٍ حاسمة :

- هذا لا يكفي يا جدي؛ فاللهُ هو الحقُ، وأيُّ حقٍ دوماً في حاجة لقوةٍ تحميه وتنصره .. يحتاجُ لمنْ يساندَه ضدَ الفاسدين أنصارِ الباطلِ، خفافيشِ الظلام .

قبضَ المعلم "توفيق" على كتفي حفيدِه قائلاً في أسى، وعيناه تطوفان وجهَه علَّه يعرفُ سبباً لما أصابه :

- " شادي" حبيبي .. أخبرني ماذا حدثَ لكَ ؟

رمقَ " شادي" مرةً أخرى زبائنَ المِقهى، وأنفاسُ الدخانِ التي تملأ المكانَ في ضيقٍ، وقال بنفس لهجتِه الجامدة :

- كلُّ خيرٍ بإذن الله يا جدي .. لا تقلق .

وصمتَ للحظةٍ استطردَ بعدها قائلا، وعيناه تطوفان بأرجاءِ المكان :

- ثم .. ليس هذا يا جدي ما جئتكَ مِنْ أجلِه ؟

تطلعَ إليه الجَد في صمتٍ حزين، فتابعَ " شادي" حديثَه قائلا :

- أريدُكَ يا جدي أنْ تُغيّرَ نشاطَ المِقهى هذا .

- أُغيّرُ نشاطَ المِقهى ؟ !

- نعم يا جدي .. الدخانُ الذي يُنقّثُه هؤلاءِ يضرُّ بالصحة؛ والصحةُ نعمةٌ كبيرةٌ منحنا اللهُ إياها، وعلينا أنْ نحافظَ عليها، وإلا نكون قد ارتكبنا إثماً.

- معك كلُّ الحقِّ في ذلك يا ولدي، ولكن المِقهى ليس فقط مكاناً للتدخين، بل نتلاقى فيه بالأحبة لنتسامرَ ونروّحَ عن أنفسنا بما لا يغضبُ الله و ..

قاطعه الحفيد قائلاً بلهجة حاسمة :

- لا مجالَ للنقاش يا جدي؛ فالأمرُ منتهٍ .

اتسعتْ عينا المعلمِ "توفيق"، وهو يتابعُ كلماتِ حفيدِه الصارمة ..

راحتْ أنفاسُه تتلاحقُ في سرعة ..

الآنَ فقط تأكَّدَ أنَّه كان على حقٍ في خوفِه على حفيدِه ..

والآنَ فقط أدركَ أنَّ حفيدَه قد ضاع ..

ضاعَ إلى الأبد ..

فاقَ من شرودِه على صوتِ حفيدِه، وهو يقولُ له قبلَ أنْ يُغادرَ المِقهى :

- فكِّر يا جدي فيما قلتُه لكَ، واستبدلْ المِقهى بمحلٍ للعطورِ أو الملابس.

لم يستطعْ المعلم "توفيق" أنْ يُسيطرَ على دموعِه أكثرَ من ذلك، فترقرقتْ في عينيه، وسالتْ على خدِّه، وراحَ يرددُ في ألمٍ، وعيناه تتابعان خطواتِ حفيدِه الجامدة :

- لله الأمرُ مِنْ قبلُ ومِنْ بعد .

******

١٥- عائدٌ من الموت ..

المرأة ..

أيُّ امرأةٍ – عكس الرجلِ تماماً - أكثرُ إخلاصاً في حبِّها، ولا يمكنُ أنْ تُعطيَ قلبَها لرجلين في وقتٍ واحدٍ، أما الرجلُ فمِنْ الممكنِ أنْ يعشقَ امرأةً في الصباح، وثانيةً في الظهر، وأخرى في المساءِ إلا مَنْ رَحِمَ ربِّي ..

والمرأةُ حينَ تحبُّ تسيطرُ عليها حالة ..

حالةٌ غريبة تصلُ بها أنَّها لا تتعرفُ ملامحَها، وتشعرُ بالحيرةِ أمامَها ..

حالةٌ تجعلها تسألُ نفسَها – أمامَ المرآةِ - في سعادةٍ، وعلى شفتيها ابتسامةٌ خَجْلى:

- أهذه أنا ؟!

وتكونُ المرأةُ - أيضاً - على استعدادٍ لأنْ تُضحيَ بكلِّ ما تملكُ من أجلِ مَنْ تُحب، شريطة أنْ تشعرَ معَه بالحبِّ والأمانِ والإخلاصِ، وإلا تحولتْ لنمرةٍ شرسةٍ لا تهدأُ إلا إذا سلبتْ روحَ مَنْ تحبُّ، وحولتُه إلى حُطام ..

مُجرد حُطام !

هذا ما كانتْ تشعرُ به "غرام" في تلك اللحظةِ، وهي تجلسُ أمامَ مرآةِ حجرتِها تضعُ زينتَها التي لم تكنْ في حاجةٍ إليها إطلاقاً ..

أعادتْ خُصلةً من شعرِها الناعمِ تهدَّلتْ فوقَ جبينِها، وأعماقُها تهتفُ في سعادةٍ لا تُوصفُ:

- يا إلهي .. كم أحبُّك يا " فارس"، لم أكنْ أدري كيف ستكونُ حياتي بدونكَ، لو لمْ أقابلكَ، وأحبُّكَ، وأعشقُكَ .

وجدتْ نفسَها تردُ اسمَه ذا الأربعةِ أحرفٍ بين شفتيها في سعادة ..

فـ .. ا .. ر .. س ..

إنَّه فارسٌ حقا ..

فارسٌ في زمنٍ خلا من الفرسان ..

كانتْ على يقينٍ أنَّها ستجدُ سعادتَها معه ..

وأنَّها – أيضا – لم ولن تشعرَ بالندمِ بعدَ أن تنازلتْ له عن كلِّ أملاكِها التي ورثتها عن زوجِها السابقِ " كريم شهدي " ..

وهل كانَ بإمكانِها أنْ تبخلَ عليه بأملاكِها ؟!

إنَّها ستمنحه حبَّها ..

نفسَها ..

حياتَها ..

وهل هناكَ أغلى مِنْ ذلك ؟!

أطلتْ من عينيها سعادةٌ غامرةٌ، وهي تطالعُ ملامحَها في المرآة، وقد انتهتْ من زينتِها، وشفتاها ترددان في خجلٍ :

- أهذه أنا ؟ !!

و..

فاقتْ من شرودِها إثر طرقاتٍ هادئة على بابِ حجرتِها، فنظرتْ للبابِ للحظاتٍ بنظراتٍ حالمةٍ قبل أنْ تهتفَ بصوتِها الذي يفوحُ رقةً وأنوثة :

- ادخل .

تضاعفتْ السعادةُ في عينيها مراتٍ ومرات، حينَ رأته يُطلُّ بوجهِه من فتحةِ الباب ..

فارس ..

رقصَ قلبُها طرباً وهي تُطالع – من خلالِ المرآةِ الكبيرةِ أمامَها - حُلَّتَه الفاخرةَ التي زادته أناقةً ووسامةً فبدا أشبهَ بنجومِ السينما ..

هتفتْ قائلةً بفرحةٍ غامرة :

- " فارس" .. ما زالَ متبقياً على موعدِ زفافِنا أكثرَ من ساعتين .

تقدَّمَ خُطوةً للأمام، وأغلقَ بجسدِه نصفَ البابِ المفتوحِ، وراحَ يرنو إليها في صمتٍ، انطلقتْ من أعماقِها تنهيدةٌ حارة، وراحتْ تهتفُ في هُيَامٍ، وقد أغمضتْ عينيها، وهي تحلمُ بالمستقبلِ السعيدِ الذي ينتظرهما :

- أحبَّكَ يا " فارس" .. وسأفعلُ كلَّ ما بوسعي لسعادتِكَ ..

نعم يا حبيبي .. فالليلةُ سنعقدُ قرانَنا، ونسافرُ لأوروبا، ونقضي أجملَ شهر عسل .

تابع " فارس" كلماتِها في صمتٍ حزين، وقد عقدَ ساعديه أمامَ صدره، فهتفتْ به في دلالٍ:

- " فارس" .. حبيبي .. لماذا لا تتكلم ؟

تطلعَ إليها في نظرةٍ طويلةٍ هذه المرة، قبل أنْ يتحرَّكَ بجسدِه كاشفاً فتحةَ البابِ مِنْ خلفه لتتسعَ عينا "غرام" في هلع، وارتفعَ حاجباها حتى كادا يلتصقان بمقدمةِ رأسِها ..

فقد نقلتْ إليها مرآتُها في تلك اللحظةِ - التي تحرَّكَ فيها فارس جانباً – وجهاً لا تتوقعُ رؤيتَه ولا في أبشعِ الكوابيس ..

وجهٌ لا ينتمي صاحبُه لعالمِ الأحياءِ بالمرة ..

لقد كان وجهه ..

وجهُ زوجِها المُتوفّي بشحمِه ولحمه ..

" كريم شهدي" !

******

أفاقَ " فارس" من الغيبوبةِ التي حاصرتْ عقلَه في ضراوةٍ، وراحَ يتألمُ في شدةٍ، وهو يتحسَّسُ بطنَه، وشيئاً فشيئا راحتْ الصورةُ تتضحُ أمامَ عينيه المشوشتين ليجدَ نفسَه جالسًا فوقَ أريكةٍ تتوسطُ ردهةُ فيلا فاخرة، ولمحَ بطرفِ عينيه أربعةً من الأشخاصِ يحيطون به، وأسلحتُهم القويةُ تتأرجحُ في أيديهم، وأمامَه عن بُعدٍ كان هناك أحدُ الأشخاصِ جالساً فوقَ مقعدٍ يرمقه في صمتٍ، وفي عينيه كلُّ مقتِ وغضبِ الدنيا ..

اتضحتْ الصورةُ تماما أمامَ عينيّ " فارس" اللتين اتسعتا في هلعٍ، وهو يرددُ :

- مَنْ ؟ مستحيل .. كريم بك !

نهضَ " كريم شهدي" بجسدِه الضخمِ من مقعدِه، وتقدَّمَ نحوَ " فارس" في خطواتٍ رتيبة، في حين انتزعَ " فارس" صوتَه بصعوبةٍ مِنْ بين شفتيه، وهو يرددُ قائلا:

- لا .. لا مستحيل .. لا يمكنُ أن تكونَ هو .. لقد حضرتُ مراسمَ دفنِكَ بنفسي و ..

قاطعه " كريم شهدي" قائلا بصوتٍ يحملُ كلَّ غضبِ الدنيا :

- المستحيلُ هو ما فعلته أنتَ مع تلك الخائنةِ للاستيلاءِ على ثروتي .

ردَّد " فارس" قائلا بذهولِ مَنْ لمْ يتخلصْ بعدُ من أثرِ الصدمة :

- لا يا " كريم " بك .. أنا لم أفعلْ شيئاً، ولم يحدثْ بيننا شيءٌ و ..

قاطعه " كريم شهدي" بصوتٍ جمَّدَ الدماءَ في عروقه :

- ألم تتفقا على الزواج ؟

صرخَ " فارس" قائلا في ألم :

- بلى يا " كريم " بيه ولكن هذا لأنَّكَ .. لأنَّكَ ..

قاطعه " كريم شهدي" ضاحكا في جنون، وهو يقول :

- لأنني كنتُ ميتاً .. أليس كذلك ؟ ها .. ها .. ها ..

شحبَ وجهُ " فارس"، وخُيِّل إليه وكأنَّه أمامَ معتوهٍ، بينما راح جسدُ " كريم شهدي" الضخمُ يهتزُّ في شدةٍ مع ضحكتِه الجنونية، وذاكرتُه تعودُ إلى الوراء ..

إلى شهورٍ قليلةٍ مضتْ.

******

" كريم شهدي" ينطلقُ بسيارته التي تنهبُ الأرضَ نهبًا؛ وأنفاسُه تتلاحقُ في غضبٍ وحنقٍ هائلين ..

كانت كلُّ ذرَّةٍ في كيانِه تنطقُ بالغضبِ عقبَ ذلك اللقاء، وراحتْ أعماقُه تصرخُ وتصرخُ، وقبضتاه تعتصران مقودَ السيارةِ في قوة، وقد انعقدَ حاجباه في حنق:

- مَنْ تظنون أنفسَكم أيُّها الملاعين ؟

هل اشتريتم البلدَ بأهلها ؟

هل ورثتموها عن آبائِكم وأجدادِكم ؟

ولكنني لن أسمحِ لكم ..

سأقفُ ضدكم ..

وأواجهكم ..

ولن تحققوا شيئاً مما تريدون ..

ولن تنالوا قرشاً واحدًا مما تركه لي والدي و ..

وفجأةً توقفتْ أعماقُه عن الصراخ حينَ فوجئ بسيارتين من خلفِه تحاولان تطويقه، فضغطَ على دواسةِ وقودِ سيارته التي زأرَ محركُها في شدةٍ، وانطلقتْ تُسابقُ الريحَ، ولكن عينيه اتسعتا في هلعٍ، حينَ وجدَ ركابَ السيارتين قد فتحوا نيرانَ مدافعِهم على سيارته، فغاصَ بجسدِه في دواسةِ سيارته، وراحَ يتحكمُ بصعوبةٍ في مقودِ سيارته التي تنهبُ الأرضَ في جنون ..

وفجأةً ..

وجدها أمامَه ..

سيارة نقل عملاقة تُغلقُ عليه الطريق ..

ولم يكنْ أمامه مفرٌّ ..

فأدارَ عجلةَ سيارته بسرعةٍ يسارًا حيثُ ذلك الجزء المنخفض من الحاجزُ الحديدي لنهرِ النيل الذي اقتحمته سيارتُه في قوةٍ وحطمته، وطارتْ للحظاتٍ في الهواء، قبلَ أنْ تبدأَ رحلةُ السقوطِ لتغوصَ داخلَ مياهِه، وسطَ نظراتِ الترقُّب من راكبي السيارتين الذين راحوا يراقبون مياهَ النهرِ الساكنةِ للحظاتٍ قبل أن يعودوا أدراجَهم، وقد انتهتْ مهمتُهم تماماً..

وبنجاح .

******

صرختْ "غرام" في جنونٍ، وقلبُها يكادُ يتوقفُ عن النبض :

- مستحيل .. مستحيل ..

اقتربَ منها " كريم شهدي"، وتطلعَ إليها للحظاتٍ، هتفَ بعدَها في مقتٍ رهيب :

- هل تكذبين الكذبةَ وتصدقينها أيتُّها الخائنة ؟ تعلمين جيدًا أنني لم أمتْ، وأن تلك الجثة لم تكنْ جثتي .

هوى جسدُ "غرام" فوقَ مقعدِها في عنفٍ عقبَ عبارته ..

ولم يعدْ لديها ما تقوله ..

حقا هي تعلمُ أنَّها لم تكنْ جثته ..

ولا تدري لمَ فعلتْ ذلك ..

ربما لأنَّها كانت تتمنى ذلك لتتخلصَ منه ..

تتخلصُ من النخَّاسِ الذي اشتراها بأغلى الأثمان ..

النخَّاسُ الذي جعلها تحتقرُ نفسَها ..

ولكن ..

ها هو قد عادَ من الموت ..

ويريدُ الانتقامَ منها ..

ومتى ؟ !

بعد أنْ ابتسمتْ لها الدنيا، ووجدتْ الرجلَ الذي أحبته في جنون ..

فارس ..

وفي تلك اللحظةِ تذكرته ..

حبيبها " فارس" ..

الحُلم الذي تبخَّر في اللحظةِ الأخيرة ..

تطلعتْ إليه في ذلٍ وانكسارٍ شعرتْ معهما بأنَّ عمرَها تضاعفَ سنواتٍ وسنوات ..

نظرَ إليها " فارس" في حزنٍ شديد، ثم تقدَّمَ من " كريم شهدي" قائلا له في حزنٍ مُضاعف، وهو يناوله ورقة :

- بهذا التنازل تكونُ كلُّ أملاكِكَ قد عادت إليكَ " كريم" بك .

ثم التفتَ إلى "غرام"، وهتفَ في حزنٍ لا يمكنُ وصفُه، وهو يهزُّ رأسَه في أسى :

- خسارة يا "غرام" .

واستدار مغادرًا الحجرةَ والمكانَ كلَّه وبلا عودة، و"غرام" تتابعه بعينين محمرتين، لا تكادُ تصدقُ ما يحدثُ أمامَها ..

ما أبشعَ الغدرَ! وما أشدَّ طعناتِه وخاصةً حين تأتينا مِمَنْ نحبُّ !

المُحبُّ لمحبوبه هو حصنُ الأمنِ والأمانِ الذي يلجأ إليه، ويحتمي به، ويذوبُ داخله حين تديرُ له الدنيا ظهرها، ولكن إذا ما غدرَ مَنْ نحبهم لمَنْ نلجأ؟ وبمَنْ نحتمي ؟! أين نذرفُ دموعَنا ؟ ومَنْ سيجففها ؟

راحتْ أعماقُ " غرام " تصرخُ في ألمٍ، وقلبُها يكادُ يتوقفُ عن النبض :

- مستحيل ..

فارس لا يفعلُ هذا ..

فارس لا يبيعها لكريم أبداً ..

هل يُضحِّي بها بعدَ أنْ ضحَّتْ بكلِّ شيءٍ من أجله ؟

هي تريدُ له الحياةَ، وهو يريدُ لها الموتَ ..

هذا لا يمكنُ أن يكونَ " فارس" ..

نعم .. نعم لا يمكن .

توقفتْ أعماقُها عن الصراخ، مع ضحكةِ " كريم شهدي" التي انطلقتْ في جنونٍ، واحمرَّ معها وجهُه الأبيض، وهو يتحسَّسُ التنازلَ الذي أخذه من " فارس"، وهتفَ في جنونٍ :

- غبية .. طوال عمركِ وأنتِ غبية يا "غرام" هانم .. كنتِ تظنين أنَّ لعبتَكِ ستنجح، وتتنعمين بأموالي مع رجلٍ غيري .. لا تختلفين عنهم في شيء؛ جميعُكم أغبياء، أموالُ وأملاكُ " كريم شهدي" لا يمكنُ لأحدٍ حصرَها، وحين قررتُ الاختفاءَ لفترةٍ بإرادتي لم أتركْ لكم إلا الفُتات، وها أنا قد عدتُ للحياةِ، ليس هذا فحسب، بل استخرجتُ أوراقاً جديدةً تثبتُ أنني على قيدِ الحياة مستغلًا حالةَ التخبطِ الشديدةِ التي تمرُّ بها البلاد، واستعدتُ بقية أموالي وأملاكي كلها، وها هو " فارس" أيضاً قد رحلَ، ولن يعودَ مرة أخرى .

وصمتَ قليلا ابتلعَ فيها ريقه، وهو يقتربُ بملامحَ جامدةٍ من "غرام" التي ارتعدَ جسدُها، فاستطردَ قائلا في جنون :

- لا تخافي يا "غرام" .. لن أفعلَ شيئاً مما تفكرين فيه، على الرغمِ من قدرتي على إدخالكِ السجن، ولكنني لن أفعلَ .. سيكونُ انتقامي منكِ بسيطاً وقاسيًا في آنٍ واحد ..

هل تعلمين كيف سأنتقمُ منكِ ؟

ستعودين إلى بيتِ أبيكِ كما أخذتُكِ منه أولَ مرة ..

بالثوبِ الذي عليكِ فقط ..

نعم .. هذا هو أفضلُ انتقامٍ لخائنةٍ مثلك ..

أن تعود للفقر .. للذل .. للحرمان .

وبرقتْ عيناه في جنون، بينما ارتعدَ جسدُ "غرام" في قوةٍ، وسيطرَ عليها إحساسٌ مريرٌ في تلك اللحظة ..

إحساسٌ أكَّد لها – بما لا يدعُ مجالا للشك – بأنَّ المبارةَ قد انتهتْ ..

نعم .. انتهتْ للأبد ..

******

حزنٌ هائلٌ سيطرَ على " فارس"، وهو يجوبُ الشوارعَ سيرًا على قدميه بعد أن غادرهم ..

كانت كلُّ أعضاءِ جسدِه تشعرُ بالألم ..

حتى قلبه يؤلمه ..

راحَ يواصلُ خطواتِه البائسةَ اليائسة، وأمامَ عينيه تمرُّ صورٌ عديدة من شريطِ حياتِه ..

من حلقِه انطلقتْ تنهيدةٌ حارة، وعلى شفتيه لاحتْ ابتسامةٌ مريرة ..

راحَ يتعجبُ من ظروفِه التي تعانده دوماً، وكأنَّها تُضنُّ عليه بلحظاتٍ من السعادة ..

فكثيرٌ ما كان يظنُّ أن السعادةَ باتتْ قريبةً منه فإذا بها سرابٌ يحسبه الظمآنُ ماءَ ..

وكلما أقبلَ على الحياةِ بقلبٍ متسامحٍ ناسياً أو متناسياً ظروفَه البائسة، واتته طعناتُ الغدرِ من جديد؛ لتحرمه من سعادتِه، وتوقظ آلامَه التي حاولَ كثيرًا وأدها ..

فها هي "غرام" قد ضاعتْ منه، بعد أن وجدَ معها سعادتَه، وأحبَّها كما لم يحبْ امرأةً من قبل .. ولكن هل يُمكنُ للسعادةِ الحقيقيةِ أن تقومَ على زيفٍ وخداع ؟

لقد خدعته "غرام" ..

وكان يجبُ أن تدفعَ الثمنَ ..

فاقَ من شرودِه حينَ توقَّفَتْ بجواره - في تلك اللحظة – إحدى حافلات النقلِ العام، ودون أن يُفكرَ أو حتى يسألَ عن وجهتِها حشرَ جسدَه بينَ ركابِها، وتشبَّثتْ يداه بمسندِ أحدِ المقاعدِ، وقد وجد موضعاً لقدميه في منتصفِ الحافلة بينَ الأجسادِ المتلاصقةِ بصعوبة، واصلتْ الحافلةُ سيرَها في بطءٍ كعجوزٍ بلغَ من العمرِ أرذله، واختلطتْ أنفاسُ الوقوفِ في جوٍ خانقٍ اعتادوه يومياً، في حين كان " فارس" غارقاً في بحرٍ من الأفكار، وصورٌ عديدةٌ من شريطِ حياتِه ما زالتْ تمرُّ أمامَ عينيه ..

انطلقتْ من حلقِه تنهيدةٌ حارةٌ أخرى، وهو يُطالعُ وجوهاً بائسةً يائسةً أحاطتْ به ..

وجوهٌ تحملُ الكثيرَ والكثيرَ مما تعاني منه بلادُنا في تلك الأيامِ التي تشهدُ فترةً من أحلكِ فتراتِها في التاريخِ الحديث ..

مَنْ أرادَ أنْ يرى مصرَ فليتأملْ تلك الوجوه ..

لينظرْ للفقرِ النائمِ بين ثنايا تجاعيدِ وجوهٍ تحمَّلَ أصحابُها الكثيرَ والكثير على مدارِ سنواتٍ وسنوات على أملِ أن تبتسمَ لهم الحياةُ؛ علَّهم يشعرون ببعضٍ من الراحةِ في بلادهم !

فجأةً ..

أحسَّ بالاختناق، وكأنَّه شعرَ لتوّهِ بالزحامِ من حوله، فألقى بجسدِه خارجَ الحافلة قبلَ أنْ تتوقف، وراحَ يلتقطُ نفساً عميقاً من الهواءِ ملأ به صدرَه، وهو يتفحصُ ذلك المكانَ الذي نزلَ به ..

التقطتْ عيناه حروفاً بارزةً، تتصدرُ واجهةَ مبنى حديث، بدا وكأنَّه مصنوعٌ بأكمله من الزجاج " مستشفى الدكتور فوزي راشد للطب النفسي "..

وتذكرها ..

" شهد" ..

ابنة الحاج " فرج الجمل" التي لم يزرها منذ فترةٍ طويلةٍ في ظلِّ انشغالِه بحبِّه الذي وأده الخداعُ، وزواجه الذي لم يتمْ ..

تقدَّمَ بخطى ثابتة نحوَ المبنى، وكأنَّه قد خططَ لتلك الزيارةِ، ولم تأتِ عبثا ..

هتفَ به رجلُ الأمنِ قائلا بلهجةٍ ممطوطة :

- انتهى موعدُ الزيارةِ يا أستاذ .

وجدَ نفسَه يُلح على رجلِ الأمنِ بأنْ يسمحَ له بدقيقةٍ واحدةٍ يطمئنُ عليها وبعدَها يخرج ..

" فارس" نفسُه كان يتعجبُ من نفسِه، وهو أمامَ الرجل ..

لماذا كلُّ هذا الإلحاحِ لزيارة " شهد" ؟

بل لماذا ركبَ هذا الأتوبيس الذي لم يكنْ يعرفُ وجهته ؟

ولماذا شعرَ بالاختناقِ ليغادرَ الأتوبيس في ذلك المكان بالتحديد ؟

هزَّ رأسَه دونَ أن يجدَ إجابةً لأيّ سؤالٍ مما سبق، وراحَ يواصلُ طريقَه للداخلِ، وقد سمحَ له رجلُ الأمنِ بعدَ أنْ منحه " فارس" ورقة من فئة العشرة جنيهات، راحَ الرجلُ يتحسسها في سعادة ..

تقدَّمَ " فارس" وواصل خُطاه داخلَ طرقةٍ طويلةٍ توجدُ في نهايتها حجرةٌ ذات نافذةٍ زجاجيةٍ كبيرة كانتْ تقيمُ بها " شهد" ..

تطلع إليها من نافذةِ الحجرة، وهي نائمةٌ فوقَ فراشِها في رقةٍ ووداعة ..

ظلَّ مكانه للحظاتٍ يتأملُها، وتذكَّر ما حدثَ لها على يدِ أدعياء الدين، ثم هزَّ رأسُه في أسى، قبلَ أن يستديرَ مُغادرا المكانَ، وفي حلقه غُصَّة ..

غُصَّة ألمٍ ومرارة !

******

١٦- خيانة ..

غضبٌ عارمٌ سيطرَ على " الجن"، وراحَ يصرخُ قائلا بجنونٍ في وجوه رفاقِه، وقد جمعتهم شقتُهم مرةً أخرى :

- أنا لا أدري كيف تفكرون ؟ أين عقولكم أيُّها الأغبياءُ ؟ " كرشة " دفعَ حياتَه من أجلِ امرأةٍ يريدُها غصباً، و"النص" يوقعنا مع أهلِ الحيِّ في مشكلةٍ من أجل البرشام الذي يدمنه، إن تصرفاتِكم الحمقاء تلك ستقضي علينا، وتعيدنا مرةً أخرى إلى الرصيفِ والتشرد .

هتفَ " النص" قائلا في خفوتٍ، وهو يدخنُ سيجارَه الذي تفوحُ منه رائحةُ الحشيش :

- كفاك صراخاً يا "جن "إننا لسنا في مدرسة .. ومع ذلك سننتبه لتصرفاتِنا فيما بعد .

هدأتْ ثورةُ " الجن " قليلا، بينما رفع " الأعور" كأسَه، وألقى به مرةً واحدةً في جوفِه قائلا، وهو يمسحُ فمَه بكمِه :

- وماذا بعد يا "جن" ؟

تطلعَ إليه " الجن "هاتفاً بصوتٍ لا يخلو من التوترِ :

- ماذا تقصدُ يا " أعور" ؟

رفع " الأعور" حاجبَ عينه الواحدة فبدا منظرُه بشعاً، وهو يقولُ بصوتِه الأجشِّ :

- الموضوعُ الذي تكلمنا فيه .. نريدُ أن نقتسمَ الأموالَ ليأخذَ كلٌّ منا حقَه .

ظهرتْ خيبةُ الأملِ على وجه " الجن " الذي لم يستطعْ بثورتِه الكاذبةِ أن يشغلَهم عمَّا اجتمعوا من أجلِه، فقالَ في توتر:

- اسمعوني جيداً يا رفاق .. إن قوتنا في وحدتِنا وأنا .. وأنا لا أريد لعِقدنا أن ينفرطَ .

رفعَ "دبانة" حاجبيه قائلًا في غضب :

- وما شأن هذا بأن يأخذَ كلٌّ منا حقه ؟!

تراجعَ " الجن " بجسدِه الضخمِ إلى الوراء قائلا في هدوءٍ، وقد استعادتْ عيناه ابتسامتَه الساخرة التي تلازمها :

- إنني يا رفاقُ أعلمُ نقاطَ ضعفِكم جيداً .. نعم فمنكم المولعُ بالنساءِ، ومنكم المولعُ بالقمارِ، ومنكم المولعُ بالخمرِ و ..

قاطعه " الأعور" قائلا في ثورةٍ :

- إنك تريدُ خداعَنا يا " جن " و ..

جاء دورُ " الجن " ليقاطعَه، وهو ينهضُ من مقعده صارخاً في وجهه بثورة:

- " أعور" .. لا أريد أن أسمعَ صوتَكَ مرةً أخرى، وها هي الأموالُ أمامك في تلك الحجرة، خُذْ منها نصيبكَ إنْ شئتَ ، ولكن .. ولكن لا علاقةَ لكَ بنا منذُ اليوم .. هيا اذهبْ .

تطلع إليه " الأعور"، وأطرقَ برأسِه أرضاً، وقد انكمشَ داخلَ نفسِه، وغرقَ المكانُ في صمتٍ عميقٍ، بعد ثورةِ " الجن " التي أتتْ بثمارِها ..

راحَ " الجن " يراقبهم، وقد تأكدَ من نجاحِ لعبته، ورقصتْ أعماقُه من الفرحةِ، زيَّنتْ الابتسامةُ الساخرةُ شفتيه مرةً أخرى، وهو يعودُ لمقعدِه قائلًا بصوتٍ استعادَ هدوءه :

- صدقوني يا رفاق .. أنا حقا أخافُ عليكم، وأريدُ أن نكونَ معاً يداً واحدة؛ لنحققَ كلَّ ما نريدُ .. نريدُ أن نكونَ من صفوةِ المجتمع، مثل هؤلاء السادة الذين نراهم تماما، لا نختلفُ عنهم في مظهرٍ، أو مكانة اجتماعية .

وصمت " الجن " قليلا، استطردَ بعدَها ضاحكاً، وهو يتناولُ مسبحته :

- هل رأيتم الآنَ أنني على حقٍ يا رفاق .. ها .. ها ..

وراح يتطلعُ إليهم في صمتٍ، وأصابعُه تعبثُ بحبَّاتِ مسبحته، واتسعتْ ابتسامتُه؛ وقد تأكَّدَ أنَّ كلماتِه وجدتْ صدى داخلَ عقولهم، فراحَ يهتفُ بأعماقِه في فرحةٍ، وقد تراجعَ بظهرِه للوراء :

- يا لكم من أغبياء .. تريدون حقكم !

أيُّ حقٍ هذا أيُّها الأغبياء ؟!

أنا " الجن " ..

وسأثبتُ لكم أنَّ " الجن " عندما يدفعُ قرشاً فإنَّه يسترده آلافا ..

آلاف !

ماذا تقول يا " جن " ؟!

إنها ملايين .. نعم نعم ملايين ..

وقريباً أنتهى من ترتيبِ أموري، وأسافرُ لأعظمِ بلدانِ العالم ..

إلي أمريكا ..

أمريكا التي لن تعرفَ "برهوم الجن" قط ..

بل ستعرف " إبراهيم" .. إبراهيم باشا رضوان ..

اسمي الذي كدتُ أنساه ..

اسمي الذي لن يتفوَّه به مخلوقٌ بعدَ اليومِ إلا بكلِّ تقديرٍ واحترام ..

أما أنتم ..

أنتم أيُّها الأغبياءُ ..

فستعودون من حيث أتيتم ..

إلي الرصيف .. إلي الجوع .. التشرد .

واتسعتْ ابتسامتُه أكثرَ وأكثر، في حين كان الثلاثةُ يتطلعون إليه في شرودٍ، وقد أمسكَ كلٌّ منهم بكأسِه، وألقى به في جوفهِ مرةً واحدة في اللحظةِ التي دخلتْ فيها " تهاني" عليهم بملابسِها الضيقةِ المثيرة، وقد عادتْ من الخارج لتوّها، وراحتْ تُحيط عنقَ " الجن" بذراعيها البضَّتين، وهى تقولُ في ميوعة :

- تحت أمرك يا " جن ".. ما أن جاءني اتصالُكَ حتى وجدتُ نفسي أهرعُ إليكَ .

ابتسمَ " الجن"، وهو يتناولُ كفيها ليُجلسَها على قدميه قائلا، وذراعه تحيطُ بخصرها، وعيناه معلقتان بنهديها البارزين في شموخٍ :

- اشتقتُ لجرعةٍ من نهرِ النيل .

ضحكتْ في خلاعةٍ، وهي تضمُّ رأسَه في صدرِها بقوةٍ، فنهضَ واقفاً يقودُها لحجرتِه، وهو يقولُ لرفاقه :

- استميحكم عذراً يا رفاق .. لا بدَّ وأنْ ألبيَ نداءَ الطبيعة .

وأغلقَ بابَ حجرتِه خلفه، في حين كان الثلاثةُ يتابعونه في شرودٍ، وقد بدا على كلٍّ منهم أنَّه غارقٌ حتى النخاع في تفكير .. تفكير عميق !

******

خطا "سمير مصباح" بقدميه مساءً داخلَ شقته الكائنةِ بالدورِ الأولِ في ذلك البيتِ القديم بحي عابدين، أغلق البابَ خلفه بقدمه في بطءٍ، واضطجع بظهره عليه، بينما راحتْ عيناه تتجولان بأرجاء صالةِ شقتهِ التي أشعل أنوارها، عيناه ما زالتا تتفقدان المكان، وقد سيطر عليه إحساسٌ مريرٌ بالألم، وانبعث حزنٌ جليٌّ من عينيه حين وقعتا على هاتفه الأرضي الرابضِ فوقَ مائدةِ السفرةِ كالجثة الهامدة ..

من حلقه انطلقت تنهيدةٌ يائسةٌ مريرة، وهو يتذكرُ آخرَ مكالمةٍ كانت بينه وبين ولديه منذُ ما يقربُ من خمسة أشهر ..

خمسة أشهرٍ كاملة ولم يكلفْ أحدُهما نفسَه ولو لدقيقة واحدة ليتصلَ فيها بوالده ويطمئن عليه .. حتى ابنته الوحيدة أخذتها دوامة الحياة مع زوجها وأولادها بالخليج، وتمرُّ الأيامُ والأسابيع دونَ أن يسمع صوتها ..

ابتسم في مرارةٍ، وتذكر ولده الأكبر حين أهداه هاتفاً محمولا في زيارته الأخيرة لمصرَ منذُ أكثر من سبع سنوات، والتي لم تستغرقْ سوى بضعةِ أيام، وتذكر كيف أنه رفضَ هديةَ ولدِه بحجة أنه لا يعرفُ كيفية استخدامه، والحقيقة أنه كان لا يحبُّ أن يمتلكَ جهازا كهذا، واكتفى فقط بهاتفه الأرضي الذي أفقده خاصية الاتصال الدولي، بالإضافة أنَّ أولاده يعرفون جيداً مواعيد تواجده داخلَ شقته، والتي لا تتغيرُ إلا نادراً ، نعم .. كان هناك شيئٌ ما غامضٌ بداخله منذُ سنوات يدفعه دوماً لوضع أولاده في اختبار، هم فقط يملكون الوسيلة، هم فقط من بيدهم الاتصال به والاطمئنان عليه لو أرادوا، أوليس هذا حقه عليهم بعدَ كلّ تلك الرحلةِ الطويلة من العطاء؟

نعم .. كان يريدُ أن يشعرَ بحنانهم، وعطفهم، ولهفتهم للاطمئنان عليه، وتعرُّف أخبارِه، دونَ أن يكونَ وراءَ اهتمامهم به إحساسٌ بالذنب أو عتابٌ منه..

من عينيه انفلتت دمعةٌ ساخنةٌ سالت على خدِّه، وغابت بين تجاعيدِ وجهه، فمسحها بإبهامه، وهو يردِدُ بأعماقِه في ألم :

- تُرى هل من الممكن أن تنسيهم دوامةُ الحياةِ أباهم بالفعل ؟ أم أنَّهم ينتظرون موتي ليقوموا بزيارتهم الأخيرة - إن سمحتْ ظروفُهم - للمشاركة في مراسمِ عزائي ؟

وهل ننجبُ أبناءنا فقط للمشاركةِ في مراسمِ عزائنا ؟ وهل من العدلِ أنْ نفني عمرنا كلَّه من أجلهم إذا الأمر كذلك ؟

لم يدر "سمير مصباح" كم من الوقت مرَّ عليه، وهو على حالته تلك مضطجعاً على باب شقته ينظرُ للهاتف - الذي بدا له وكأنَّه توقَّف نبضُه للأبد - في حسرة، وتحرَّك من مكانه فقط عندما آلمته قدماه، فاتجه صوبَ مائدةِ السفرة التي تتوسط الصالة، وألقى عليها لفة الطعام التي أحضرها لعشائه دونَ أن يمسَّها متجاهلاً الروائحَ الشهيةَ المنبعثة منها، وواصل خطواته المنهكة صوبَ حجرةِ نومِه وهو يخلع جاكت بذلته، ويطيحُ به بيدٍ فوقَ أحدِ المقاعد، في حين كانتْ يدُه الأخرى تفكُّ رابطة عنقِه، وقدمه تدفعُ بابَ الحجرة، ظلَّ مكانه للحظاتٍ دونَ أن يضيء مصباحَ حجرته واقفاً خلفَ الباب، وصوت أنفاسه يتردِدُ بصوتٍ عالٍ، وسيطر عليه إحساسٌ مريرٌ باليأس، وقد شعر أنَّه صار قاب قوسين أو أدنى من الموت، تحسست أصابعُه

رقبته في حين كانت عيناه تتفقدان جدران حجرته في ظل ضوءٍ ضعيفٍ تسلل إليه من نور الصالةِ الذي تركه مضاءً، وراح يرددُ:

- الموت !

ماذا لو هاجمه الموتُ الآنَ، وهو وحيدٌ وسط تلك الجدران الكئيبة ؟

ولكن .. ما علاقة مجيء الموت بكونه وحيداً ؟

وهل كان الأمر سيختلف لو زاره الموتُ وهو وسط أبنائه وأحبائه ؟

لا بالطبع؛ فالنتيجةُ واحدة، والموت موت ..

ثم .. ثم لماذا يخشى الموتَ ؟

وأين حياته تلك التي سيسرقها منه الموتُ ؟

حياةٌ كهذه لا يمكنُ أن يبكي عليها أو يتمسكَ بها ..

نعم .. فلتأتِ أيُّها الموتُ علَّني أجدُ فيكَ راحةً أتمناها

- آاااااه .

انطلقتْ من بين شفتي "سمير مصباح" حاملةً معها كلَّ ما تئنُ به أعماقُه من ألمٍ ويأسٍ ومرارةٍ، وهو يلقي بجسده فوقَ فراشِه دونَ أن يخلعَ بقية ملابسِه بعدَ أن أشعلَ مصباحَ حجرته، وأخرج من صديري بذلته صورةً قديمةً بهتت ألوانُها لزوجته الراحلة، هتف بأعماقه وأصابعه تتحسسُ شعرها ووجهها :

- رحمكِ الله يا زوجتي الحبيبة .. كم أوحشتني !

مسح دمعةً أخرى بإبهامِه خدعته، وهو يعيدُ الصورة لمكانها فوقَ قلبِه في صديري بذلته بكلِّ حرص، ثم التقطتْ يدُه ألبوماً من الصور مجاوراً

لوسادته.. راح يتصفَّحُ صوراً عديدةً لأولادِه داخلَ الألبومِ في مراحلهم العمرية المختلفة، والسؤالُ ما زالَ يهاجمُ عقلَه في ضراوةٍ :

- ماذا ينتظرُ أبناؤه ليُطمئنوا قلبَه عليهم ؟

وبقى سؤالُه معلقاً في سماء الحجرةِ بلا جواب !

******

أصبح الطرفان – المؤيد والمعارض- وكأنهما قضيبا قطار لا يمكن أن يلتقيا، و أصرَّ كلاهما على رأيه، وارتفعتْ الأصواتُ المطالبة بالرحيل ..

وصرختْ أمامها أصواتٌ تطالبُ بالبقاء ..

وزاد الانقسامُ ..

وذهب المعارضون للتظاهر غضباً في ميدان التحرير ..

بينما ذهب المؤيدون للتظاهر فرحاً والاحتفال أمام قصر الاتحادية ..

واضطرَّ الرئيس المصري إلى التراجع عن الإعلان الدستوري، ولكن بعد فوات الأوان؛ فقد بلغ الانقسامُ والانشقاقُ مداه، وارتفعت نبرةُ التخوين، وتبادل الاتهاماتِ وانتشار الإشاعات بشكلٍ خطيرٍ بينَ الناس، فما من دقيقةٍ تمرُّ إلا وتخرجُ إشاعةٌ قويةٌ من أحد المعسكرين تنالُ من المعسكر الآخر، وتطعنُ في أحد رموزه، وفي دينه، وشرفه، ونزاهته .

هذا الجو المقيت كان يُمهّدُ لحربٍ أهليةٍ ضروس لن تُبقي على الأخضر واليابس لا قدر الله، وإذا لم ننتبه لخطورة الأوضاع فسنجدُ أنفسنا في وضعٍ كارثي يُنذرُ بعواقبَ وخيمة، ووقتها سوف يكون الندمُ شديداً في وقتٍ لا ينفعُ فيه الندم .

الأمرُ الذي دفع القواتِ المسلحة – من خلال بيانٍ تاريخي أذاعته جميعُ الفضائيات - إلى التدخل لرأبِ هذا الصدع، وإعطاء كافة الأطراف المتناحرة مهلة أسبوعٍ لإزالة الخلافات والتوحُّد على قلب رجلٍ واحد، وسادتْ حالةٌ من الترقُّبِ داخلياً وخارجياً في انتظار ما ستسفرُ عنه تلك المهلة، وقامتْ المروحياتُ العسكريةُ بإلقاء الأعلام على المتظاهرين بالميادين في إشارةٍ صريحةٍ من القوات المسلحة بأنَّها ستدعِّمُ الشعبَ، وتسانده مهما كان الثمنُ..

ولكنَّ القائمين على سُدَّة الحُكم لم يقدروا الأمورَ حقَّ قدرِها، وحاصر مؤيدوهم المحكمة الدستورية العليا، ومنعوا القضاةَ عن مباشرة أعمالهم، وانتشرتْ المظاهراتُ في أرجاءِ البلادِ تطالبُ الرئيسَ المصريَ بالتنحي؛ الأمرُ الذي دفع بالقوات المسلحة – من خلال بيانٍ تاريخي آخرَ - في إعطاء مهلةٍ أخيرةٍ لكافة الأطراف لمدة ثمانٍ وأربعين ساعةً ..

ومضى الطرفان في طريقهما المرسوم وعنادهما، وكأنَّهما أقسما ألا يتلاقيا، وألا يتعلَّما من التاريخ، أو يأخذا منه العِبْرَة والعِظَة ..

ومرتِ الثماني والأربعون ساعةً وسطَ الترقُّبِ في الداخل والخارج ..

وتحرَّكت القواتُ المسلحة - من خلال بيانٍ تاريخي جديد بثته جميعُ الشاشات - وأعلنتْ عزلَ الرئيس المصري، ووقف العمل بالدستور على أن يتولى رئيسُ المحكمة الدستورية رئاسة الجمهورية حتى يتمَّ انتخابُ رئيسٍ جديد يُوحِّد كلمة المصريين ..

واستقبل معارضو الرئيس السابق الخبر في فرحةٍ كبيرة ..

وامتلأت بهم الميادين في حشودٍ غفيرة لم تشهدها البلادُ من قبل ..

وراحوا يرقصون، ويغنون، ويرفعون الأعلام، وهم يطلقون الألعاب النارية ..

في حين اشتعلتْ أعماقُ المؤيدين بغضبٍ شديدٍ لا يمكن وصفُه ..

غضبٌ شملَ كلَّ ذرةٍ في كيانهم ..

غضبٌ أوقفَ عقولهم عن التفكير فيما آلت إليه الأمورُ ..

الأمرُ الذي كانَ يُنذرُ بكارثةٍ ..

كارثةٌ مُروّعة !

******

ما أن فتحتْ " شهد" عينيها، وهي فوقَ فراشِها بالمستشفى حتى وجدتْ " فارس" يدخلُ عليها، وفي يديه باقةُ وردٍ، تطلعتْ إليه في نظرةٍ طويلةٍ تحملُ الكثيرَ والكثير ..

اقتربَ منها " فارس" في هدوءٍ، وهو يُطالعُ ملامحَها الرقيقة، وجمالها الهادئ الذي لم ينلْ منه مرضُها ..

وضع " فارس" باقة الوردِ جانباً، وهو يُلقي بجسدِه فوقَ مقعدٍ مجاورٍ لفراشها، وتعلقتْ عيناه بعينيها الحائرتين طويلًا ..

من بين شفتيه خرجَ صوتُه مشبَّعاً بالأسى والمرارة، وهو يقولُ وعيناه لا تفارقان عينيها :

- " شهد" .. أعلمُ أنَّكِ تسمعينني جيداً، وأعلمُ أيضاً أنكِ ورثتِ عن أبيك العقلَ والحكمةَ والاتزان، اعلمي أنَّ ما يحدثُ لنا دوماً هو الخير بعينه وإنْ رأيناه شراً، واعلمي أنَّ الحياةَ يجبُ أن تستمرَ حتى وإن فقدنا فيها مَنْ نحبُّ،

وأنَّ الحياةَ قطارٌ لا ينتظرُ أحداً .. فعليكِ أن تقاومي ولا تستسلمي أبداً وإلا جرفكِ تيارُ الحياةِ في طريقه بكلِّ قسوة ..

قاومي يا " شهد" لتبدأي حياةً جديدة؛ فأنتِ ما زلتِ صغيرةً وجميلة، وأمامك الحياةُ بكلِّ ما فيها .

وصمتَ للحظةٍ سيطرَ فيها على مشاعرهِ استطرد بعدَها قائلا، وعيناه تطوفان بعينيها الجميلتين :

- أرجوكِ يا " شهد" .. أرجوكِ قاومي، واعلمي بأننا جميعاً في انتظارك، وفي شوقٍ لسماع صوتك .

قالَ ذلك ثم نهضَ واقفاً مُتطلعا إليها في حزنٍ، وربَّتَ على كفِّها قبلَ أن يغادرَ الحجرةَ، في حين كانتْ "شهد" تتابعه وقد توترتْ شفتاها، وفي عينيها الحائرتين كان يلوحُ ألفُ سؤال ..

ألف ألف سؤال !

******

١٧- سمير مصباح ..

مشاعرٌ مختلطةٌ من الهلعِ والحزنِ والحسرةِ والألمِ تجسَّدتْ كلُّها في وقتٍ واحدٍ فوقَ ملامحِ المعلم "توفيق"، بعدَ أنْ رفع هاتفه، وتلقى اتصالاً قصيراً من أحد ضباط الشرطة بمديرية الأمن، طار بعدها الهاتفُ من يده، وسقط أرضا وسطَ روادِ المِقهى، الذين فزعوا إليه يحاولون إسعافه، ولا يعرفون سبباً لما أصابه، ولا ماذا حملتْ إليه تلك المكالمةُ القصيرة ..

التقط " أحمد راغب" الهاتفَ من الأرض، وصوتُ الضابطِ يدوِّي من خلاله قلقاً على المعلم "توفيق"، واستمع للضابط لحظاتٍ ليقول بعدها للمحيطين به من بين دموعُه:

- الأستاذ "سمير مصباح" مات .. إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ..

وما هي إلا لحظات بعدها إلا وكانت شقةُ "سمير مصباح" مقصدَ معظمِ روادِ المِقهى، الذين أفقدتهم الصدمةُ اتزانهم فهرعوا على أقدامهم صوبَ شقته، وأحدثوا في الشارع حالةً من الهرجِ والمرجِ أغضبتْ سائقي السياراتِ الخاصةِ والأجرةِ فارتفع نفيرُ سياراتهم محتجاً على ظهورهِم المفاجئ..

المعلم "توفيق" الذي حملوه داخل سيارة " أحمد راغب" وطوفانُ دموعِه لم يتوقفْ عن الانهمار، بينما لم ينتظر " الشامي" السيارةَ لتتحركَ فشاركَ الجموعَ الزاحفةَ تسبقه دموعُه، بينما كان "صنهاوي" يجري وراءَه يسأله عمَّا حدث؛ فقد عاد لتوّهِ من ناحيةِ الميدانِ، ولا يعلم شيئاً ..

توقفت عربة " أحمد راغب" وسط زحامٍ كبيرٍ تجمَّعَ أمامَ مدخلِ البيتِ، وبرز من وسط الزحام " فارس" والشيخ "عمرو" وقد علما بالخبر بعد اتصالٍ هاتفي من " أحمد راغب"، تقدَّم الاثنان لمساعدة " أحمد راغب" في إنزال المعلم "توفيق" من العربة الذي كان يبكي في انهيارٍ شديد؛ فسمير مصباح لم يكن مجردَ زبون مِقهى فحسب، بل كان أخاً وصديقاً بكلِّ ما تحمله الكلمةُ من معان .. استقبلهم ضابطُ الشرطةِ الذي اتصل بالمعلم "توفيق"، وهتف قائلاً في حزنٍ، وهو يربّتُ على كتفِه :

- البقاء لله يا معلم، وأعتذر كان لابدَّ من إبلاغك بالخبر؛ لأن النيابةَ ستحتاجُ منك كلمتين؛ فالراحلُ ليست له أقارب هنا كما تعلم، ونعرف مدى العلاقة بينكما .

انفجر المعلم "توفيق" في البكاء مرةً أخرى، وراح جسدُه يهتزُّ في شدةٍ عقبَ عبارةِ الضابط، في حين هتف " فارس" بالضابط في حزن :

- كيف مات ؟

همَّ الضابط أن يردَّ عليه، ولكنه تراجع في اللحظةِ الأخيرةِ، وكأنَّه لم يجدْ رداً مناسباً، فقال وهو يهزُّ كتفيه، قبل أن يتقدمهم لمدخلِ البيت :

- سترون الآن .

وحين وقعت أعينُهم على المنظر أدرك " فارس" حينها لماذا لم يرد عليه الضابطُ، والتمس له العذر..

لقد كان المنظرُ بشعاً بحق ..

جثة "سمير مصباح" ملقاة على ظهرها وسط الصالة ممزقة ملابسها، وفوق رأسِه كانت تتدلى سماعةُ الهاتفِ الأرضي، وكأنَّه حاولَ الاستنجادَ

بأحدِهم في لحظاتِه الأخيرة، ولم يمهله القدر، ليس هذا فحسب بل كانت جثته – التي فاحتْ رائحتُها- متآكلةً من مناطقَ كثيرةٍ وخاصة من الأطراف ..

غمامةٌ هائلةٌ من الحزنِ والحسرةِ سيطرتْ على الجميعِ، وألجمتِ الألسنةَ عن الكلامِ، ولكنّها لم تفلحْ مع العيون التي فاض ماؤها كالسيل ..

راح المعلم "توفيق" يتطلعُ لجثة رفيق عمره من خلف دموعه، وقد سيطر عليه شعورٌ هائلٌ بالتقصير في حقه؛ حيثُ انشغلَ بمشاكلِ حفيده " شادي" الذي تغيَّر من النقيض للنقيض، وبذل معه محاولاتٍ كثيرةً بلا فائدة..

" فارس" أيضاً أحسَّ بالذنب لانشغاله بحبِّه الضائع مع "غرام" بعد ظهور " كريم شهدي"، وميلاد حبه الجديد مع " شهد" .. فسيطر عليه حزنٌ عميقٌ وهو يتذكرُ كلَّ مواقفِه مع الراحل، ومداعباته له وهما يلعبان الطاولة بالمِقهى، وراح يردِّدُ في أعماقه، ودموعُه تلمعُ فوقَ خدِّه :

- الله يرحمك يا أستاذ "سمير" .

ترك المعلم "توفيق" جسدَه يهوي أرضاً بجوار الحائط، وراح جسدُه البدين يهتزُّ في شدةٍ وسط دموعه، ولم يتفوَّه بحرف، وهو يتابع وصول وكيل النيابة العامة بصحبة رجال المعمل الجنائي الذين لم يستغرقوا وقتاً طويلاً في تحليلِ ماهية الحادث، وأنَّها مجردُ حالةِ وفاةٍ عادية، ولا توجد بها شبهةٌ جنائية، وأكَّد رجالُ المعملِ الجنائي في تقريرهم بعد فحصهم للجثة وللمكان أن الفئرانَ موجودةٌ بكثرةٍ في الشقة، وهي التي قامت بقرض جثةِ الراحلِ بعدَ مفارقته للحياة ..

ما أن غادرَ وكيلُ النيابةِ المكانَ بعد أنْ صرَّحَ بدفنِ الجثة حتى هتف " أحمد راغب" من بين دموعه :

- يجبُ أنْ نخبرَ أولادَه؛ ليحضروا مراسمَ الدفنِ والعزاء و ..

قاطعه صوتُ المعلم "توفيق" صارخاً في غضبٍ، وهو ينهضُ من جلسته معتمداً على الحائط :

- لا .. لن نتصلَ بأحد؛ فالابنُ الذي ينسى أباه كلَّ تلك السنوات، لا حقَّ له في حضورِ جنازتِه أو حتى أخذ عزائِه .

******

" النص" يتلَّقبُ فوقَ فراشِه ليلا، وقد جفاه النومُ، وأبى أن يزورَ جفنيه، فاعتدلَ جالساً فوقَ فراشِه، ومدَّ يدَه أسفلَ وسادتِه، والتقط شريطَ برشامٍ انتزعَ إحدى حبَّاته، وألقى بها في جوفه، ثم أشعلَ سيجارته، وراحَ يُنفِّثُ دخانَها، وقد اشتعلتْ أعماقُه بغضبٍ رهيب، وما زالت ضحكاتُ " تهاني" الخليعة تدوّي في أذنيه، فأحسَّ بسخونةٍ تسري بين فخذيه، وصرختْ أعماقُه في سخريةٍ، ودخانُ سيجارتِه يندفعُ مِنْ بين شفتيه في قوة :

- يقولُ أنَّها له وحدَه !

هل يحلمُ هذا " الجن " الغبي ؟!

هل نسى ذلك المجنون مَن أنا ؟!

هل نسى بكم ضحيَّتُ أنا في سبيلهن ؟

هل نسى السنوات التي قضيتها خلفَ القضبانِ بسببِ حوادثِ التحرُّشِ والاغتصاب ؟

من الواضح أن هذا "الجن" الغبي قد نسى كلَّ ذلك، ولكن وبما أننا في تلك العزلة الإجبارية، فلا يُوجدُ أمامي غيرها ..

غير " تهاني" ..

غير التي يظنُّ أنَّها له وحده ..

وسآخذُها ..

نعم سآخذُها حتي ولو كانت زوجته كما يدَّعي..

بل حتى ولو كانت أمه..

وإذا لم آخذها أنا فمَنْ إذا يغمرُ ذلك الوجه الخمري بالقُبلات ؟

ومَنْ يعبثُ بذلك الشعرِ الأسودِ الليلي ؟

ومَنْ يلوّثُ تلك الأردافَ الممتلئة ؟

هل تعلم مَنْ أيُّها الجنُ الغبي ؟

إنه أنا .. نعم أنا حتى ولو اضطررتُ لقتلكَ .

وبرقتْ عيناه في جنون، في نفس اللحظةِ التي كان فيها " الأعور" يدورُ داخلَ حجرتِه كالثورِ الهائج، وقد جحظتْ عينُه الواحدة فزادتْ من بشاعةِ منظره، وهو يضربُ الحائطَ بقبضة يده، وأعماقُه تصرخُ في ثورة :

- " يقول أنَّه على حق !

أيُّ حقٍ هذا الذي تقصده أيُّها المحتال ؟

أتريدُ أنْ تنهبَ أموالَنا وتكونُ على حقٍ ؟!

أتريدُ أنْ تسلبنا ما كِدنا نُضحي بأرواحنا من أجله ؟!

لا أيُّها الأفَّاقُ المُحتال..

لن تأخذَ أكثرَ من حقكِ، بل لن تأخذَ حقكِ أيضاً..

نعم لن تأخذَ شيئا؛ أنا مَنْ سيستولي على كلِّ شيء، حتى ولو اضطررتُ لقتلكَ .. بل لقتلكم جميعاً .

وازدادتْ عينُه الواحدة جحوظاً في جنونٍ لتشاركَ عينَ " دبانة" اللتين جحظتا في غضبٍ، وهو يصرخُ بأعماقه داخلَ حجرته في تلك اللحظة :

- هذا النصابُ يريدُ أن يضحكَ علينا، يظننا أغبياء، ويظنُّ نفسَه الزعيم وصاحبَ العقلِ الوحيد، نعم هو الزعيمُ وصاحبُ الفكرة، ولكن هل يزيدُ عملَه عن أيّ فردٍ منَّا ؟

عند القتلِ نقتلُ معاً، وعندَ السرقةِ نسرقُ جميعاً، ولكنْ عندَ تقسيمِ الأموالِ فإنَّه يفوزُ بها وحدَه، ولا يتركُ لنا إلا الفُتات .. كل هذا لأنَّه الزعيم، وصاحب الفكرة، ولكن هذا لن يدومَ؛ والزعامةُ من الآن أنا الأحقُّ بها، سأتولَّى الزعامة، وأكونُ صاحبَ القرار، نعم سأكونُ الزعيمَ أيُّها النصابُ مهما كان الثمن .

ولمعتْ عيناه ببريقِ الجنون !

******

واصل " فارس" ارتداءَ قميصِه، وهو يقفزُ درجاتِ السلم في سرعةٍ، وأعماقُه ترقصُ من الفرحة منذُ أن جاءه هذا الاتصالُ من لحظات .. اتصالٌ من الحاج " فرج الجمل" والد

" شهد" المتواجدِ مع ابنته في المستشفى في تلك اللحظة ..

اتصالٌ قصيرٌ يحوي كلماتٍ قليلة، هتف بها والدُها من بين دموعه :

- " شهد تكلمتْ يا " فارس"، وأولُ اسمٍ نطقته هو اسمُكَ .. اسمُكَ أنت يا فارس "

تجاوزَ مدخلَ البيت بقفزةٍ واحدة، وهو لا يصدقُ ما سمعته أذناه منذُ لحظات، ليفاجأ بأحمد راغب في طريقه للجراج ليركنَ سيارته، وقد وصلَ لتوّه من بيته، فهجمَ عليه قائلا، وهو يساعده على النزول من سيارته :

- اسمحْ لي بسيارتك لمدة ساعة يا عم " أحمد" .

وقبلَ أن يردَّ " راغب" كان " فارس" قد ألقى بجسدِه خلفَ عجلة القيادة، وانطلق بسيارته، وسطَ دهشة " راغب" الذي ضربَ كفاً بكف، وهو يقولُ ضاحكاً :

- والله مجنون ! .. ولكن ما الغريب في ذلك ؟ أليس عمه هو "عرفة الضبع" رحمه الله ؟!

ثم استطرد قائلا، وهو يتطلع للمعلم "توفيق" من نافذةِ المِقهى، قبلَ أن يلقيَ بجسدِه فوقَ مقعدِه :

- صباح الخير يا معلم .. الشاي يا " زيزو" .

أما " فارس" فقد كان في تلك اللحظة ينطلقُ بسيارته، وأعماقُه تصرخُ في سعادة :

- هل حقا تكلمت " شهد" ؟ هل حقا نطقت باسمه ؟ وسألتْ عليه ..

وفجأةً ..

وقعتْ عيناه على ملامحه بمرآة السيارة، ولمحَ مظاهرَ الفرحة والسعادة، وقد تجسَّدت في عينيه، فهتفتْ أعماقُه في شرودٍ :

- تُرى .. ما سبب كل تلك السعادة في عينيك يا " فارس" ؟

ولماذا تركتَ منزلك سريعاً حينَ علمتَ أنَّها تكلمتْ ؟

ولماذا رقصَ قلبُكَ طرباً حين علمتَ أن اسمك أولُ ما نطقتْ ؟

تُرى .. هل .. هل ..

ولكن ما العجيب في ذلك ؟ إنَّه دائماً في شوقٍ لرؤيتها، ودائما أيضاً يشعرُ بالراحةِ، وهي معه وأمام عينيه، ولكن .. ولكن متى وأين ولدتْ تلك المشاعر بداخله ؟ إنَّه لم يتكلمْ معها سوى مرتين أو ثلاث من قبل حين كانت تأتي

لوالدها في محل الاكسسوار الذي يملكه لتجدَه جالساً معه، كان دائماً ما يعاملها كأختِه الصغيرة، لا يهمُّ متى ولدت تلك المشاعر، المهم أنَّها موجودةٌ الآن ..

فاقَ من شرودِه، وهو أمامَ المستشفى، فترك السيارةَ في عجلٍ لمسئولِ الجراج في الشارع، وانطلقَ يعبرُ البوابة، ومنها للطرقة الطويلة، وعَبْرَ نافذةِ حجرتها الضخمة، راحَ ينظر إليها، ودونَ أن يشعرَ وجدَ عينيه تلمعان بالدموعِ، وهو يتأملُ ملامحَها الرقيقة، وقد استعادتْ نضارتها ..

وتلاقتْ عيناهما ..

هتف بعينيه المترقرقتين بالدموع وسطَ أنفاسِه التي تتلاحقُ في سرعة :

- " شهد" .

تطلعتْ لدموع والدها الذي يبكي من السعادةِ، وتحركتْ شفتاها بحروفِ اسمه دونَ أن تنطق:

- أستاذ " فارس" .

هتفتْ عيناه :

- " فارس" فقط بدون أستاذ .

تحركتْ شفتاها :

- فـ ا ر س !!

ودونَ أنْ يشعرَ، وكأنَّ هناك قوةً مجهولةً تدفعه، وجدَ نفسَه يقفزُ من النافذةِ، على الرغم من أنَّ بابَ الغرفةِ على بُعدِ خُطوتين منه ..

اقتربَ منها..

تعلقتْ عيناه بعينيها ..

ودونَ أنْ يشعرَ، أو حتى يرى أباها، وجد نفسه يجثو على ركبتيه بجوار فراشِها، ويمسكُ كفَّها، ويتحسسُ أناملَها، وهو يقول :

- حمداً لله على سلامتك .

سحبتْ كفيها من بين أناملِه في خجلٍ، وهي ترددُ :

- الله يسلمك .

ربَّتَ الأبُ على كتفه قائلا من بين دموعِه :

- أشكركَ يا " فارس" .. الفضل لكَ بعدَ اللهِ سبحانه وتعالى .

نهضَ " فارس" ووقف أمامَ الحاج " فرج"، ومدَّ أصابعه، ومسحَ بها دموعَ الأبِ قائلا، وهو يتطلعُ لشهد في نظرةٍ طويلة :

- حاج " فرج " .. اسمحْ لي بأنْ أطلبَ منكَ يد " شهد" .

وكانت مفاجأةً للجميع .. مفاجأة بكل المقاييس !

******

كانت المرة الثانية التي تظهرُ فيها تلك السيارةُ السوداءُ الفاخرة ذات الرقم المُميَّز والزجاج الفاميه، كانت تقفُ على مَقرُبَةٍ من تلك البناية المُتطرفة في القاهرة الجديدة، وفي مقعدِها الخلفي كان صاحبُ المنظار الأسود ينفِّثُ سيجارَه ذا الرائحةِ النفَّاذة، وراحَ يتابعُ عبرَ شاشةِ عرضٍ صغيرةٍ كلَّ ما يحدثُ داخلَ شقة " الجن" ورفاقه عبرَ أجهزةِ اتصالٍ حديثة تمَّ زرعُها داخلَ الشقة، وارتفعَ حاجباه في ترقُّبٍ، وهو يرى " النص" خارجاً من حجرته يتسللُ على أطرافِ أصابعِه حيثُ حجرة " الجن"، ودفعَ بابَها في هدوءٍ، ووقفَ يتأملُ جسدَ " تهاني" المثير، وقد غرقتْ في سُباتٍ عميق، ابتلع " النص" ريقَه، وعيناه

معلقتان بفخذيها البضتين العاريتين، وراح يتحسَّسهما بأصابعِه العطشى، فانتفضَ جسدُ " تهاني"، ونهضتْ صارخةً في رعب :

- ماذا تريدُ أيُّها المجنون ؟

هجمَ عليها " النص" في جنونٍ، وراحتْ أصابعه تنهشُ جسدَها، وهو يحاولُ تقبيلها، وهي تصرخُ في شدة .. وفي تلك اللحظة فُتِحَ البابُ، ودخلَ " الجن" الذي سحبَ سلاحَه، وهو يصرخُ في جنون :

- ماذا تفعلُ أيُّها الحقير ؟

وقبل أن يتحركَ " النص" كانت رصاصاتُ " الجن" قد اخترقتْ جسدَه فهوى صريعاً تحت قدمي " تهاني" التي أسرعت تُلقي بجسدِها في أحضانِ " الجن" باكيةً، فربَّتَ على كتفيها قائلاً في شرودٍ :

- لا تخافي يا " تهاني"، ساعات وينتهي كلُّ شئ .

التقطتْ أذناه في تلك اللحظة جلبةً بالخارج، فهتف بتهاني قبلَ أنْ يخرجَ :

- انتظري هنا .

وخرجَ لتتسع عيناه في ذهول - شاركه فيه صاحبُ المنظارِ الأسود ، وهو يراقبهم عبرَ الشاشة - وهو يرى " الأعور" خارجاً من حجرته الخاصة، وفوقَ كتفه حقيبةٌ كبيرةٌ، فصرخ به :

- ماذا تفعلُ يا " أعور" ؟ وما هذه الحقيبة ؟

رمى " الأعور" الحقيبةَ الكبيرة نحوَ " الجن" فاصطدمتْ به ووقعَ معها أرضاً، وقد انفتح قفلُها، وسقطتْ منها أموالٌ كثيرة، وقبل أن يعتدلَ كانت رصاصات " الأعور" قد اخترقتْ جسدَه فهوى جثةً هامدة، وهو يقولُ بصوتِه الأجشِّ الكريه :

- الأموال ملكي أنا يا "جن"، ولن يأخذها غيري .

أسرعَ " الأعور" يجمعُ الأموال، ويعيدها للحقيبة مرةً أخرى في جنون، في اللحظةِ التي كان فيها "دبانة" يفتحُ البابَ ليُفاجأ بما يحدث، وقد عاد لتوِّه من الخارج، فهتف ساخراً :

- عظيم يا " أعور" .

وقبل أن يستديرَ " الأعور" كانت رصاصاتُ "دبانة" قد اخترقتْ جسدَه فهوى صريعاً فوقَ حقيبة الأموال، التي راح "دبانة" يتطلعُ إليها في جنونٍ، وأخذ يتلفتُ حولَه في حذرٍ، وهو يهتف قائلاً بجنونٍ مختلط بالفرحة :

- تُرى .. أين الباقون ؟

ونهضَ من مكانه ليُفاجأ بجثة " الجن" في أحدِ الأركان، فأسرعَ إلى حجرة " النص" ، وهو يُمنِّي نفسَه بأنْ يجدَه صريعاً هو الآخر، ولكن خاب ظنُّه حينَ وجدَ حجرته خالية، فخرج ليلمحَ بابَ حجرةِ " الجن" مفتوحا، فأسرع إليها، وقبلَ أن يدخلها تختفي " تهاني" خلفَ أريكةٍ ضخمة وتحبسُ أنفاسَها، ويدخلُ "دبانة" ليضحكَ في جنونٍ حين يرى جثة " النص" ليخرج بعدها ضاحكاً في جنونٍ، وهو يقول :

- ذهبَ الجميعُ إلى الجحيم يا "دبانة"، ولم يبقَ غيرُكَ .. أنت وحدكَ يا "دبانة" .

راح يتحسسُ الأموالَ غيرَ مصدقٍ، وهو يصرخُ في جنونٍ قائلا :

- المليونير "دبانة" .

وانطلقتْ من حلقه ضحكةٌ أخرى جنونية، وهو يحملُ الحقيبةَ في صعوبة؛ ليغادرَ المكانَ بلا رجعة، وقبل أن يتحرَّكَ بها، اخترقتْ جسدَه

رصاصاتٌ أودتْ بحياتِه ليلحقَ برفاقه، وظهرتْ " تهاني" من خلفه، وراحتْ تضحكُ في جنون، وهي تُلقي بسلاح " الجن" أرضاً :

- إلي الحجيم جميعاً يا أحقرَ المخلوقات، أنتم زرعتم وأنا سأحصد .. نعم.. نعم سأحصد .

اتجهتْ إلى الحقيبة، وفتحتها وتطلعتْ بعينيها إلى الأموالِ الكثيرةِ في ذهولٍ، وراحتْ تتحسسها بأصابعِها، وهي تصرخُ في جنون، وكفتاها تنثران الأموالَ فوقَ رأسِها :

- ربَّاه !! ما كلُّ هذه الأموال، يالسعادتك يا " تهاني"، لقد ابتسم لكِ الحظُ أخيراً، ستفعلين كلَّ ما تحلمين به .. نعم ستنشئين الملهي الليلي .. ملهي " توتو" السياحي .

راحتْ تُعيدُ الأموالَ للحقيبةِ مرةً أخرى في سرعةٍ، في اللحظةِ التي يشيرُ فيها صاحبُ المنظارِ الأسودِ لسيارةٍ تقفُ خلفه، لينزلَ رجالُها الخمسة بملابسهم السوداء وأجسادهم القوية، ويتوجهوا صوبَ البناية، وبأيديهم أسلحتهم القوية، في حين كان صاحبُ المنظار يتابعهم في ترقُّبٍ، ودخانُ سيجارِه يندفعُ من بين شفتيه في قوةٍ، وهو يبتسمُ في سعادة؛ فقد خدمته الأقدارُ أكثرَ مما يتخيل ..

نعم .. لقد جاء يحملُ أمراً بتصفيتهم بعد أن انتهتْ مهمتُهم فإذا به يُفاجأ بكرمهم، ويوفِّرون عليه الجهد، ويقومون بالمهمةِ بدلا منه..

اتسعتْ ابتسامتُه أكثر وأكثر، وتناول هاتفه، وهتف عبرَه قائلا بلهجةٍ آمرة :

- هذا الخبرُ يتمُّ نشرَه في جميعِ صحفِ الغد :

" الكشف عن خليةٍ إرهابية تتخذُ من إحدى شققِ القاهرة الجديدة مقراً لها، وبعد اشتباكاتٍ داميةٍ قامتْ تلك العناصرُ بتفجير مقرها، والمعلوماتُ الأوَّلية تؤكدُ أنَّ من بينهم عناصرَ خارجية أرادتْ الإضرارَ بأمنِ الوطن " انتهى الخبرُ، وسأرسلُ لكم الصورَ بعدَ قليل .

في تلك اللحظة كانت " تهاني" تهتفُ في سعادة :

- سأنشيء الملهى الذي أحلمُ به، وسيعلمُ الجميعُ أنني كنتُ على صوابٍ عندما تمردتُ على الفقر، واخترتُ طريقي، سأنتقمُ من كلِّ أهلي الذين نبذوني.. نعم سأنتقمُ منهم جميعاً .

رفعتْ " تهاني" الحقيبةَ في صعوبة، واتجهتْ بها نحوَ بابِ الخروج، وهي تُلقي بنظرةِ احتقارٍ على الجثثِ المُتناثرة في المكان، وقبلَ أنْ تفتحَ البابَ فُوجئتْ بالرجالِ الخمسةِ أمامَها يقضون على كلِّ أحلامِها قبلَ أنْ تولد ..

راحتْ " تهاني" تصرخُ في رعب :

- لا .. أنا لم أفعل شيئا، لقد خطفوني .. نعم خطفوني .. أنا ضحية و ..

ابتلعتْ بقيةَ عبارتها حين اخترقتْ إحدى الرصاصات حلقها لتهوي أرضاً جثةً هامدةً لتلحق برفاقها ..

وبعدَ دقائقَ كان صاحبُ المنظارِ الأسود يُومئ برأسِه من داخل سيارته للرجال الخمسة، ولم تمر ثوانٍ إلا ودوَّى انفجارٌ ..

انفجارٌ هائل أطاحَ بالشقةِ والمبنى كله ..

تابعَ ذو المنظارِ الأسودِ أحدَ رجاله، وهو يلتقطُ صورَ الانفجار، ثم أشارَ لسيارته بالتحركِ، وقلبُه يرقصُ بينَ جوانحِه في سعادة؛ فقد تمتْ المهمةُ وبنجاح .. نجاح ساحق !

******

حاولتْ "منال" مرارًا أن تهربَ من نظراتِ "صلاح عامر"، التي تتفحصُ جسدَها بنظراتٍ جريئةٍ وقحة كلها اشتهاء، وقد جلسَ خلفَ مكتبه يُدخن سيجارَه، ويُدندن بأحدِ الألحان الشعبية الشهيرة ..

على وجهها تجسَّدتْ كلُّ علاماتِ الألم والمرارة، وهي تفكرُ في طريقةٍ تتحصَّلُ منها على المبلغ المتبقي لإجراءِ العمليةِ لابنها الذي يُصارع الموتَ بالمستشفى ..

تنهَّدت في مرارةٍ، وهي تمسح فاترينة المحل لتعيدَ ترتيبَ وتنظيمَ المعروضات، وذاكرتُها تستعيدُ في مرارةٍ زوجَها على فراشِ الموتِ، وهو يطالبُها بأنْ تسامحَه؛ لأنَّه عجزَ أن يوفرَ لها الحياةَ الكريمةَ التي وعدها بها قبلَ الزواج و ..

فاقتْ من شرودِها على رنينِ الهاتف فوقَ مكتب "صلاح عامر"، الذي تناولَ السماعةَ في تراخٍ، بعد أن ألقى على جسدها نظرةَ اشتهاءٍ أخرى ..

ظلَّ للحظاتٍ يستمعُ لمحدثه، ثم نادى عليها قائلا، وعيناه لا تفارقان جسدَها :

- المستشفى تطلبكِ يا "منال" .

اشتدَّ جزعُها، وهي ترمقه بنظراتٍ تكادُ تكونُ خاويةً من الحياة، وراحتْ تتقدَّمُ نحوَه بخطواتٍ جامدة، ورفعتْ السماعة، وبصوتٍ متحشرجٍ هتفتْ :

- أنا "منال" .

اتسعتْ عيناها في هلع، وهي تستمعُ لمحدثها لما يقاربُ الدقيقة، وتجمَّدت الدموعُ بعينيها وأبتْ أن تسيلَ .. وضعتْ السماعة، وظلتْ قبضتها تعتصرُها في قوةٍ، وأعماقُها تموجُ بمشاعرَ مختلفة ..

تمالكتْ نفسها، وكتمتْ مشاعرَها، ورفعتْ عينيها إلى " صلاح عامر" الذي سألها :

- خيرا يا " منال " ؟

رمقته هذه المرة بنظرةٍ طويلةٍ جامدة، قبلَ أن تهتفَ بصوتٍ هادئ لا يتفقُ بتاتا وأعماقها المشتعلة :

- إنَّهم يُطمئنونني على " أيمن " .

وصمتتْ للحظةٍ أخرى، استطردتْ بعدَها بنفسِ الصوتِ الجامد :

- "صلاح" بيه .. هل ما زلتَ راغباً في معرفة ردي على عرضِكَ بالزواج ؟

لمعَ بريقُ الأملِ في عينيه وقال، وهو يتفحصُ جسدَها :

- ما زلتُ منتظرًا على أحرَّ من الجمر .

تألقتْ عيناها ببريقٍ عجيبٍ، وهي تواصلُ قائلةً بنفسِ صوتِها الجامد :

- ليس هنا يا " صلاح " بيه ؛ فهذا مكانٌ للعمل، ستعرفُ ردي غداً و ..

قاطعها في لهفةٍ قائلاً، وقبضتاه تحيطان بكتفيها :

- أنا تحت أمركِ في أيّ مكانٍ و ..

قاطعته بدورها هاتفة، وهي تُبعد كفيه عن كتفيها برفقٍ :

- غداً على كوبري قصر النيل، سأنتظرُكَ في السادسةِ صباحاً.

نظرَ إليها مُحدِّقاً في جسدِها الذي أفقدَه عقلَه، غيرَ مصدقٍ أنَّها أخيراً سترُدُّ عليه في أمر زواجه منها، وقال بفرحةٍ :

- لن ترى عيناىّ النومَ حتى موعدِ لقائنا، سأظلُّ مستيقظاً حتى الصباح .

ابتسمتْ في مرارةٍ، وهي تقول:

- اسمحْ لي بالانصراف الآنَ لأنّي مُتعبة، وأودُّ الاستعدادَ للقاء الصباح .

مرةً أخرى طافتْ عيناه بجسدِها، وقال وهو يبلع ريقه :

- كما تريدين يا حبيبتي، فغداً سيكون هذا المحلُ باسمك وحدَكِ .

رمته مرةً أخرى بابتسامة باهتة، قبل أن تُوليه ظهرها مغادرةً المحل في خطواتٍ جامدة، وقلبُها ينتفضُ ألماً بينَ ضلوعِها في شدةٍ، كطائرٍ هزيلٍ تهطلُ عليه أمطارٌ غزيرةٌ في أوج الشتاء !

******

أخيراً .. وبعدَ طولِ غياب، زارتْ الفرحةُ أهلَ ذلك الحيّ، وراحوا يشاركون " فارس" فرحته على " شهد" ابنة الحاج " فرج الجمل" صاحب الأفضال الكثيرة على الكبير والصغير ..

وأصرَّ " فارس" أن يبدأ الفرحُ من المستشفى، وحتى ميدان باب الخلق حيث يقيمون، ورحَّبتْ إدارةُ المستشفى بذلك، وصارتْ حجرةُ " شهد" بالمستشفى مكاناً لتجهيزها حيثُ حضر لها الكوافير، ومن قبله جاءها فستانُ الفرح وسطَ زغاريدِ العاملات بالمستشفى، وتهنئات المرضى والعاملين ..

جميعُ أهل الحيّ وقفوا مع " فارس" وقفةَ الرجالِ بأموالهم وسياراتهم، المعلم "توفيق" أصرَّ أن يكونَ فستان الفرح من أرقى المحلات وعلى نفقته الخاصة، أما " أحمد راغب" فقد أقسمَ ألا يقومَ بتصفيف شعر " فارس" سواه، و" صنهاوي" استعاد ذاكرته القديمة مع مهنتِه التي هجرها، وقام بدهان شقة " فارس" للزواج، حتى " الشامي" أقسم أن تكون حُلة " فارس" الجديدة على نفقته مهما تكلَّفَ ثمنُها ..

في حلته السوداء الفاخرة تقدَّم " فارس" نحوَ حجرتها ليصطحبها، وقد صارتْ في أبهى زينتها، تلفتتْ " شهد" حولها في أرجاءِ الحجرة، وكأنَّما يصعبُ عليها فراقُها .. تناول " فارس" أناملها بين أصابعه، وقال لها ضاحكاً، وهو يصطحبها للخارج، وسط زغاريد صاحبتها والعاملات بالمستشفى:

- أعدكِ أن نقضيَ بتلك الحجرة يومي الخميس والجمعة من كلِّ أسبوع .

وابتسمتْ "شهد"، وضحكتْ صاحبتها والحضور ..

وأمامَ بابِ المستشفى كان بانتظار " فارس" مفاجأة ..

وجد بانتظاره " كريم شُهدي " الذي صافحه في حرارة كبيرة ، وقال له :

- ألف مبروك يا " فارس"، لقد سألتُ عليكَ وعلمتُ أن اليومَ فرحُكَ .

هتف " فارس" في سعادةٍ قائلا، وهو ينظرُ إلى " شهد" :

- حضورُكَ وسامٌ على صدري " كريم " بك .

ربَّتَ " كريم شهدي "على كتفه قائلا :

- أنت تستحقُ كلَّ خيرٍ يا " فارس" .

ثم التفتَ إلى " شهد"، وقدَّم لها علبةً فاخرةً بها خاتماً من الألماس، وهو يقول :

- وهذه هديتكِ يا عروسة .

تطلعتْ " شهد " للخاتم في ذهولٍ، ثم نظرتْ إلى " فارس" الذي أومأ لها برأسِه فأخذته، وهي تقول :

- ولكنه غالٍ جدا .

ابتسم " كريم شهدي" قائلا، وهو يربّتُ على كتفِ " فارس" :

- ما فعله معي زوجكِ لا يُقدَّرُ بمال .

تناول " فارس" الخاتم، وألبسها إياه وسط زغاريدِ الجميع، والتفت " كريم" لفارس قائلا :

- ألف مبروك يا " فارس" .

ثم أشار لسيارته التي تقفُ قريبا، وقال :

- وهذه سيارتي يا " فارس" لتقلك مع عروستك حيث نادي الجزيرة، فهناك حجزٌ باسمك الآنَ، وسأقودُها لكما بنفسي .

وقبل أن يتفوَّه " فارس" بحرفٍ استطرد " كريم" قائلا :

- أما عن أهل الحي فهناك عشرُ سياراتٍ كبيرة من سياراتِ الشركة في انتظارهم؛ لتقلهم حيثُ النادي .

هتفَ " فارس" قائلا في سعادة :

- ولكن هذا كثير يا " كريم " بك و ...

قاطعه " كريم شهدي" قائلا :

- لسنا في كلِّ يومٍ نتعرفُ على رجلٍ مثلكَ يا " فارس"، وأنت رجل حقيقي، رجل بمعني الكلمة .

نظر إليه " فارس" في امتنانٍ، وأخذه بين أحضانه قائلا، وهو يُربّتُ على كتفه :

- أشكرك يا " كريم " بك .. أشكرك

ابتسم " كريم" قائلا :

- وبعد شهر العسل وظيفتكَ الجديدة بالشركة في انتظارك .

ردَّدَ " فارس" بذهول :

- وظيفتي الجديدة ؟!

- نعم .. نائب رئيس مجلس إدارة شركات كريم شهدي كلها .

ربَّت " فارس" على كتفي " كريم " في امتنانٍ، ثم تطلع إلى " شهد"، وهو يضغطُ على أناملها برفقٍ في نظرةٍ تعني الكثيرَ والكثير ..

نظرةٌ تعني بأنَّ أيامَ الدموعِ قد ولتْ ..

وحلَّتْ مكانها أيامُ الشهد ..

مع حبيبته " شهد" !

******

١٨ – لستُ للبيع ..

لم تمنعْ نسماتُ الصباحِ الجميلة - التي تبعثُ الانتعاشَ في الجسد، والتي استقبلها وجهُ "منال" في ذلك الصباح الباكر، وهي تقبضُ بكفّيها على السور الحديدي لكوبري قصر النيل – من أن تسيلَ دموعُها على خديّها في غزارةٍ، وهي تنظرُ لمياه نهر النيل، وقد جحظتْ عيناها في جنونٍ، وعقلُها يستعيدُ صوراً شتَّى من شريطِ حياتِها البائسة التي لم تنعمْ فيها بالسعادة إلا قليلا ..

انطلقتْ مِنْ أعماقها تنهيدةٌ حارة، بينما راحتْ أصابعُها تعتصرُ الحاجزَ الحديدي في قوة و..

فاقتْ مِنْ شرودِها، على صريرِ عجلاتِ سيارةٍ حديثة تتوقفُ خلفَها، ويدلفُ منها "صلاح عامر" مُتجهاً إليها، وهو يرددُ كلماتِ أغنيةٍ شعبيةٍ هابطة، وأصابعُه تعبثُ بسلسلة مفاتيحه، وقبل أن يتفوَّه بحرفٍ صكَّ أذنَه صريرَ عجلاتٍ سيارةٍ حديثة أخرى تتوقفُ خلفَ سيارته، ويدلف منها المعلم "رضوان"، وقد حشرَ جسدَه في حُلَّةٍ فاخرة، بدتْ غيرَ متناسقةٍ على جسدِه الشبيه بالثور، واتجه هو الآخر نحوَ "منال" وهو يرمقُ "صلاح عامر" في تساؤل.

وقفَ الاثنان أمامَ منال – التي اضطجعتْ بظهرِها على السورِ الحديدي لنهر النيل – وراحا يتطلعان لبعضهما في استنكارٍ، وكلٌّ منهم يودُّ أنْ يسألَ الآخرَ عَمَّنْ يكون، ولكن "منال" قطعتْ حيرتهما قائلةً، وهي تشيرُ لصلاح عامر:

- لا داعي للدهشة، هذا صلاح بيه عامر صاحبُ محلات الملابس الشهير، والذي أعمل عندَه، والذي عرضَ عليَّ الزواجَ عُرفيًّا مقابل محل بمصر الجديدة ونفقات علاج "أيمن".

نظرَ إليها "صلاح عامر" في ذهولٍ، في حين صوَّب "رضوان" نظراتِه النارية نحوَه، وقبلَ أن يتفوَّه بحرفٍ هتفتْ "منال" قائلةً، وهي تُشيرُ للمعلم "رضوان":

- وهذا المعلم "رضوان" صاحبُ الجنة التي أسكنُ فيها، والذي عرضَ عليَّ أيضاً الزواجَ العُرفي مُقابل أن يكتبَ الشقةَ باسمي، ونفقات علاج " أيمن ".

تطلع "صلاح عامر" في غضبٍ واستنكار إلى "رضوان"، الذي راح يفكُّ رباطَ عنقِه من حول رقبته، في حين استطردتْ "منال" حديثها صارخةً في وجهيهما بثورة :

- يالقلوبكما الرحيمة !

كلاكما فكَّرَ في علاج " أيمن"، والذي لا تعلمانه أن " أيمن" قد مات .. مات .

شحبتْ ملامحُهما أكثرَ وأكثر، وقد عرَّتهما "منال" تماما، ولم يعدْ لديهما ما يستران أنفسهما به، مع صرخات "منال" التي راحتْ تتوالى في غضبٍ، وسطَ دموعِها التي تنهمرُ على خدّيها في غزارةٍ :

- ولكن لي سؤال واحد لكما .. كم تساوي الرحمة عندكما ؟

أنتما مخادعان، كاذبان، خائنان؛ لأنكما في الحقيقة لا تريدان سوى جسدي ..

جسدي الذي بذلتما من أجله كلَّ غالٍ، ولكنكما نسيتما أمرا هاما ..

أنني لستُ للبيع .. هل تسمعان ؟ لستُ للبيع .. لستُ للبيع ..

انخرطتْ "منال" في نوبةٍ من البكاء الهستيري، في حين اشتبكَ الاثنان مع بعضهما البعض، وقد تجمَّعَ حولهما عددٌ قليلٌ من المارة، وبعضٌ من سائقي السيارات الذين راحوا يتابعون عن بُعد - في ترقُّبٍ - الشجارَ بينهما، وكل منهما يصرخ :

- إنها لي .. لي وحدي .

- كفي .

صرخةٌ قويةٌ انطلقتْ من بين شفتي "منال" أوقفت شجارهما، فراحا يتطلعان إليها في ذهول، وهي تصوِّبُ إليهما المسدس القديم الذي ورثته عن والدها، وقد جحظتْ عيناها في جنون .. اعترى الشحوبُ وجهيهما في شدةٍ كوجوه الموتى، وازدادت عيونُ مَنْ حولَهم ترقُّباً لما سيحدث، و"صلاح عامر" يهتفُ بها في رعبٍ قائلا :

- "منال" أرجوكِ لا تتهوري .. أنا سوف ..

ابتلعَ بقيةَ عبارته حينَ اخترقتْ رصاصاتُ "منال" جسدَه، فهوى تحتَ قدميها صريعاً، في حين صرخ "رضوان" في جنون :

- ماذا فعلتِ أيتُّها المجنونة ؟

وما أن انتهى من عبارته، حتى كانت رصاصاتُ "منال" قد اخترقتْ جسدَه ليهوي صريعا بجوار جثة "صلاح عامر"، وسطَ ذُعرِ المحيطين الذين حاول بعضهم التدخل لتهدئتها، ولكنها صرختْ في وجوههم، وهي تلوِّح بسلاحها ..

وألقتْ نظرةً أخيرة على جثة "صلاح" و"رضوان" الغارقتين في بحيرةٍ من الدماء القذرة، وراحتْ أنفاسُها تتلاحقُ في سرعة، وهي تتطلع لسلاحها، وقد

جحظتْ عيناها في جنونٍ عجيبٍ، ثم أفرغتْ ما تبقى بخزانتِه من رصاصاتٍ في جسديهما، قبل أن تُلقي بالمسدس وسطَ بركةِ الدماءِ التي أحاطتْ بهما ..

وفجأةً ..

وعلى غِرَّة مِنْ الجميع، رفعتْ جسدَها فوقَ حاجزِ السورِ الحديدي لكوبري قصرِ النيل، وراحتْ تنظرُ للحظاتٍ لمياه نهر النيل، وسطَ دهشةِ المحيطين الذين بدوا وكأنَّهم أُصيبوا بالشلل ثم ..

ألقتْ بجسدها ..

ظلَّ جسدُها يسبحُ في الهواءِ للحظاتٍ، وصرخاتُها يتردَّدُ صداها في سماءِ القاهرة :

- لستُ للبيع .. لستُ للبيع .. لستٌ للبيـ..

******

وصلتْ الأمورُ لطريقٍ مسدود، بعدَ أنْ أصرَّ كلا الفريقين على رأيه، وواصلَ معارضو الرئيسِ المعزول الرقصَ والغناء في الميادين، في حين أصرَّ مؤيدوه على الاعتصام في ميداني رابعة العدوية والنهضة لحين تحقيقِ مطالبهم، وعودة رئيسهم إلى الحكمِ مرةً أخرى، وفشلتْ جميعُ المحاولاتِ في إثناء أنصارِ الرئيسِ المعزول عن موقفهم؛ ليتركوا اعتصامهم، وراحتْ أعدادُهم تتزايدُ وتتزايدُ بشكلٍ مثيرٍ للقلق، حيث كان أنصارُهم يرسلون إليهم الحشودَ البشرية من الرجال والنساء والأطفال من كلِّ مكانٍ بمحافظات مصرَ؛ ليساعدوا إخوانهم في الاعتصام بميداني رابعة والنهضة، ويوزعون عليهم الأموالَ والوجبات ..

وصار لهؤلاء داخلَ الاعتصامين قانونُهم الخاص، وكأنَّهم صاروا دولةً داخلَ الدولة، فانتشر الرعبُ في كلِّ مكان، وكَثُرَتْ حالاتُ الاختطاف، وخاصة ميدان رابعة العدوية وما حوله، وكأنَّه تحوَّلَ إلى ثكنةٍ عسكريةٍ لأنصار الرئيس المعزول، وتصاعدتْ تهديداتُهم ..

ولكن متى كان للدولةِ ذراعٌ يُلوى ؟!

ولذا كان من المستحيل على الدولةِ أن تقفَ ساكنةً إزاءَ هذه التجاوزات خاصة بعد أن باءتْ كلُّ محاولاتِها السِّلمية بالفشل ..

فكان القرارُ ..

قرارُ فضِ الاعتصامين بالقوة؛ لتستعيدَ الدولةُ هيبتها المُهتزة ..

غضبٌ عارمٌ اعترى صوتَ الشيخ " مرتضى" بعد أن وصله قرارُ الفض، فراحَ يصرخُ عبرَ الهاتفِ قائلا بصوتِه الغليظِ من تلك المنطقةِ الصحراوية التي يختبئ بها على مَقرُبَةٍ من الحدود :

- اجمعوا الحشودَ من كلِّ مكان، وأنفقوا عليهم ببذخ، وافتحوا الملاجئ واصطحبوا أطفالَها لمكان الاعتصامين؛ لا بدَّ وأنْ يعرفَ العالمُ كلُّه حقيقةَ ما يحدث هنا، ولا بدَّ – أيضا – مِنْ أنْ يدفعَ هؤلاء المنقلبون ثمنَ ما اقترفتْ أيديهم ..لا أريد أخطاء .. هل تفهمون ؟

وأنهى اتصاله ليستدير بعدها لرجلين يقفان خلفه، ويقولُ لهما في صرامةٍ، وهو يشيرُ لشاحنةٍ كبيرة :

- هذه الأسلحةُ لا بدَّ وأن تكونَ بيدِ إخواننا الليلة في رابعة والنهضة .. هل تفهمون ؟

أومأ الرجلان برأسيهما، فربَّتَ الشيخ " مرتضى" على كتفيهما قائلا بصوته الغليظ :

- انطلقا الآنَ في حفظ الله .

تحرَّك الرجلان بالشاحنةِ التي تابعها الشيخ " مرتضى" ببصره حتى اختفت، ثم ردَّد بينه وبين نفسه، وفي عينيه غضبٌ شديد :

- النصرُ حليفنا بإذن الله .

في تلك اللحظة كان المعلم "توفيق" يصرخُ في وجه ابنه داخلَ المِقهى، وعلى وجهه غضب شديد :

- أين " شادي" يا أشرف بيه ؟

تطلع " أشرف" إلى أبيه في ارتباكٍ، وقال بتوتر :

- لا أدري يا أبي .. لم أره منذ أكثر من شهرين، وكنت أظنُّه عندَ أمه، ولما اتصلتُ بها أكَّدتْ أنها لم تره منذ فترةٍ طويلة، وحاولتُ الاتصالَ به كثيراً، ولكن هاتفه مغلق .

ردَّ المعلم "توفيق" قائلا بألم لا يمكن وصفُه :

- هذا ما كنتُ أخشاه، هذا ما كنتُ أخشاه و ..

قاطعه الابن قائلا في إشفاقٍ :

- أنا لم أقصِّرْ معه يا أبي و ..

صرخَ المعلم "توفيق" في وجهه قائلا بغضب :

- لا يا " أشرف " بيه أنت قصَّرت معه ، وأمه أيضا قصَّرت؛ كلٌّ منكما فكَّر في نفسه وحياته، ولم تفكرا فيه، " شادي" رفضَ كلَّ الاغراءاتِ ليعيشَ مع أحدكما ..

نعم .. " شادي" رفضَ أنْ يبيعَ نفسَه لأحدكما؛ لأنَّه وبكلِّ بساطةٍ كان يريدكما معا، كان يريدُ أن يعيشَ في بيتٍ به أبٌ وأم؛ لينعم فيه بعطفكَ وحنانها، وهذا حقه وحق كلِّ الأبناء على آبائهم .

وصمتَ قليلا ثم صرخَ بعدها، وقلبُه يتمزق، وقد جذبَ صراخُه روادَ المِقهى، فراحوا يتابعون الحوارَ في ترقُّبٍ :

- ابنك " شادي" ضاع .. ضاع يا " أشرف" بيه .

تطلع " أشرف" إلى أبيه في ألمٍ وقال، وهو يكاد يبكي :

- لماذا تقولُ ذلك يا أبي ؟ هل تعرفُ عنه شيئاً ؟

لم يستطعْ المعلم "توفيق" أن يمنعَ دمعةً خدعته، وسالتْ على خدِّه فمسحها، وهو يقول :

- " شادي" جاءني منذ فترة، كان يبدو غريباً، وقد أطلق لحيته، و.. وطالبني بتغيير نشاط المِقهى لأنه حرام .

وصمتَ قليلا ليصرخَ بعدَها في وجهِ ابنه قائلا :

- هل رأيتَ ماذا فعلتَ بابنك يا " أشرف" ؟ ابنك الذي لا نعلمُ عنه شيئا، ولا نعرفُ أين يكون ولا ماذا يفعل .

دمعةٌ أخرى خدعته، وسالتْ على خدِّه فراح يمسحها، وجسدُه الضخمُ يهتزُّ في قوةٍ من الغضب، وراحتْ أنفاسُه تتلاحقُ في سرعة، في حين راح الابنُ ينظر لأبيه في حيرةٍ وألم، ولم يعد يعرفُ ماذا يفعل، فاقتربَ منهما " صنهاوي" في تلك اللحظة، وقال للمعلم " توفيق":

- لا تقلق يا معلم، سنأخذ سيارة، ومعنا بعضٌ من شباب الحيّ، وسنبحثُ عنه في كلِّ مكان، ولن نعودَ بدونه بإذن الله .

نهضَ " أشرف" قائلا له :

- وأنا معكم يا "صنهاوي" .. هيا بنا .

تابعهم المعلم "توفيق"، وهم يخرجون من المِقهى، وقد انهمرتْ الدموعُ من عينيه بغزارةٍ :

- ربَّ إنّي لا أسألكَ ردَّ القضاء، ولكنّي أسألكَ اللطفَ فيه .

******

أشرق صباح ذلك اليوم .. وليته ما طلع !

فقد استيقظتْ مصرُ كلُّها على أنينٍ، وبكاءٍ، وصراخ، ودماء ..

الرعبُ والفزعُ يسيطران على كلِّ شيء، وكأننا في قلب حربٍ ضروس ..

وللحروب دائما ضحاياها ..

في ذلك الصباحِ قبعَ معظمُ المصريين في بيوتهم أمامَ شاشاتِ التلفاز يتابعون ما يحدثُ في ميداني رابعة والنهضة ..

الدماء تُغطي كلَّ شيء ..

الأشلَّاء مُبعثرة في كلِّ مكان ..

صوتُ الانفجارات يُدوّي بين آنٍ وآن ..

ومع كلِّ انفجارٍ يرتفعُ الأنينُ والصراخُ والعويل ..

إطلاقُ النيرانِ يشتدُّ ويشتدُّ من الجانبين ..

رسولُ الموتِ يرفرفُ بجناحيه في سعادةٍ فوقَ رءوس الفريقين ..

لا يفرّق بينَ رجالِ الشرطةِ أو المعتصمين ..

ومع كلِّ ضحيةٍ تسقطُ يتضاعفُ الغضب ..

وتزدادُ النيرانُ اشتعالا ..

ووسطَ كلِّ ذلك تصدَّرت الشاشاتِ مشاهدٌ أدمتْ قلوبَ المصريين جميعاً ..

مجموعةٌ من الأطفالِ الأبرياء - في موضع الاشتباكات - يرتدون ملابسَ بيضاءَ كُتب عليها بالخط العريض "مشروع شهيد" ..

دموعُ الأطفالِ الأبرياءِ وصرخاتُهم تستدرُ دموعَ المصريين أمامَ الشاشات..

صرخة مُلتاعة تنطلقُ من حنجرة أم فاتن التي كانتْ تتابعُ التلفازَ داخلَ شقتِها، حينَ وقعتْ عيناها على وجه ابنتها " فاتن" - التي هربت من الحيِّ مُنذ أشهرٍ قليلة - وسطَ جموعِ الأطفالِ داخلَ الميدان في ملابسهم البيضاء :

- فاااااااااتن ..

في تلك اللحظةِ ينطلقُ رنينُ هاتفِ المعلم "توفيق"، وهو يتابعُ ما يحدثُ أمامَ تلفاز المِقهى وسطَ زبائنه، يهتفُ عبرَ الهاتفِ في سعادةٍ بعدما وقعتْ عيناه على اسم المتصل، وهو يشيرُ لمَنْ حولَه بالصمت :

- " شادي" .. حبيبي .. أين أنتَ ؟

شحبَ وجهُ المعلم "توفيق"، وهو يردُ في هلع :

- نعم أنا .. أين " شادي" ؟ هذا هاتفه .

جاءه الصوتُ عبرَ الهاتف يقولُ :

- أنا لا أعرف مَنْ " شادي"، ولكنني وجدتُ هذا الهاتف .

- أين وجدته ؟

- في اعتصام رابعة .

هوى جسدُ المعلم "توفيق" أرضا، فاقدا لوعيه فتجمَّع حولَه روَّاد المِقهى، و" أحمد راغب" ينثرُ بعضًا من الماء البارد على وجهه، وراح يُدلكُ صدره بيديه، حتى تأوَّه المعلم "توفيق"، وقد عاد لوعيه، حمله روادُ المِقهى، وأجلسوه فوقَ مقعدِه، وفي تلك اللحظةِ وقعتْ عيناه على هاتفه، فتذكَّرَ ما حدثَ فراحتْ أنفاسُه تتلاحقُ في سرعة، ومن بين شفتيه انطلقتْ صرخةٌ ترددَ صداها في أرجاءِ المِقهى، وأدمتْ قلوبَ الجميع :

- شاااااااااادي .

الشمسُ تتوسطُ كَبِدَ السماء ..

أشعتُها تكوي الوجوهَ بلا رحمة ..

الانفجاراتُ والرصاصاتُ المتطايرة في كلِّ مكان تزيدُ من سخونةِ الأجواء..

عرقٌ غزيرٌ يكسو الوجوه ..

أعدادُ القتلى يتزايدون من الجانبين ..

لا توجدُ بارقةُ أملٍ في أن يعودَ أحدُهما لرشده حقناً للدماء ..

أصواتُ كِبار رجالِ الشرطة تُدوّي عبرَ مكبراتِ الصوت تدعو المعتصمين للاستسلام، وقد تركوا لهم معبراً للخروج الآمن لمَنْ آثرَ السلامةَ وخاصة النساء والأطفال والشيوخ ..

المعلم "توفيق" يهذي فوقَ فراشِه بمنزله، وقد ساءتْ حالتُه :

- إذا كان " شادي" قد مات .. فأين جثته ؟

صرخاتُ أم فاتن الملتاعة تتردُ في أرجاءِ الميدان، وقد افترشتْ الرصيفَ المواجه للمِقهى:

- فاااااتن .... فاااااتن ..

على مَقرُبَةٍ من ميدان المعركة كان " فارس" يُتابع ما يحدث، وقد أخذ لنفسه ساترًا ..

بكى قلبُه بدموعٍ من دم، وهو يرى الدماءَ تسيلُ لتغرقَ أرضَ الميدانِ على مَقرُبَةٍ من مسجد رابعة ..

للحظةٍ خُيِّلَ إليه أنَّ ما أمامه هو حربٌ مع أعداءِ الوطن ..

نعم ..

فما يراه الآنَ بعينيه لا يمكنُ أن يحدثَ بينَ أبناءِ الوطن الواحد ..

ليس هكذا تُحلُّ الأمورُ ..

فالحروبُ لم تكنْ أبداً حلا ..

في الحروبِ لا ينتصرُ أحدٌ ..

في الحروبِ الجميع خاسرون ..

من عينيه سالتْ دموعٌ ساخنةٌ على خدِّه، وهو يرى أطفالا صغاراً في عمرِ الزهور يعدون أمامَه في ذُعرٍ بملابسهم البيضاء ..

تنهمرُ دموعُه في غزارةٍ كالسيل، وهو يرى طفلا يسقطُ أمامَه صريعاً، وقد اخترقتْ رصاصةٌ رأسَه، وراحتْ الأقدامُ – التي أصابها الذعرُ - تطأ جسدَه في قسوة ..

تشتعلُ أعماقُه بغضبٍ لا حدودَ له، وهو يُطالع الزهورَ الهاربة في فزع، ويدعو الله ألا تسقطَ زهرةٌ أخرى ..

تتسعُ عيناه في ذهولٍ، وهو يُحدِّقُ بوجهَ إحدى الفتيات الصغيرات ..

مستحيل .. " فاتن" ..

وقبلَ أن ينتهي لسانُه من نطقِ اسمها كان قد جرى، وأخذها بينَ أحضانِه في سرعةٍ، وعاد بها حيثُ يقفُ وراءَ الساتر ..

للحظةٍ أصابَها الفزعُ، ثم اطمأنتْ حينَ رأتْ وجهه، وغابتْ بينَ أحضانِه تُنشدُ الأمانَ، وسطَ دموعِها التي تسيلُ فوقَ خدِّيها ..

فجأةً .. يصرخُ أحدُهم على مَقرُبَةٍ منه وهو يعدو مبتعداً ..

- احذروا .. قنبلة ستنفجر .

ويُصاب كلُّ مَنْ حوله بالذعر، وكلٌّ منهم يحاولُ النجاةَ بنفسه قبلَ أن تنفجرَ القنبلة ..

يعدو " فارس" وسطَهم، وقد حملَ " فاتن"على كتفه، وأحاط رأسَها بذراعيه؛ ليحميها من أيِّ شيء ..

ومع انفجارِ القنبلة، انبطح بجسدِه أرضاً - كما فعل الباقون - وقد وضعَ ذراعَه أسفل رأس

" فاتن "؛ ليتلقى صدمةَ السقوطِ بدلا منها ..

وراتفعتْ ألسنةُ اللهبِ تلفحُ الوجوهَ، وتحرقُ الأقدام، وقد علاهم دخانٌ كثيفٌ جعلهم يسعلون في قوة ..

أحسَّ " فارس" بفاتن تتحركُ بين أحضانه، وكأنها تودُّ أن تذوبَ بداخله، فحمدَ الله أنَّهما ما زالا على قيدِ الحياة ..

انتبه " فارس" في تلك اللحظة أنَّ قدمَه فوقَ رأسِ جسدٍ انبطح صاحبُه أرضًا بلا حركة ..

رفعَ قدمَه عنه، وراح يهزُّ جسدَه في رفقٍ، فلم يجدْ منه استجابةً ..

تلفَّت حوله في حذرٍ، ثم اقتربَ منه، وراحَ يتحسسُ صدرَه، فوجدَه قد غادرَ الحياة ..

واتسعتْ عيناه في هلعٍ حين وقعتا على وجهه .. صرخَ في جنونٍ، وهو يحتضنُ رأسَه :

- " شادي" .. لا .. مستحيل .. مستحيل .

وراح يبكي في شدة، وقد أغرقت دموعُه رأسَ " شادي" وصدره، في حين كانت " فاتن" ممددةً بجواره تنتفضُ في رعب ..

وفاقَ مما هو فيه على أصواتِ جموعٍ كثيرة تعدو أمامه؛ لتنجو بنفسها بعيداً عن مرمى النيران الذي يقترب ..

نهض واقفا، والألم يعتصر قلبَه، وقبض على قدم " شادي" بيدٍ، وعلى يد " فاتن " بيده الأخرى، وراحَ يعدو ويعدو مبتعداً حتى أصبح في مأمنٍ من مرمى النيران المتبادلة، فرمى بجسدِه أرضا، وراحتْ أنفاسُه تتلاحقُ في سرعةٍ، وقد اختلط عرقُه بدموعه الغزيرة، وحين وقعت عيناه على وجهِ " شادي" مرةً أخرى، صرخَ بكلِّ ما يملكُ من قوة :

- آه .. يا شاااااااادي ..!

******

١٩- فارس ..

هناك ..

في ميدان بابِ الخلق، وبعد الظهر بقليل، فُوجئ أهلُ الحيّ بفارس يعبرُ الميدانَ العريق بجسدٍ منهكٍ، ووجهٍ يكسوه العرقُ الغزير، وملابس ممزقة تناثرتْ عليها بقعٌ من الدماء الجافة، وفوقَ كتفه كان يحملُ جثمان " شادي" الذي فارقَ الحياة، وبجواره كانت الصغيرة

" فاتن" تواصل خُطاها المتعثرة بوجهٍ شاحبٍ وعينين ممتقعتين ..

اتسعتْ عيونُ أهل الحيّ، وهم يتابعونه في ذهول، وقد جفَّت حُلوقهم، وبدا لهم فارس - في تلك اللحظة – بجسدِه القوي كمقاتلٍ من العصورِ الوسطى نجا لتوّه من حربٍ ضروس ..

شقَّ " فارس" طريقَه وسطهم، وهو يجرُّ قدميه جرًا، ووضع جثمان " شادي" أرضاً أمامَ المِقهى، وألقى جسدَه بجواره، ودفنَ رأسَه بين ذراعيه ..

من فوق الرصيف المواجه للمِقهى لم تصدقْ أم فاتن عينيها، حينَ رأتْ فاتن بجوار " فارس"، ودونَ أن تشعرَ وجدتْ نفسَها تجري في قوة – لا تدري من أين أتتها – نحوَ الفتاة الصغيرة، وتأخذها بين أحضانِها، وتغمرُها بالقبلات والدموع وصرخاتُها تهزُّ جَنباتِ الميدان العريق:

- فاااااااااتن ..

المعلم " توفيق " يتحركُ في بطءٍ بينَ الجموعِ مُستندا بذراعيه الواهنتين على " أحمد راغب" و" فرج الجمل"، ويتقدَّمُ نحوَ موضع " فارس" تسبقه

دموعُه، ويأخذ جثمان " شادي" بين أحضانه، وراح يُقبّله وهو يبكي في حُرقةٍ، ومِنْ حوله كان الجميع يبكون ..

راغب والشامي وصنهاوي وفرج الجمل ..

كلٌّ منهم كان يبكي في لوعةٍ وحرقة ..

كلٌّ منهم أرادَ أن يواسيه ..

ولكن كيف ؟

وكلٌّ منهم في حاجةٍ لِمَنْ يواسيه !

من آخر الميدان جاءتهم صرخاتُ " أشرف" ابن المعلم توفيق :

- سامحني يا " شادي" .. سامحني يا ابني .. أنا السبب .. أنا السبب .

المعلم " توفيق" احتضنَ ابنه " أشرف" الذي انخرطَ في نوبةٍ من البكاء الحار، بينما راحتْ أصابعُه تتحسسان وجه " شادي"، وهو يهتفُ من بين دموعه التي لا تريدُ التوقفَ:

- سبحانَ الله ولا حول ولا قوة إلا بالله .. لله الأمرُ مِنْ قبلُ ومِنْ بعد ..

******

صعدَ الشيخ "عمروحبيب" منبرَ المسجدِ الذي اكتظَّ عن آخره بالمصلين في داخله وخارجه والشوارع المحيطة، حيث أقبلَ المصلون من كلِّ حدبٍ وصوب للاستمتاع بخطبته ..

وما أن انتهى المؤذنُ من الأذانِ حتى نهضَ الشيخ " عمرو" بجلبابهِ الناصعِ البياض، وبدأ بحمدِ الله والثناء عليه، وراح يؤكّدُ خلالَ خطبته أنَّ البلادَ تمرُّ بفترةٍ حرجةٍ من تاريخها، وعلى الجميع نبذُ الخلاف، وضرورة الوقوف على

قلبِ رجلٍ واحدٍ من أجل بلادهم، وأكَّد – في شدة - على أنَّ كلَّ الدم المصري حرام، وعليهم ألا ينساقوا وراءَ دعواتِ التخريب التي يدعو إليها البعض ..

وأكّد - أيضا - أنَّه لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق، وأنَّ الحاكمَ الذي يريدُ الحُكمَ بأيّ طريقةٍ ولو على أشلَّاءِ الشعب، لا حُكمَ له، ثم أنهى خطبته داعياً اللهَ بأنْ يحفظَ البلادَ وأهلها، قبلَ أن ينزلَ من فوق مِنبره؛ ليؤمَّ الناسَ الذين تجمعوا حولَه عقبَ الصلاةِ في حشودٍ هائلة ليسلِّموا عليه ..

ووسطَ الزحام أقبلَ أحدُهم في جلبابه الأبيض وابتسامته الهادئة، وهتفَ بالشيخ " عمرو" قائلا له :

- تركتُ بلدتي بالصعيد، وقضيتُ ليلةَ أمس بالقاهرة؛ لأراكَ وأسلمُ عليكَ .

مدَّ "عمرو" يده ليصافحه، وعلى شفتيه ابتسامةٌ صافية :

- باركَ اللهُ فيكَ أخي الغالي .

تطلع الرجلُ ليده الممدودة، وابتسامتُه لا تفارق شفتيه، ثم فردَ ذراعيه، وأخذه بين أحضانه، وراح يُربّت على كتفه في مودةٍ بالغة ..

وفجأةً ..

اتسعتْ عينا الشيخ "عمرو" في هلعٍ ..

أرادَ أن يبتعدَ ..

ولكنه فُوجئ بالرجلِ يضمُه إلى صدرِه في قوةٍ ..

وحدثَ الانفجارُ ..

انفجارٌ هائلٌ دوَّى في أحدِ أكبرِ مساجدِ وسط القاهرة ..

انفجارٌ أطاحَ بالرجلِ وبـ"عمرو" وعدد كبير من المحيطين ..

وتناثرتْ الدماءُ في كلِّ مكان ..

وتطايرتْ أشلَّاءُ عددٍ كبيرٍ من المصلين ..

وارتفعَ الصراخُ والأنين وسطَ حالةٍ من الهرج والمرج، والناجون يطأون بأقدامِهم جثثَ رفاقِهم من المصلين، وهم يبغون الفرار ..

وما أشبه تلك الليلة بالبارحة ..

بالأمس القريب كان معظمُ هؤلاءِ يحملون جثةَ أبيه " السيد حبيب " الذي فقدَ حياته ثمنا لأنبوبة بوتاجاز ..

وها هم اليومَ يحملون ما تبقَّى من جثمان ابنه " عمرو" الذي فقدَ حياتَه أيضا ..

نعم فقدَها لأنَّه رفضَ أنْ يبيعَ عقلَه لهم ..

أدعيَّاء الدين ..

رفضَ أنْ يجعلَ نفسَه سلعةً تُباعُ وتُشترى في سوق النخاسة ..

وكان يوما آخر من أيام الحزنِ التي اعتادها أهلُ ذلك الحيِّ ..

حزنٌ عميقٌ أدمى القلوبَ، واعتصرها بلا رحمة ..

عيونُهم شاخصةٌ للأمام في جمودٍ، وهم يشيعونه لمثواه الأخير، حيث يرقد أبوه ..

- " عمرو في الطريق إليك يا سيد " .

هكذا انطلقتْ صرخةُ أم عمرو مُدوِّية بينَ جموعِ المشيعين الذين اعتصرتْ الأحزانُ قلوبَهم بشدة، ولم تجدْ عيونُهم ماءً تسكبه على الفقيد، وكأنَّها نضبتْ من الدموع كبئرٍ جفَّ ماؤه !

******

في صباحِ أحدِ الأيامِ وقفَ " فارس" في شُرفة شقته بالدورِ الأخير يُدخن سيجارته، ووقعت عيناه على خبر تصدَّر صحيفةً صباحية كانت بيده : (انتحار سيدة المجتمع غرام السعدي الزوجة السابقة لرجل الأعمال الشهير كريم شهدي)، تنهَّد في مرارةٍ وأسى، وهو يلقي بالجريدة جانباً، ودخانُ سيجارته يندفعُ من بين شفتيه في قوة، وراح يتابعُ الميدان العريق، واعتصرتْ حلقَه غُصَّةٌ من الألم والمرارة، وهو يرى وجوه أهلِ الحيّ المُنكسرة التي كساها حزنٌ دفينٌ لهولِ ما رأتْ وعانتْ ..

المباني التي علاها السوادُ مِن آثار الحريق والتخريب الذي شهدته البلادُ مُؤخّرًا ..

انطلقتْ من أعمق أعماقه تنهيدةٌ حارة أخرى في اللحظة التي أحسَّ فيها بذراعي حبيبته

" شهد" تطوقانه من الخلف، وهي تهتفُ بصوتها الملائكي الرقيق :

- حبيبي .. ما الذي يشغله عنِّي ؟

طالع ملامحها الرقيقة في سعادةٍ حقيقية، وهو يتناول كفَّها ليجلسا معاً فوقَ مقعدين متقابلين بالشرفة قائلا، وعيناه على بطنها المنتفخة :

- كيف حالُ صغيرنا ؟

ربَّتت فوقَ بطنِها برفقٍ قائلةً في سعادةٍ :

- في خير حال، لا يتوقفُ عن الحركةِ ليلا أو نهارا، ويسألُ ما الذي يشغلُ أباه عنا الآن .

تحسَّس بطنَها مرةً أخرى برفقٍ، وكأنَّه يُطمئنُ مولودَه المُنتظَر، وهتفَ بأسى، وهو يُقبِّل راحتيها :

- أفكرُ في الحالِ الذي وصلتْ إليه بلادُنا .

نظرتْ إليه في هدوءٍ، وكأنَّها تتكشفُ - في تلك اللحظة - جوانبَ جديدة في شخصيته، فاستطرد قائلا بصوتٍ يُقطرُ ألما :

- هل تعلمين يا حبيبتي ما الذي تحتاجه بلادنا ؟

تحسَّستْ راحتيه قائلةً، وعيناها معلقتان بعينيه :

- ماذا يا حبيبي ؟

شرَدَ ببصره بعيداً نحوَ المجهول للحظةٍ، هتف بعدها قائلاً وكأنَّه يحلم :

- بلادُنا تحتاجُ حاكماً يحبُّها أكثرَ من حبِّه لنفسه ..

يحبُّها فعلًا لا قولًا ..

دونَ أنْ يهتمَّ بإرضاءِ جماعةٍ أو مؤسسةٍ تدعمه ..

يحبُّها أكثرَ من حبِّه للجاهِ والسُلطةِ والنفوذ ..

بلادُنا يا حبيبتي تحتاجُ ..

تحتاج قلباً يشعرُ بها ..

يتألمُ من أجلها ..

يعرفُ قيمتها ..

يسعى لإسعادِ أهلِها ..

ربَّتت فوقَ راحتيه قائلةً في هدوءٍ :

- حبيبي .. أعتقدُ أنَّ الأمورَ قد هدأتْ الآن، وأننا على أعتابِ مرحلةٍ جديدة و ..

ارتفعَ في تلك اللحظة أسفلَ العمارةِ صوتُ سيارةٍ مُميَّز، فنهض " فارس" ينظرُ إلى الشارع من شرفته، فوجد سائقَ سيارته التي تذهبُ به يومياً إلى

عمله في شركات " كريم شهدي"، فلوَّحَ له بيده، ثم استدارَ قائلا لحبيبته " شهد" بعد أنْ طبعَ قُبلةً فوقَ جبينِها :

- اهتمي بصغيري جيداً ولا تُرهقيه .

ابتسمتْ قائلة، وهي تربّتُ على كتفه :

- اهتمْ أنتَ بنفسك يا حبيبي، أنا وصغيرُكَ في انتظارِكَ حتى تعودَ .

ربَّت على كفِّها، وانطلقَ مُغادرًا شقته، وراحَ يقفزُ درجاتِ السلم ..

وعندما وصلَ للسلمة الأخيرة ..

وجدها أمامَه ..

فاتن ..

كانتْ تلهو في مدخلِ البيت بعروستها، وتوقفتْ عن اللعبِ حين رأته، وراحتْ تنظرُ إليه في سعادةٍ، وفوقَ شفتيها ابتسامةٌ صافيةٌ بلونِ الفجر ..

بادلها الابتسام، وربَّتَ على شعرها، وواصلَ طريقه نحوَ الشارع، ليتوقفَ مرةً أخرى مستديرًا إليها، حينَ جاءه صوتُها من خلفه، وهي تقول :

- إلى أين يا " فارس" ؟

- إلى عملي يا حبيبتي الصغيرة .

هتفتْ به في حزمٍ، مُلوَّحةً بإصبعها في وجهه، وكأنها تُخاطب عروستها الصغيرة :

- حسناً لا تتأخر .

تطلع إليها في سعادةٍ حقيقية، وهو يعودُ إليها ليطبعَ قُبلةً فوقَ جبينها، ثم يتركها ويمضي نحوَ السيارة التي تنتظره ..

وقبلَ أنْ تتحرَّكَ به السيارةُ، جاءه صوتُها مرةً أخرى هاتفةً باسمه، وهي تلوّحُ له بكفِّها الرقيقة، وقد ضمَّتْ عروستَها الصغيرة لصدرِها :

- فاااارس .

لوَّحَ لها " فارس" بأصابعِه، قبلَ أنْ تنطلقَ به السيارةُ، وقد زيَّنتْ وجهَها الملائكي الجميلَ ابتسامةٌ مشرقة ..

ابتسامةٌ تحملُ الأملَ ..

كلُّ الأملِ في غدٍ أفضلَ !

تمت بحمد الله

مجدي محروس

الإثنين ٩ / ٧ / ٢٠١٨

للتواصل مع الكاتب

- Tel: 01022157156
- Email: mohamedmagde.mm93@gmail.com
- F.B:https://www.facebook.com/profile.php?id=100009512051255